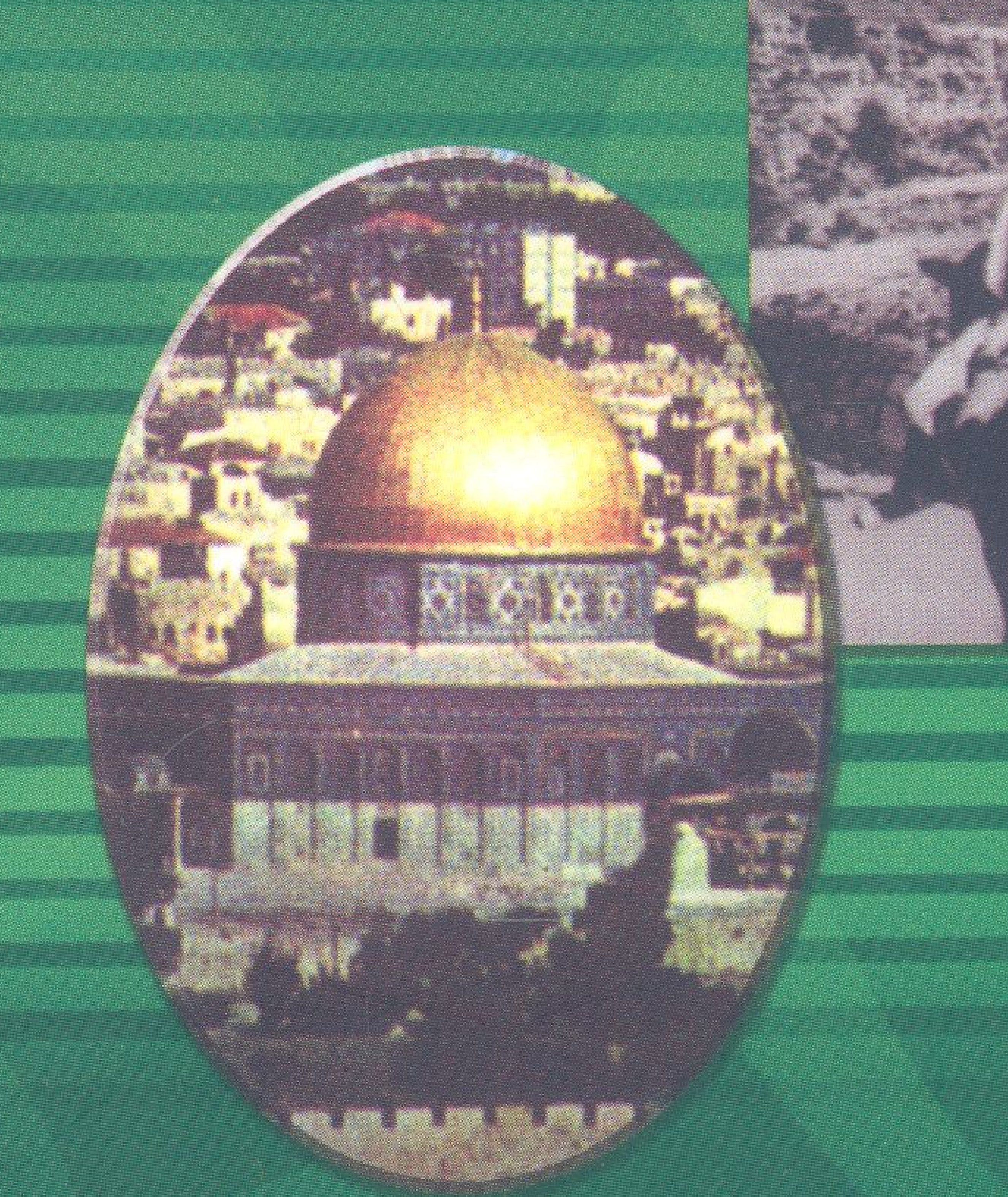
موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

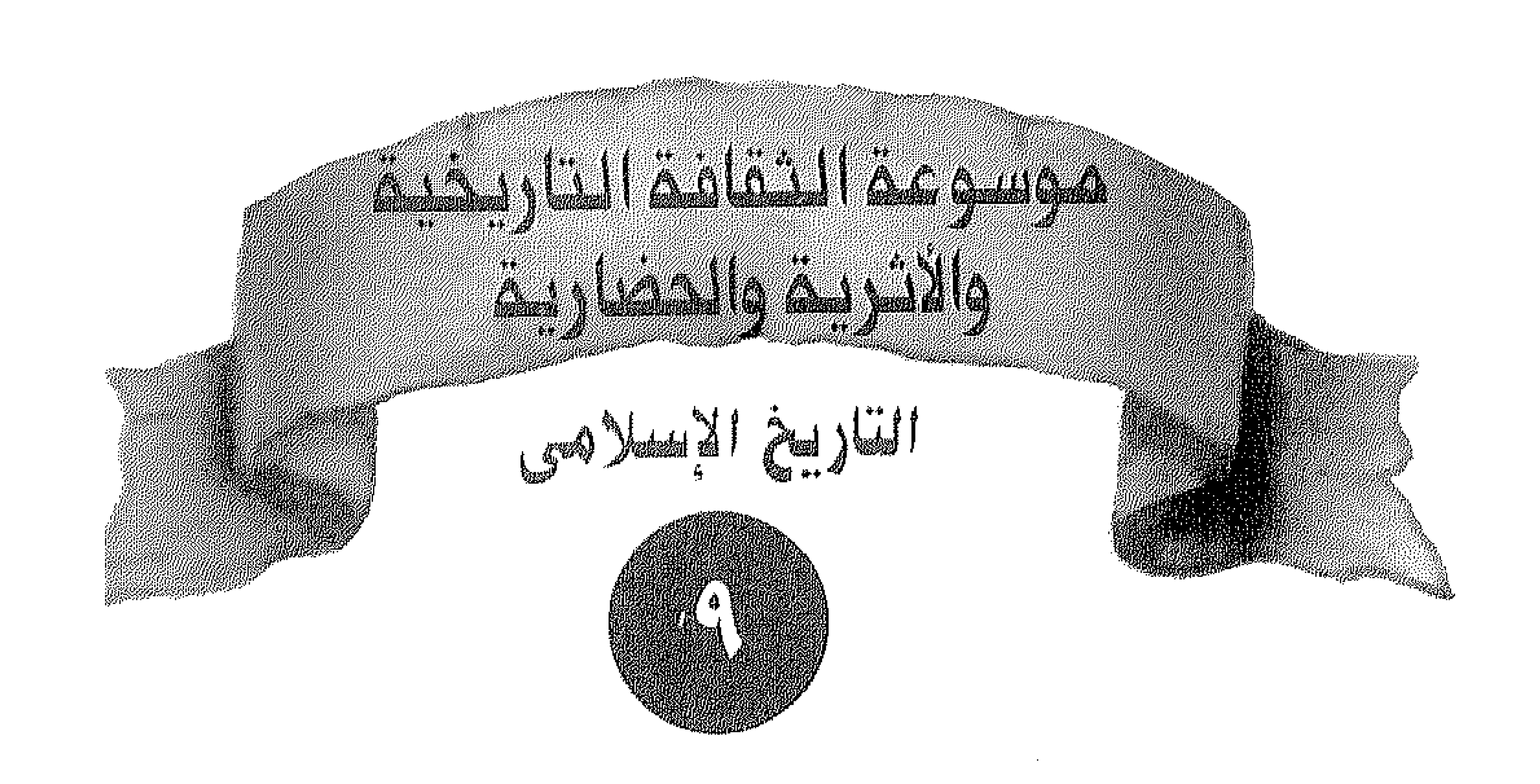


القدس عبر العصور



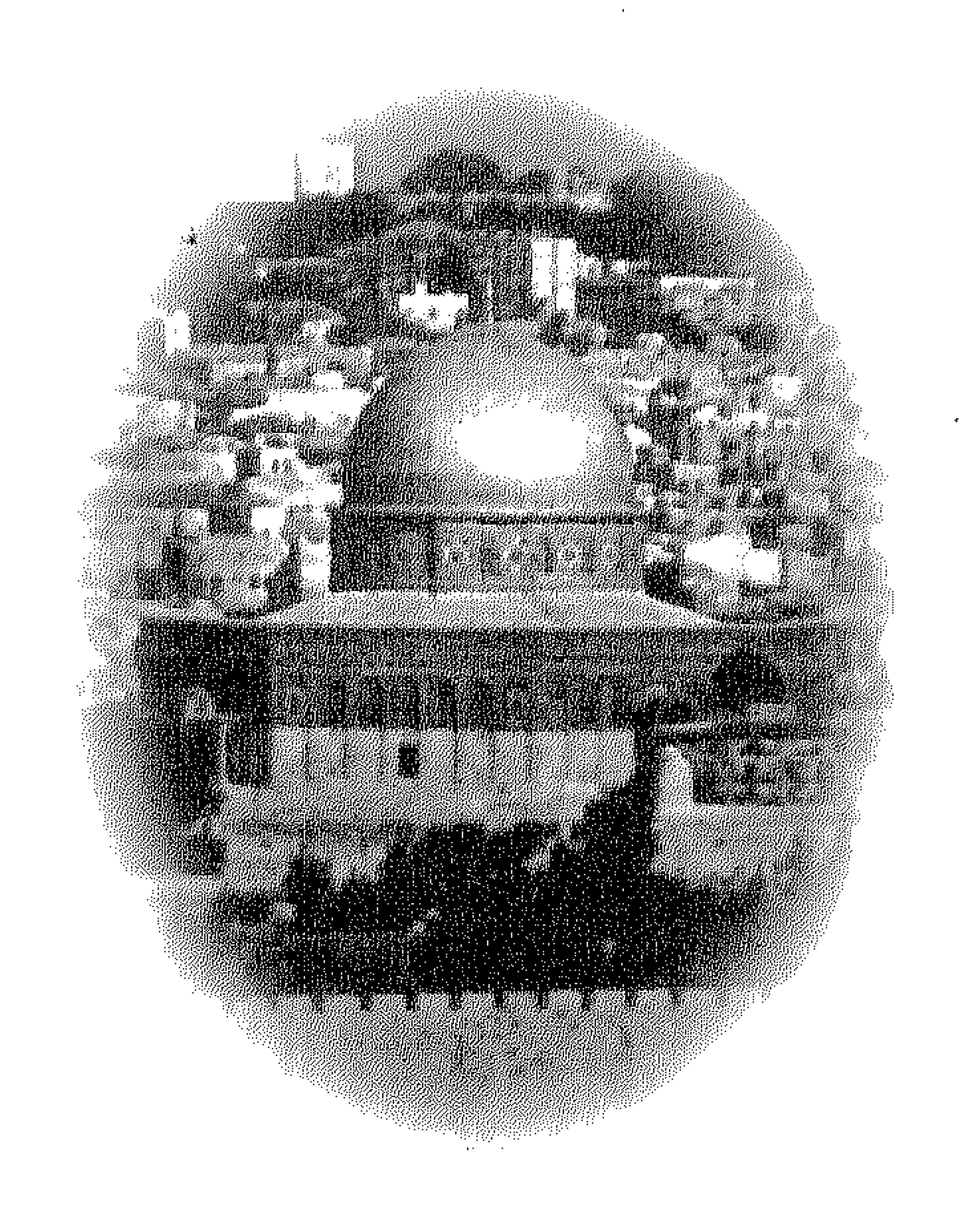


أ.د. محمد جلاء إدريس



القدس عبر العصور

تأليف
د / محمد جلاء إدريس
أستاذ الدراسات الإسرائيلية
ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة طنطا



مسجد قبة الصخرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية



صورة القدس فى أوائل القرن العشرين

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
ثريا إبراهيم حسين

٩٥٦,٠٣٢ محمد جلاء إدريس.
مح ق د القدس عبر العصور/ تأليف محمد جلاء . ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧.
١٠٤ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الإسلامى؛ ٩).
ببليوجرافية: ص ١٠٢ - ١٠٣.
تدمك: ٨ - ٢٠٩٧ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - تاريخ القدس. ٢ - القدس والفكر اليهودى. ٣- القدس الإسلامية. ٤ - القدس والاحتلال الإسرائيلى. أ - العنوان. ب - السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٧٨٤٥ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

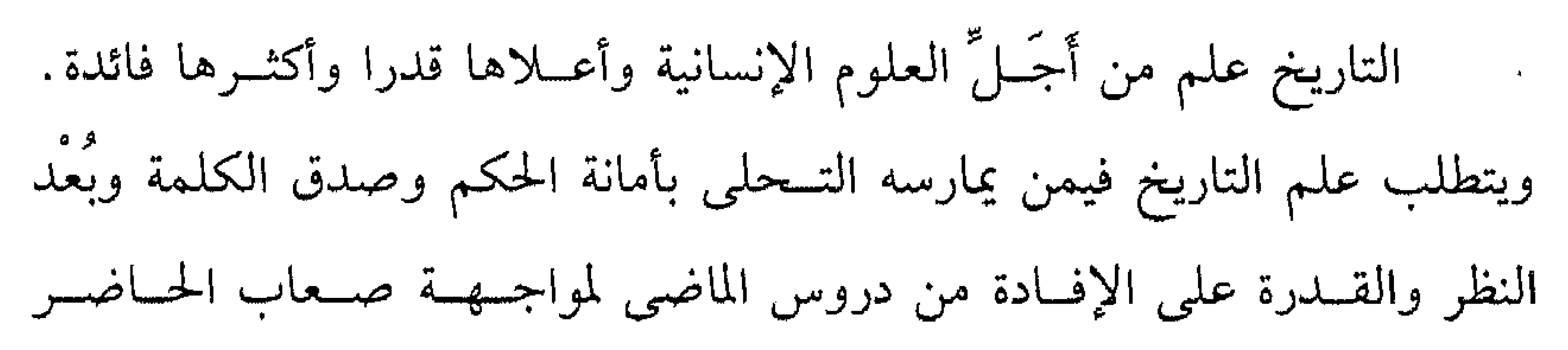
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة



التاريخ علم من أَجَلّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر



والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

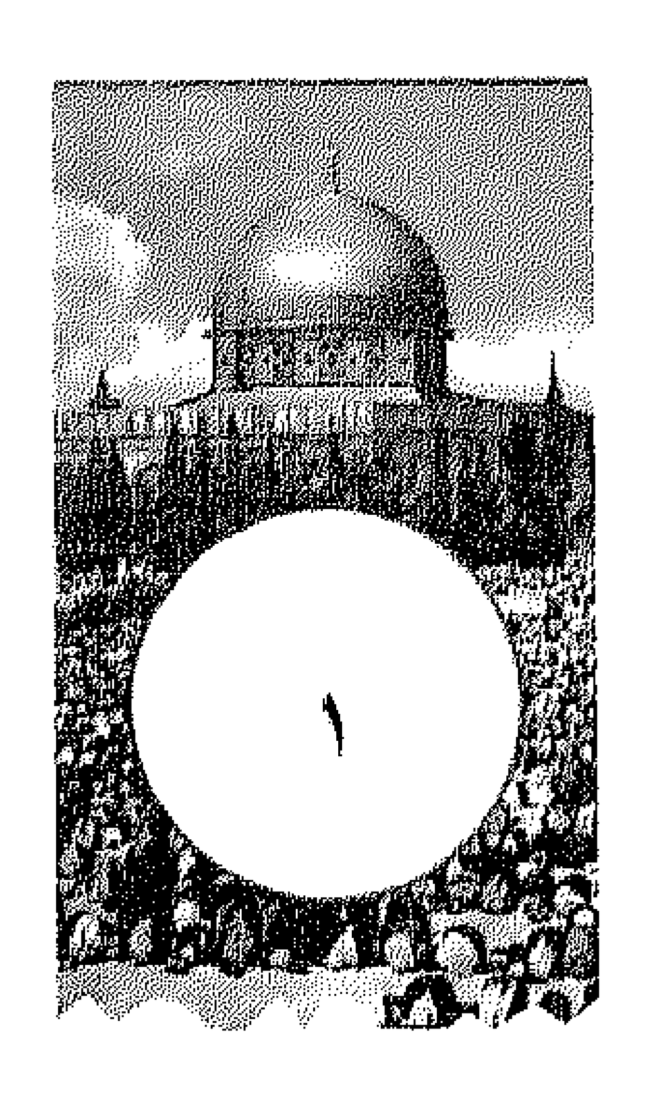
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

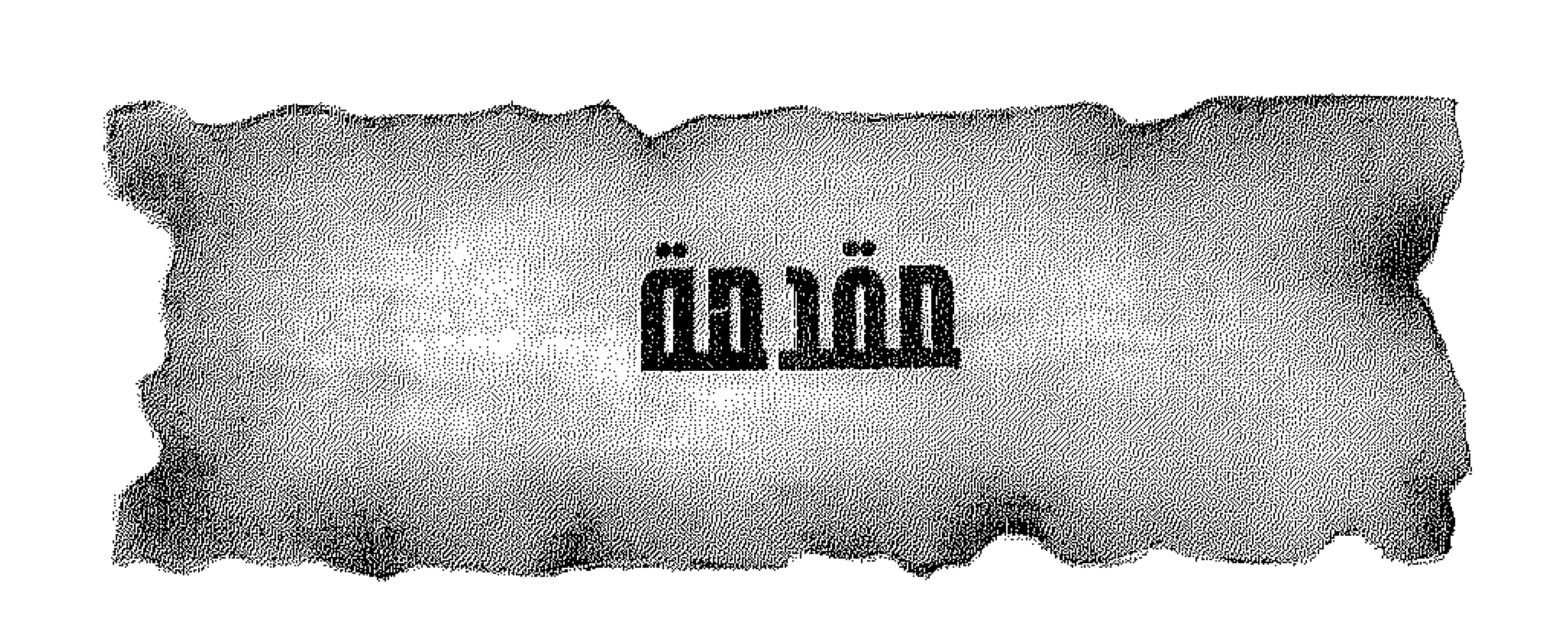
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





القدس عبر العصور هى تاريخ البشرية دون أن نبالغ. فهى مدينة ارتبط تاريخها بالقوى العظمى قديماً وحديثاً، ولا يمكن الحديث عن تاريخ القدس دون الحديث عن الساميين القدماء : العرب والكنعانيين والبابليين والآشوريين وغيرهم، ولا دون الحديث عن الفرس واليونان والرومان والفراعنة والمسلمين والصليبيين واليهود.

ولا يمكن لنا التغاضى عن الأتراك والمماليك والإنجليز والأمريكان والصهيونية والاستعمار والقومية العربية والصحوة الإسلامية المعاصرة.

ولابد من الغوص فى أعماق ما يسمى باليهودية والنصرانية، وكذلك الحديث عن الإسلام. وهل هذا كله إلا تاريخ البشرية ؟!

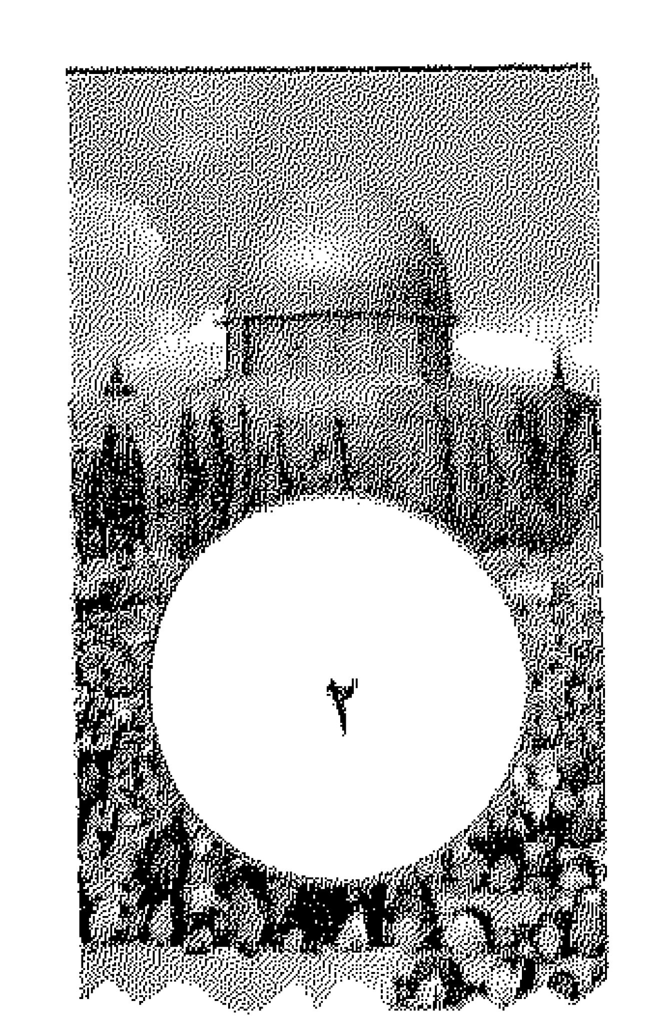
أمم وممالك وإمبراطوريات وشعوب وديانات وحضارات، ترتبط بدرجة أو بأخرى بالقدس.

هذا التشعب التاريخى يجعل من الصعوبة بمكان الإلمام بكل تاريخ المدينة على نحو مفصل، إذ أصبحت القدس هى التاريخ، وحصر التاريخ فى صفحات معدودات ضرب من ضروب المستحيل.

لذلك تأتى هذه الصفحات المحدودة، لتقدم لنا فى شكل موجز، محطات توقف عندها قطار التاريخ، نبين فيها المعالم البارزة، ونشير من خلالها إلى الأحداث التى يصعب أن نتجاوزها مهما كانت سرعة هذا القطار.

لقد بادت شعوب وممالك، ودالت أمم وحكومات، واندثرت آثار وانمحت معالم، وبقيت القدس.

لقداسة المدينة، وعظم مكانتها فى النفس البشرية، نقدم هذه الصفحات التى نعتبرها نوافذ نطل منها على تاريخ المدينة، فمن أراد أن يطيل الوقفة فليستزد مما سنلحقه فى الخاتمة من مراجع، ومن كان على عجل كفاه ما كتبناه، ففيه مفاتيح هذه القداسة، وسر تلك العظمة.



ولقد حاولت التزام الموضوعية والتمسك بأهداب النصوص التاريخية واستخلاص التأريخ منها، والإشارة إلى مصادر هذه النصوص عند ذكر كثير من الحقائق، وبخاصة تلك الحقائق التى غفل عنها المسلمون والعرب، وتغافل عنها الآخرون.

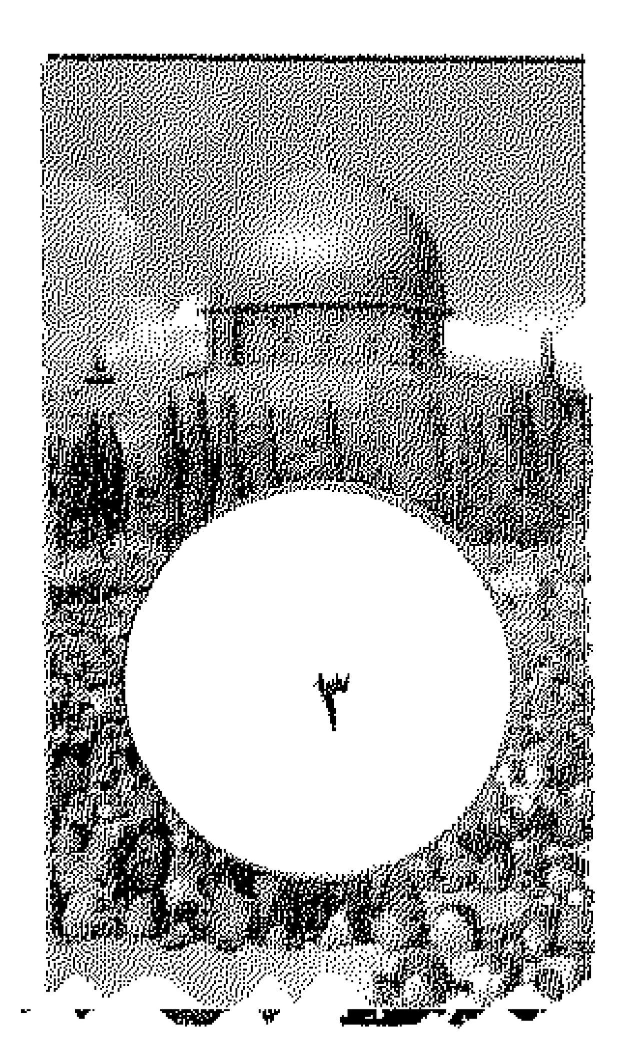
إن استعراض تاريخ مدينة القدس عبر العصور على النحو الذى أقدمه فى هذه العجالة إنما يهدف إلى فتح أبواب التاريخ لمن يريد الولوج إلى الأعماق لمعرفة كثير من الحقائق والأسرار.

ولئن كان كل عصر من عصور القدس يستحق مؤلفًا مستقلاً، فإنى أذكّر فى هذا المقام بأن الهدف الرئيس من هذه الصفحات هو ذكر المعالم دون الغوص فى التفاصيل، مراعاة للهدف من المعالجة، والمقصد من النشر.،

والله أسأل أن يعيد للقدس سلامها وإسلامها، وأن يحفظها من الخبث والخبائث.

المؤلف

د. محمد جلاء إدريس





أسماء المدينة

ربما يندر أن نجد مدينة تعددت أسماؤها واختلف فى تأويل هذه الأسماء على نحو ما نجد فى أورشليم القدس.

ومما يثير الانتباه حقًّا أن تغفل الأسفار الخمسة المقدسة عند اليهود والنصارى (التوراة) عن ذكر هذه المدينة التى احتلت - فيما بعد - مكانة بارزة فى الفكر الدينى الإسرائيلى، إلا فى مجال الذكر العارض، وقد سجلت هذه الأسفار - وغيرها من أسفار العهد القديم - عدة أسماء لهذه المدينة، تعكس جانباً من تاريخها.

ففى سفر التكوين ١٨/١٤ - ١٩، يرد اسم «شاليم» وملكها المسمى «ملكى صادق»، وهو نفس الاسم الوارد فى المزمور ٣/٧٦ بصيغة «ساليم»، والأرجح هنا أن هذا الاسم ليس سوى اختصار للاسم الكامل الوارد فى نصوص أخرى وصيغته «أورشليم».

وورد فى سفر يشوع ١١/١٩ - ١٢ اسم آخر للمدينة وهو «يبوس»، حيث كانت مدينة لليبوسيين، لا يقطنها عبرى واحد.

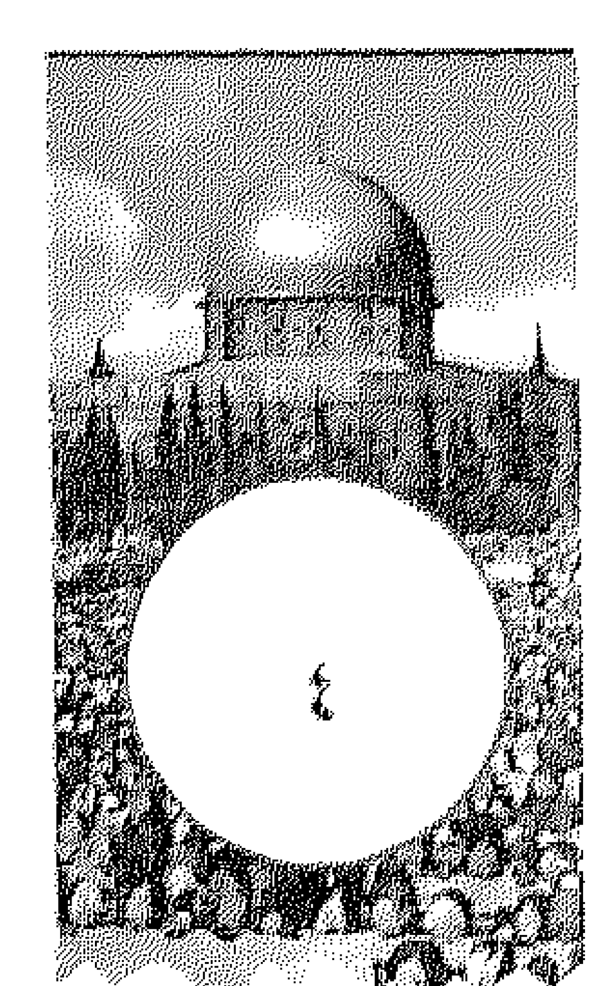
ويحمل سفر نحميا ١/١١ اسماً جديداً للمدينة هو : مدينة القدس، ويتكرر فى المزامير (١٣٤/ ٢-٣) وفى سفر إشعياء (٤٨ / ١ -٢).

وأورشليم ليست مدينة داود، ولا هى صهيون، إذ تفرق نصوص العهد القديم تفرقة حاسمة بين أورشليم من جانب، وصهيون أو مدينة داود من جانب آخر (مزمور ١٤٧/ ١٢، أُشعياء ٣١/ ٩، ٤١/ ٢٧..).

فصهيون، هى مدينة داود، وهى قلعة داخل أورشليم، فهى جزء من المدينة، وأورشليم سابقة فى الوجود على وجود داود ذاته.

وجدير بالذكر أن هذه التسميات الواردة فى النصوص العبرية المقدسة (صهيون، بروشالايم «أورشليم»، القدس) ليست أسماءً عبرية أو يهودية، ولا يمكن ادعاء ذلك بأى وجه من الوجوه، وإنما هى أسماء كنعانية، عرفت بها المدينة قبل أن يدخلها الإسرائيليون.

وأول ذكر لأورشليم ورد فى تلك النصوص المصرية القديمة المعروفة باسم نصوص اللعنة، وهى شذرات من الفخار عليها نقوش بالمصرية الهيروطيقية القديمة، ويرى العلماء أن تاريخها يرجع إلى



زمن حكم الفرعون **سيزوستريس الثالث** (١٨٧٨ - ١٨٤٢ ق م) وضمت أسماء ١٩ مدينة كنعانية كانت «روشاليموم» من بينها.

وتدل أسماء أمراء أورشليم الواردة فى تلك النصوص المكتشفة على أن أهل أورشليم - شأنهم فى ذلك شأن أهل سوريا - كانت لهم أصولهم السامية الغربية، وأنهم يشتركون معهم فى نفس النظرة إلى العالم.

وعاد اسم أورشليم مرة أخرى للظهور - فى الوثائق المصرية أيضاً - حيث ورد فى وثائق **تل العمارنة** التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق م (يوروساليم)، كما وردت فى مخطوطات سنحاريب الآشورية (يوروساليمو).

وتشير المكتشفات السابقة إلى أورشليم كمدينة كنعانية، حيث لم تكن فى أرض كنعان وقتئذ دولة متحدة، وإنما جمع من تكتلات قبلية شبه جوالة، ومدن قليلة يسيطر على كل منها «ملك» يخضع بشكل عام لإحدى القوتين العظميين آنذاك : مصر جنوباً، وآشور شمالاً.

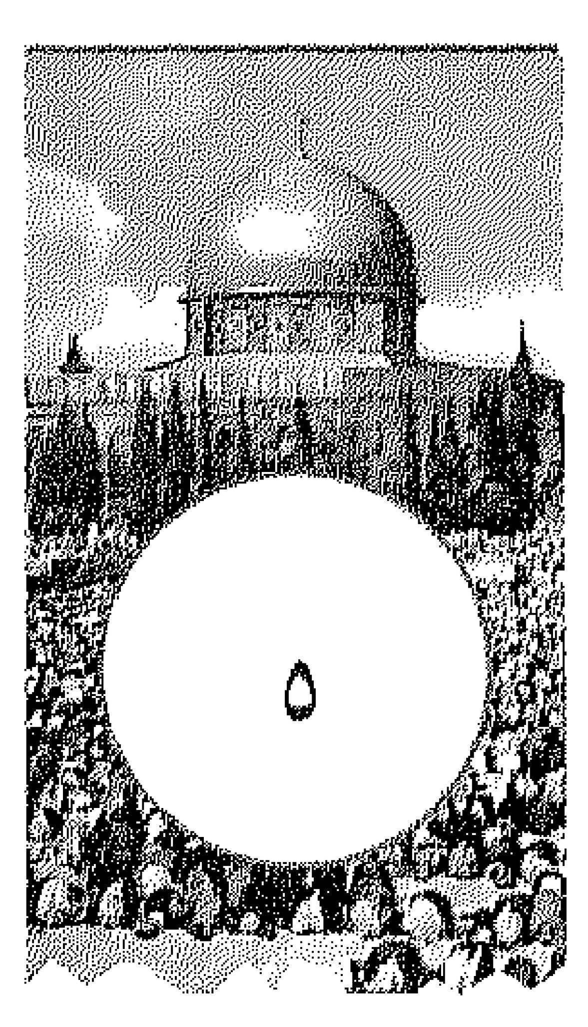
وجدير بالذكر أن تسمية «القدس» قد رافقت المدينة منذ بداية تاريخها - أى قبل غزو العبريين لها - عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة بالعبادات القديمة، وقد ذكر المؤرخ اليونانى **هيرودوت** (٤٨٤ - ٤٢٥ ق م) مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام وسماها مرتين «قديتس» (فى الجزء ٢ والجزء ٣ من تاريخه)، ويقول المؤرخ الفرنسى اليهودى سالومون مونك فى كتابه عن فلسطين : إن هذا الاسم على الأرجح هو القدس، محرفاً عن اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا».

ومادة هذا الاسم وهى : القاف والدال والسين (التى تقابلها الشين فى بعض اللغات السامية) تتعلق بالعبادة والطهارة والتخصيص، ومن ثم فإن دلالة «القدس» ترتبط على نحو ظاهر بالعبادة.

أما «حصن صهيون» فقد كان لليبوسيين - سكان المدينة الأوائل - قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من أورشليم، كانوا يطلقون عليها اسم «صهيون»، تم إنشاؤها لحماية مدينتهم والدفاع عنها، وربما كانت حصناً خاصًّا بملك أورشليم.

ولفظ صهيون كنعانى - وليس عبرياً - ولا يعرف معناه، وقد صار يعرف هذا الحصن فى عهد المسيح عليه السلام باسم **جبل صهيون** (رسالة إلى العبرانيين ١٢/٢٢، إلى أهل رومية ١١/٢٦).

وقد ظلت قلعة صهيون منذ أن شيدت - ولا يعرف تاريخ تشييدها - هى وأورشليم فى حوزة أصحابها اليبوسيين حتى تم غزو داود لهما، والاستيلاء على هذا الحصن لدوافع عسكرية بحتة، ثم قام - فى إطار سياسة تغيير المعالم - بتغيير اسم الحصن، ونسبه إلى نفسه وسماه بمدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٤ - ٢٠).



وثمة محاولات لربط اسم أورشليم بإله معبود فى هذه المنطقة، وأخرى ترده إلى صيغة آرامية مكونة من مقطعين : «أور» بمعنى موضع أو مدينة، «سالم» بمعنى السلام، وهو اسم إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين، وذهب آخرون إلى أن الاسم أورشليم يتضمن اسم الإله السورى «شالم»، وهناك من ربط بين أورشليم وكلمة «شالوم» العبرية حتى يصبح الاسم ذا مغزى سياسى وهو «مدينة السلام».

وما سبق كله موضع نظر، إذ لا يوجد بين آلهة الكنعانيين إله بهذا الاسم، كما لم يكتشف - حتى الآن - أى معبد فى أورشليم يرجع إلى تلك الفترة التى ظهر هذا الاسم فيها، وليس من المعقول أن تسمى مدينة باسم إله - تعظيماً وتمجيداً له - ولا نجد له معبداً يتعبد فيه سكان المدينة الذين أطلقوا عليها اسم معبودهم.

أما محاولة «عبرنة» الاسم وربطه بكلمة «شالوم» فلا تعتمد على أسس منطقية أو تاريخية على الإطلاق، فليس ثمة وجود للعبرية يعتد به فى القرن ١٩ أو ١٨ ق م، وهو الزمن الذى ظهرت فيه تسمية أورشليم، بل هناك فاصل بين ظهور هذه التسمية وظهور اللغة العبرية يصل إلى ثمانمائة عام.

ولعل الربط بين أورشليم و«مدينة السلام» يرجع إلى موقعها الجغرافى كمحطة قوافل، تنعم فيها القوافل عند وصولها إليها بالسلامة والأمان، لأنها بعد هذه المحطة تستطيع أن توازى ساحل البحر حيث لا ينقطع الماء ولا الأمن، ومن هنا فهى «مدينة السلامة» لا «مدينة السلام».

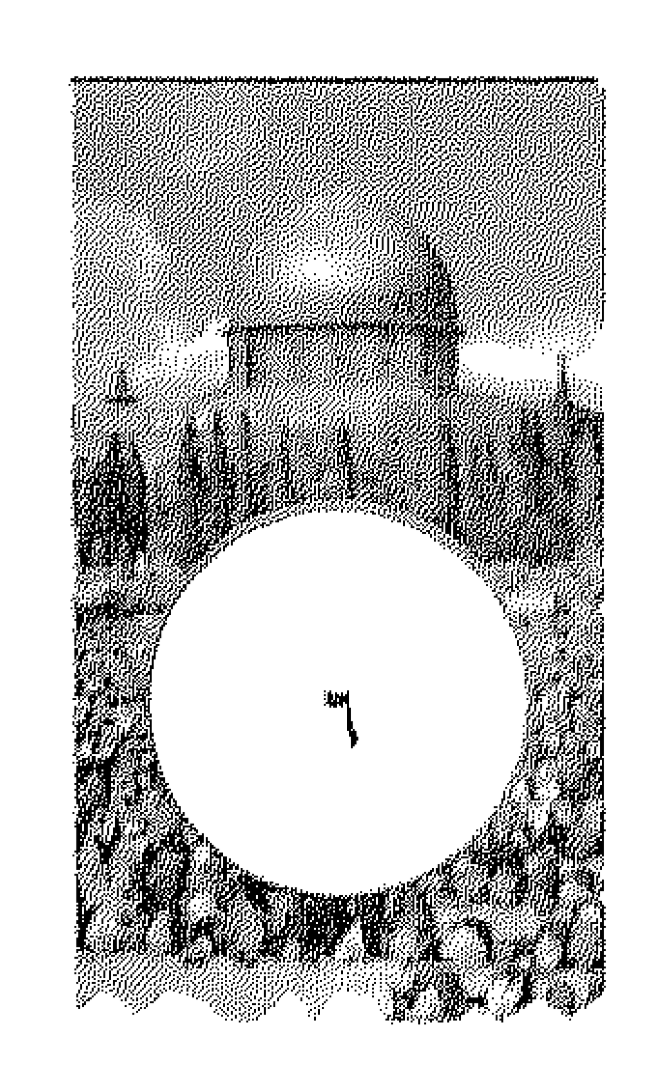
وقد سميت المدينة فيما بعد، فى العصر الرومانى، إيليا كابيتولينا، كما سماها العرب والمسلمون بيت المقدس.

عروبة القدس:

ثمة نصوص عبرية عديدة فى أسفار العهد القديم تشير إلى السكان الأصليين للقدس من ناحية، كما تشير إلى منشأ هذه المدينة وأصولها من ناحية أخرى.

ففى سفر يشوع (١٥/ ٦٣) إشارة إلى اليبوسيين ساكنى أورشليم وقت الغزو الإسرائيلى للبلاد، كما نجد الغازين من بنى يهوذا يدمرون أورشليم فى عصر القضاة، حيث ظل سكانها الأصليون فيها ولم يتمكن الإسرائيليون الغزاة من طردهم (القضاة ١/ ٨ - ٢١)، كما ذهب الملك داود ورجاله إلى اليبوسيين سكان أورشليم (صموئيل الثانى ٥/ ٦)، ولم يطرد داود سكان المدينة الأصليين منها، بل تزوج منهم وأنجب البنين والبنات (صموئيل الثانى ٥/ ١٣ - ١٥).

وقد أكد النبى الإسرائيلى حزقيال فى سفره (١٦/ ١ - ٤) على أن أورشليم مدينة كنعانية : أمورية حثية، والكنعانيون مهاجرون من الجزيرة العربية - أى عرب - استقروا فى فلسطين قبل



زمن إبراهيم - عليه السلام -، وسميت الأرض باسمهم (سفر التكوين ١٢/ ٥ - ٦، ١٣/٧، ١٣/ ١٢، ١٧/ ٨، ٢٧/ ٦، ٧٣/ ١، ٤٢/ ٢٩ وغيرها).

واليبوسيون - بناة أورشليم وساكنوها - قبيلة كنعانية (التكوين ١٠/ ١٥ - ١٦)، يؤرخ البعض لوجودهم فى القدس بنحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، كما يربط آخرون بين الأصل العربى للكنعانيين واليبوسيين وبين تأسيس مدينة القدس على أيدى هذه القبيلة، استناداً إلى أسماء ملوكها وحكامها، على نحو ما ورد فى الوثائق التاريخية.

فاليبوسيون إذن كنعانيون، والكنعانيون - العرب - جزء من تلك الشعوب التى عاشت غربى نهر الأردن وسميت كذلك بالأموريين، وانقسمت فيما بعد إلى سبع قبائل كبرى هى : الأموريون (العموريون)، والكنعانيون، والحثيون، والحويون، والجرجازيون، والفرزيون واليبوسيون.

ويؤكد أصالة الوجود العربى فى القدس واستمرارية الصلة والعلاقة بين العرب وتلك المدينة، نقش مسمارى يرجع إلى بدايات الألف الثانى قبل الميلاد لملك من ملوك بابل يدعى «نرام سين» يتحدث عن بطولات هذا الملك، وقد وردت فيه أسماء أكد علماء الآثار أنها عربية.

وتشير النصوص العبرية إلى الوجود العربى فى هذه المناطق منذ زمن إبراهيم - عليه السلام - (التكوين ٣٧/ ٢٥ - ٢٨)، كما كان للعرب وجود عندما فكر اليهود المنفيون فى العودة إلى أورشليم بعد تدميرها على أيدى البابليين (نحميا ٢/ ١٩، ٤/ ٧؛ إرميا ٢٥/ ١٥- ٢٤) حيث أشير إليهم فى بعض هذه النصوص بـ «ملوك العرب» وهو ما يثبت وجود كيانات سياسية عربية، كما تشير نصوص أخرى (حزقيال ٢٧/ ٢١، ٢٧/ ٢٤) إلى وجود اقتصادى للعرب ممثلاً فى تجارهم وبضائعهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض النصوص العبرية - وغيرها كالبابلية والآشورية - تشير إلى لفظة «عرب» كمدلول جغرافى لإقليم محدد فى منطقة فلسطين، وهو ما يعكسه نص سفر إشعياء الوارد فى (٢١/ ١٣).

ولقد أشار «الفريد إرميا» فى كتابه : «العهد القديم فى ضوء الشرق القديم» إلى أن كلمة «عرب» فى النصوص العبرية تشير إلى بعض أجزاء من فلسطين، وبخاصة الجزء الجنوبى منها، والذى يطلق عليه أحياناً اسم «يهودا» والذى كان آهلاً ومسكوناً بالعرب.

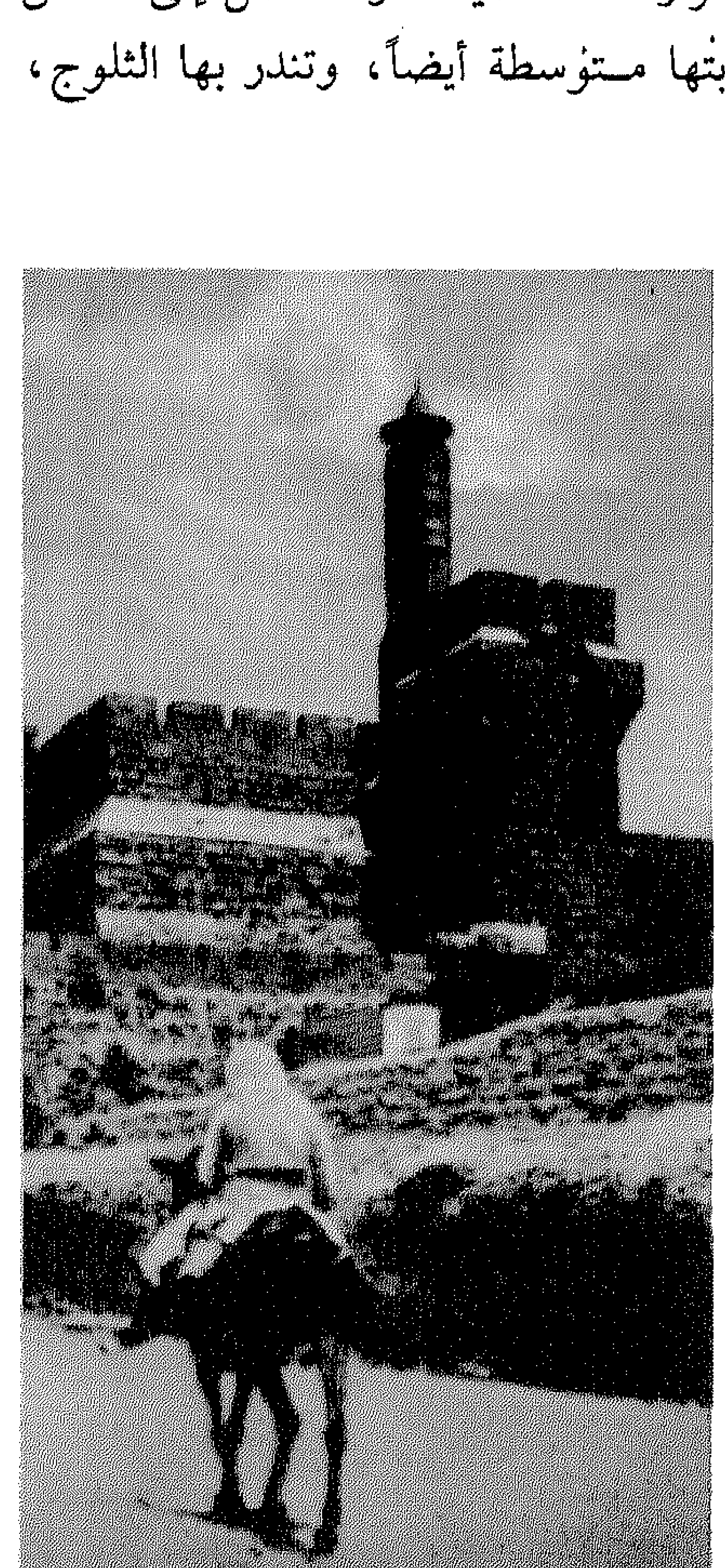
وثمة نقوش آشورية تشير إلى تحالفات آرامية - عربية، كما تشير إلى ترحيل بعض القبائل العربية (مثل ثمود والعباد) إلى السامرة بعد تدمير إسرائيل عام ٧٢٢ ق م، كما أن هناك روايات عديدة ترجع إلى عهد التلمود والمشنا تشهد بأن الوجود العربى فى إطار المجتمع الفلسطينى الأصلى لم ينقطع، وهنا يسقط الزعم القائل بأن أورشليم قد عرفت العرب مع دخول عمر بن

الخطاب - رضى الله عنه - إليها، فالفتح العمرى قد أدخل الإسلام ولم يدخل العرب.

جغرافية القدس

تقع مدينة القدس على خط عرض ٣١° ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء، وعلى خط ٣٥° ١٣َ ٢٥ً شرق جرينتش، وهى هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ و٢٤٦٩ قدماً، ويبلغ متوسط ارتفاع المدينة فوق سطح البحر الأبيض المتوسط من اتجاه الغرب ٢٥٠٠ قدم، ٣٨٠٠ قدم من سطح البحر الميت من اتجاه الشرق، وتبعد القدس عن البحر المتوسط حوالى ٣٢ ميلاً غرباً، وحوالى ١٨ ميلاً عن البحر الميت شرقاً، ١٩ ميلاً عن الخليل (حبرون) جنوباً، ٣٠ ميلاً عن السامرة شمالاً، أما جوها فقارى صحراوى تتجاوز فيه الحرارة ٣٠° صيفاً، وقد تصل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاءً، أمطارها شتوية متوسطة، رطوبتها متوسطة أيضاً، وتندر بها الثلوج، ليس بها أنهار، تحيط بها العيون الصالحة للشرب.

وتتميز القدس بموقع جغرافى إستراتيجى، إذ تقع على أرض مرتفعة محاطة من جميع أطرافها بأودية عميقة : وادى «قدرون» شرقاً، ووادى «هنوم» غرباً، ويبدأ الواديان فى الطرف الشمالى الغربى من المدينة ويلتقيان فى جنوبها وبذلك يحيطان القدس من أطرافها الثلاثة : الشرق والغرب والجنوب.

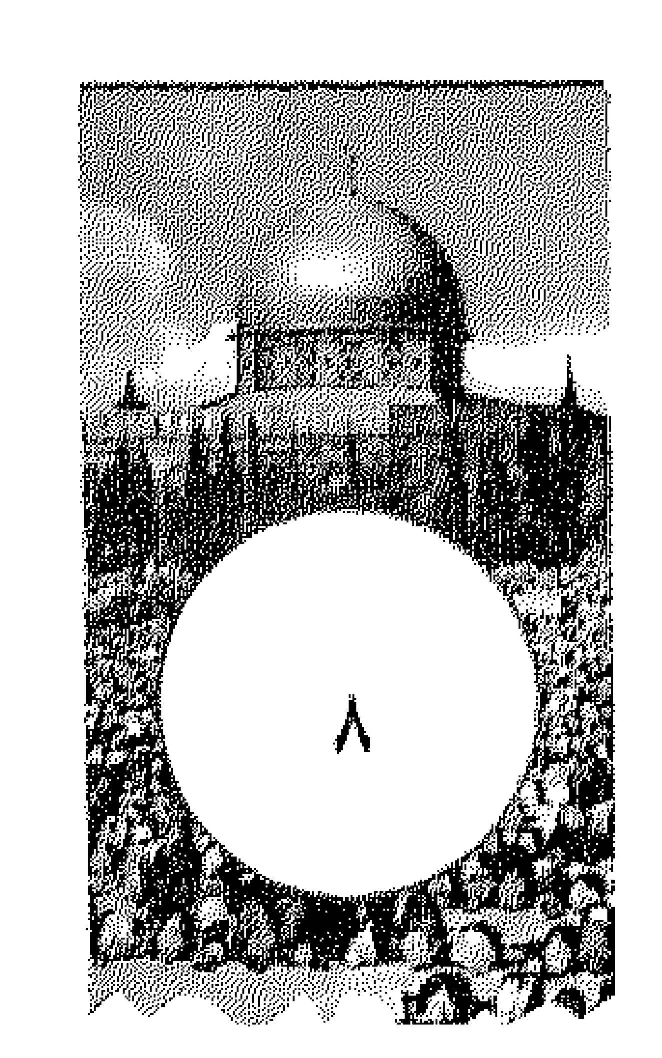


قلعة وبرج الملك داود فى بداية القرن ٢٠م

وفى القدس جبال عديدة أهمها:

١- جبل الزيتون، ويواجه أسوار الحرم من الجهة الشرقية، ويفصله عن الحرم وادى قدرون، ويعتبر من أهم الجبال المحيطة بالقدس من الناحية التاريخية، حيث يسميه التلمود «جبل المسح» (جبل التتويج)، حيث كانوا يأخذون الزيت المقدس من زيتونه، ويستعملونه فى مسح ملوكهم وتتويجهم، كما كانوا يحرقون عليه بقرة القربان الحمراء ويستخدمون رمادها فى تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا ما دنسه شىء.

٢- جبل بطن الهوا، وهو امتداد لجبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس حيث يفصله عنها



وادى سلوان الذى يتصل بوادى قدرون فى هذه النقطة نفسها، ويعرف عند اليهود باسم «هار هامشحيت» (الجبل الفاضح)، وقد ورد فى سفر الملوك الأول (١١/ ١-٨) أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات.

٣- **جبل صهيون**، ويقع فى جنوب غرب القدس القديمة، وكانت عليه قلعة حصينة أقامها اليبوسيون - السكان الأصليون للقدس - وشيدوا حولها سوراً فى طرفه برج عال للسيطرة على المنطقة من فوقه، وقد انتزع داود هذا الحصن من أصحابه، حيث نقل مقر حكمه إليه فى السنة الثامنة من ملكه.

وعرف هذا الجبل كذلك باسم «الأكمة» أو «أوفل» (الملوك الثانى ٥/ ٢٤، الأخبار الثانى ٣/٢٧، ٣٣/ ١٤، إشعياء ٣٢/ ١٤، ميخا ٤/٨)، ويبلغ ارتفاع جبل صهيون حوالى ٢٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وينحدر باتجاه وادى قدرون.

وقد أنشأ السلوقيون فى موضع حصن صهيون، فى عهد الملك اليونانى السلوقى أنتيوخوس الرابع (أبيفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ - ١٦٤ ق م، قلعة عرفت باسم « **أكرا**» ومن ثم أصبح يطلق على هذا الجبل اسم «جبل أكرا».

٤- جبل موريا، جبل بيت المقدس، وهو الحرم الشريف، وبه يوجد **المسجد الأقصى**، وقد ورد اسم «موريا» فى سفر التكوين (٢٢/ ٢) فى قصة الذبيح ، حيث حدد الرب هذا الموضع كى يذبح إبراهيم - عليه السلام - ابنه عليه.

ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالى ٢٤٤٠ قدماً، وسماه المؤرخ اليهودى يوسيفوس بالمدينة العليا، فى مقابل المدينة السفلى التى هى القسم الجنوبى من الهضبة الشرقية، أى موضع حصن صهيون.

٥- جبل المشارف، وسمى كذلك لأنه يشرف على القدس، ويبتدئ من شمالى شعفاط وينتهى بجبل الزيتون، ويقع فى شمالى بيت المقدس بانحراف قليل تجاه الشرق، ويرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ متراً. ويسمى هذا الجبل أيضاً بجبل المشهد وجبل الصوانة، وكان معظم الفاتحين والغازين للقدس يقيمون معسكراتهم عليه، على نحو ما فعل القائد الرومانى **تيتوس** عام ٧٠م، والصليبيون عام ٩٩ :١م تقريباً، ويمتعون أنظارهم بمرأى المدينة المقدسة، ويطلق الأوروبيون على هذا الجبل اسم «جبل سكوبوس» (باليونانية تعنى : المراقب أو الملاحظ)، بينما يسميه اليهود «هار هاتسوفين» وهى ترجمة للتسمية العربية، وقد أقام الإسرائيليون عليه الجامعة العبرية فى بدايات القرن العشرين.

أما أسوار المدينة فأقدمها يرجع إلى عهد اليبوسيين، وكان يحيط بحصن يبوس «حصن صهيون»، ويشكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن، وكان النفق الذى يسحب المياه من عين جيحون ينتهى إلى البركة داخل هذا السور، وقد أقام داود بعد احتلاله للحصن فى القرن العاشر ق م أبنية

أضافها للحصن وقام بتغيير اسم المنطقة إلى «مدينة داود»، ثم اشترى بيدراً من «أرونة اليبوسى» شمال حصن يبوس وبنى فيه مذبحاً للرب، وربما قام داود بتوسعة للسور اليبوسى ليضم جبل المريا الذى يقع فيه البيدر المشترى، وطبيعى أن يكون سليمان قد قام بتقوية هذا السور وتوسيعه بعد أن شيد هيكله وقصره، وقد قام نبوخذ نصر فى غزوه لأورشليم بتدمير الهيكل والسور، ولا يوجد أى أثر لهذا السور حتى الآن.

٩

وقد أعاد الإسرائيليون بناء هذا السور بعد عودتهم من النفى البابلى فى عهد نحميا فى منتصف القرن الخامس ق م والذى يعتبر بمثابة «السور الثانى» للمدينة، واستعملت نفس الأسماء القديمة لأبواب السور وأبراجه (انظر سفر نحميا ٣/ ١ - ٣٢)، وربما بقى هذا السور حتى عهد المكابيين (١٦٧ - ٣٧ ق م)، مع أن **بطليموس الأول** قد دك جانباً منه عام ٣٠٠ ق م، وانتيوخوس الرابع جانباً آخر عام ١٦٨ ق م، وفى عهد هيرودس الكبير (٣٧ - ٤ ق م)، تمت تقوية السور دون أى تغيير فى تخطيطه على الأرجح، وقد شرع اليهود فى عهد **هيرودس** أجريبا (٤١ - ٤٤ م) فى بناء سور جديد فى الجهة الشمالية، غير أن الإمبراطور الرومانى قلوديوس منعهم من مواصلة العمل، فأتموا البناء قبل حصار تيتوس لأورشليم عام ٧٠م، ويسمى هذا السور الثالث سور «هيرودس أجريبا»، وقد ضم منطقة «بيزثيا» الشمالية.

وجدير بالذكر أن مدينة القدس كانت وما زالت محط أنظار الدارسين التوراتيين والطامعين فى الكنوز الأثرية، وقد توالت البعثات التى سعت جاهدة لإثبات وجود صلة ما بين آثار المدينة والحوادث التوراتية، وباءت جهودها كلها بالفشل، ولم تعثر هذه البعثات على أية «بقايا يهودية» فى المناطق التى يحاولون تزوير تاريخها وتهويدها.

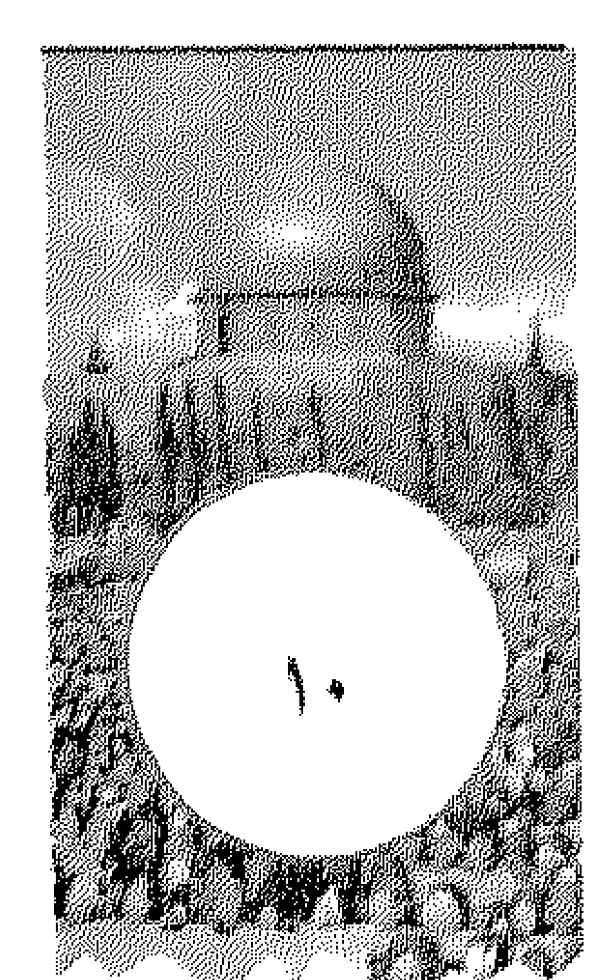
ونتيجة هذا الفشل، ظهر فى الآونة الأخيرة اتجاه جديد فى دراسة العلاقة بين آثار فلسطين والأردن من جانب، والكتاب المقدس من جانب آخر، وتزعم هذا الاتجاه كل من : لاب، دوفو، ديغر، فرانكن، وهم من رجال الدين العاملين بالآثار، وقد نادوا بالفصل الكامل بين الآثار الأردنية - الفلسطينية وأسفار العهد القديم ، بحجة أنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً من حيث النوعية، فالآثار ملموسات مادية، بينما الكتاب المقدس كتاب روحى دينى.

وجدير بالذكر أن الآثار الفلسطينية لا تدل بشواهدها على مخلفات يهودية، لسبب بسيط للغاية، وهو عدم استقرار اليهود على أرض فلسطين بوجه عام.

أورشليم فى الفكر الدينى اليهودى :

- **أورشليم والإله يهوه:**

مع أن ذكر أورشليم قد ورد مبكراً مع ظهور إبراهيم - عليه السلام - على مسرح أحداث تاريخ بنى إسرائيل، إلا أنه من الصعب أن نستخرج كلمة واحدة من النصوص العبرية المقدسة تدل



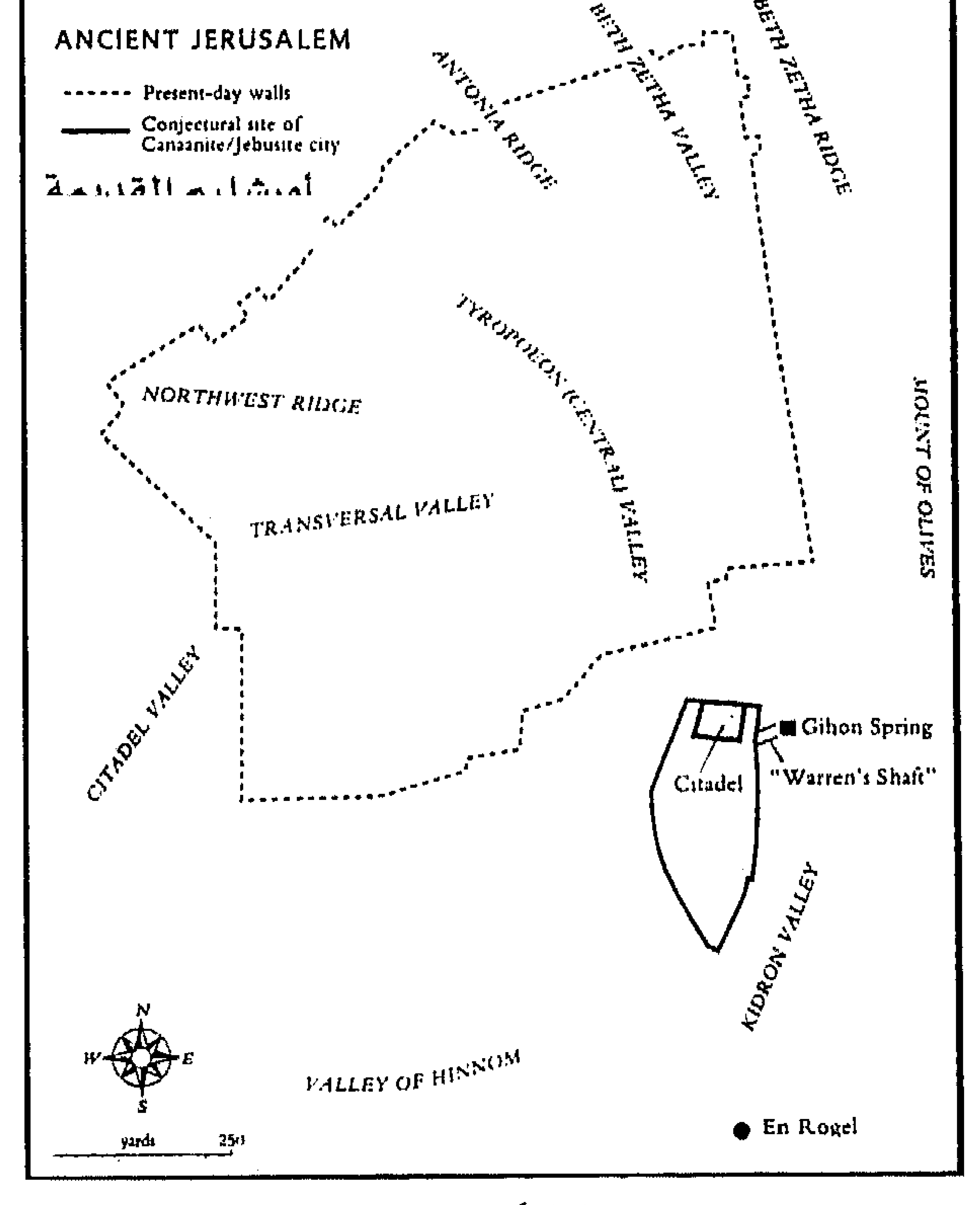
على تفضيل هذه المدينة من قبل إله بنى إسرائيل، ولا من قبل بنى إسرائيل أنفسهم على مدى أسفار التوراة الخمسة، التى هى محل إجماع سائر الطوائف والملل من اليهود والنصارى.

كما لا نجد شيئاً يدل على قداسة المدينة فى سفرى يشوع والقضاة، ولا حتى فى سفرى صموئيل الأول والثانى. فصموئيل النبى لا يذكرها على الإطلاق، وربما لا يعرفها، **وشاؤل** الملك لا يخبرنا بشىء عنها ولا تبدو على خارطة اهتماماته العسكرية والملكية، ولا يبدى داود - كذلك - خلال صراعه مع **شاؤل** ومع الفلسطينيين، أى اهتمام بالمدينة، لا عسكرياً ولا سياسياً، ولا دينياً، وهو الرجل المعتمد من قبل الرب - يهوه - مخلصاً لبنى إسرائيل من أعدائهم (صموئيل الثانى ٣/ ١٨).



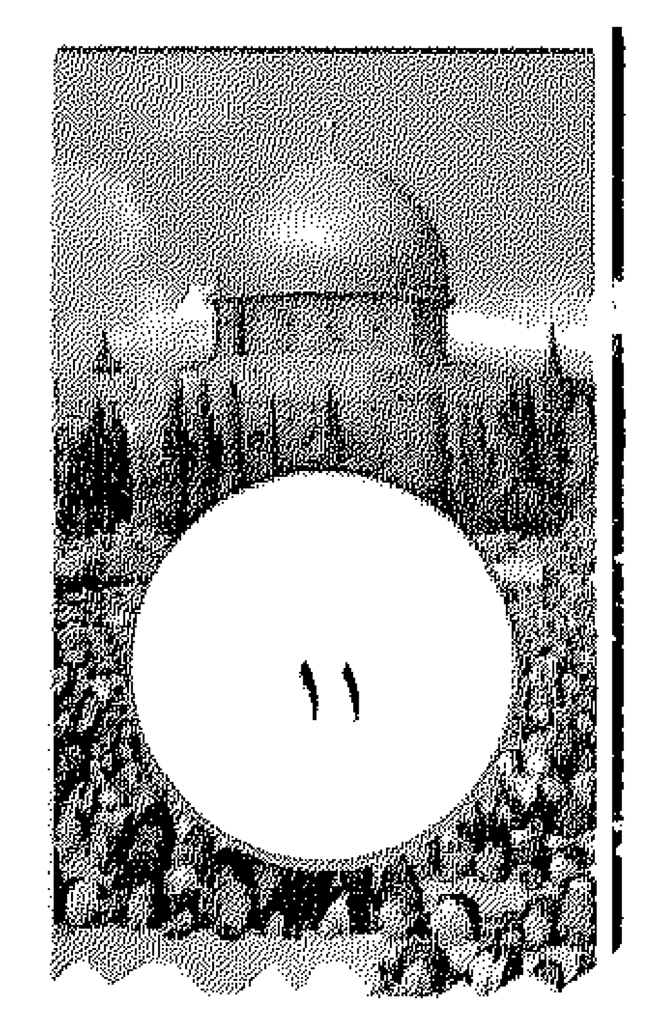
ملك يهوذا يسجد أمام نبوخذ نصر (الصف الثانى)

ومات داود دون أن يخص أورشليم بوصية، وورث سليمان داود، ويرتكب - وفق رواية سفر الملوك الأول (١١/ ١- ١٠) - كل الموبقات المهلكات فى أورشليم، دون أن يحرك «يهوه» ساكناً لقداسة المدينة.



خريطة (١) أورشليم القديمة

وفجأة، ودون سابق إنذار - يحدث التحول الخطير، ويختار إله إسرائيل أورشليم فى عبارة غامضة، دون إبداء الأسباب (الملوك الأول ١١/ ٩ - ٢٣)، الأمر الذى يجعلنا نرجح إقحام هذه العبارة على النص الأصلى، إذ لا



علاقة لها بموضوع الفقرات السابقة عليها، بل إن عبارة «لأجل أورشليم التى اخترتها» لا تشير بالضرورة إلى أورشليم المدينة، وإنما هى كناية عن «سبط» يهوذا وهو السبط الذى اختاره الرب بالفعل منذ داود ليجعل اسمه فيه، ويؤكد ذلك العديد من نصوص أسفار العهد القديم التى يخاطب فيها إله إسرائيل «أورشليم» ويقصد أهلها الساكنين فيها من بنى إسرائيل (الملوك الثانى ١٩/ ٣٢ - ٣٤، ٢٠/ ٥-٦، أخبار الأيام الثانى ٦/ ١-٩، أشعياء ٣٧/ ٣٥ وغيرها).

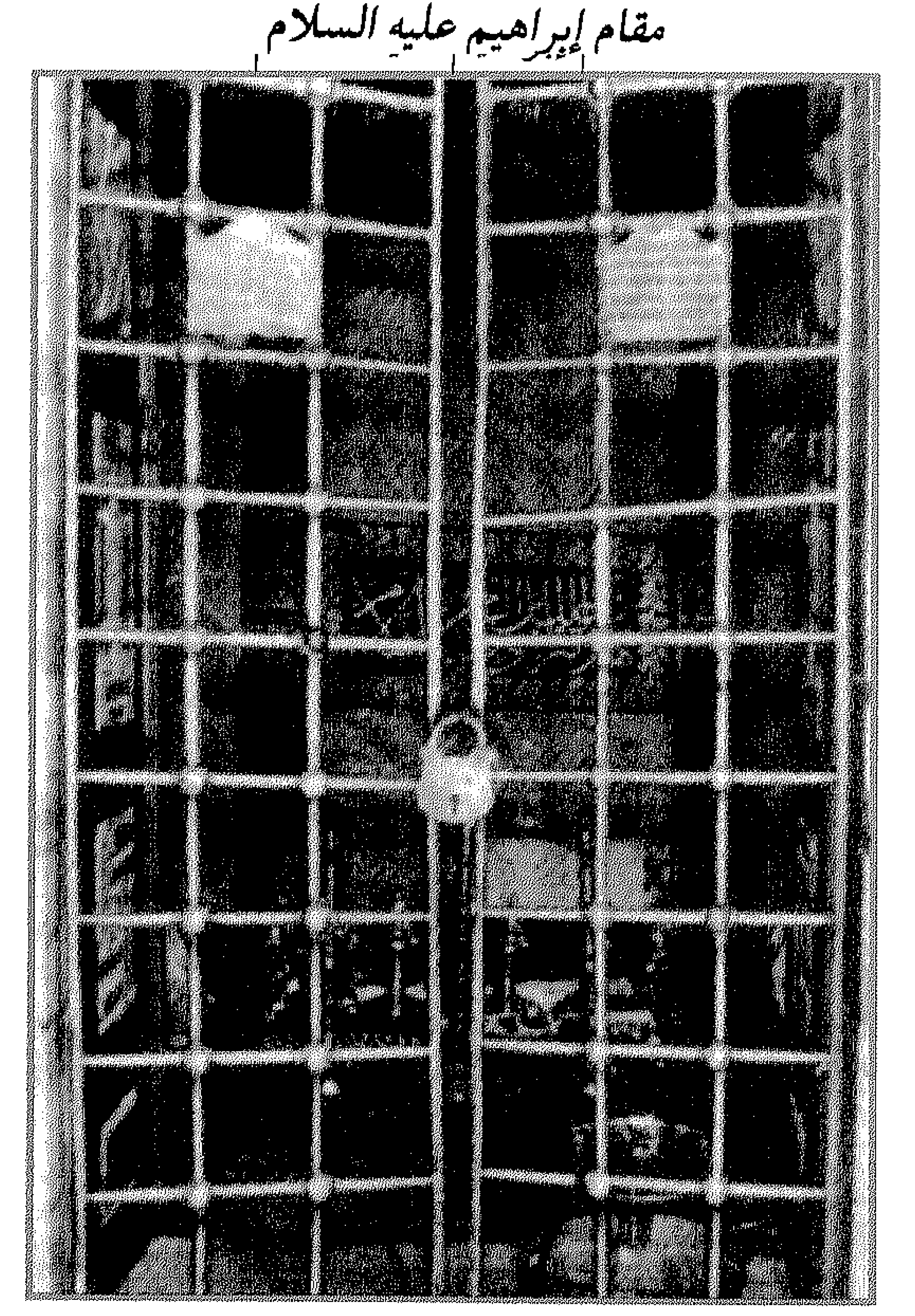
أما المزامير فتقدم لنا لوحات من «الحب الإلهى» و«الغزل اليهودى» فى أورشليم وصهيون (مزمور ١٨٧ / ٢-٣، مزمور ١٤٧/ ٢ وغيرها).

كما يعكس سفر إشعياء موقف الرب المقيم بأورشليم (إشعياء ٤٩/ ١٤ - ٢٥، ٥١/ ١٧ - ٢٣، ٥٢/ ١، ٥٢/ ٧- ١٠، ٦٢/ ١ - ٩).

وتنتهى إصحاحات سفر إشعياء بوعود إلهية لأورشليم، كلها ذات طابع «يوتوبى» لم تتحقق فى تاريخ أورشليم حتى يومنا هذا، سواءٌ أكانت الوعود للمدينة أم لساكنيها من اليهود.

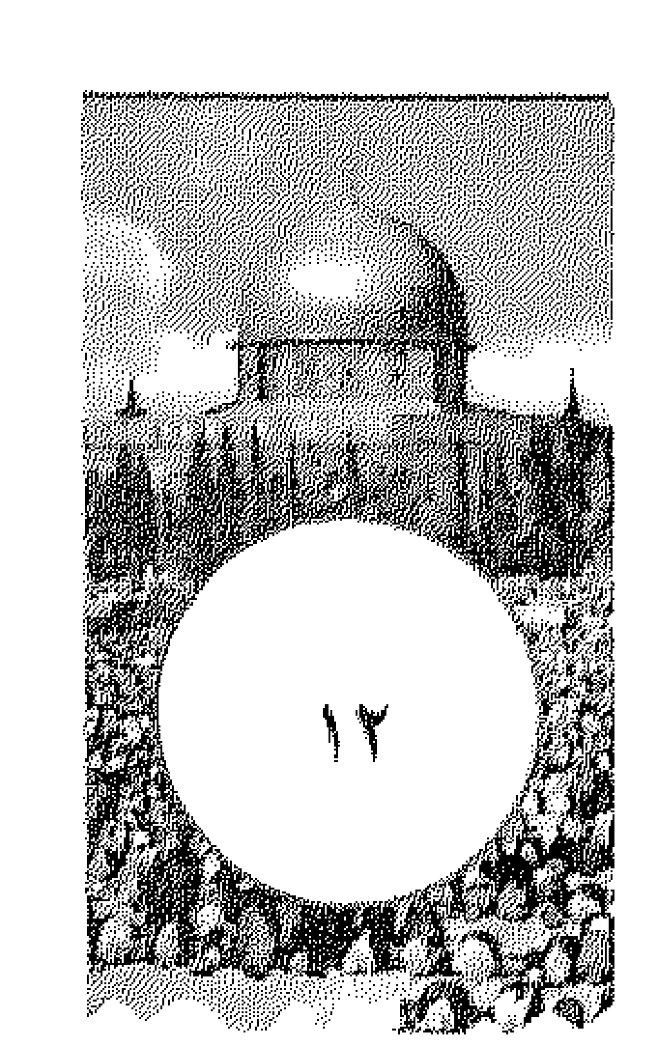
ولكننا نفاجأ بموقف مناقض من إله إسرائيل تجاه أورشليم، وبخاصة بعد إصلاحات الملك «يوشيا» الثورية التى أصلح فيها العقائد الفاسدة، وطهر الأرض من رجاسات اليهود، فالرب يعلن رفضه لأورشليم (الملوك الثانى ٢٣/ ٢٧ - ٢٨) ويصب جام غضبه عليها - وعلى أهلها وسكانها من اليهود (إرميا ٤/ ١٠- ١٨، ٥/ ١ - ٣، ٩/ ٦-٨، ٧/ ١٧ - ٢٠).

مقام إبراهيم عليه السلام



وتشير إصحاحات سفر إرميا ومراثى إرميا إلى ما صارت عليه أورشليم وسكانها من احتقار ربانى، ونبذ وطرد من رحمة «يهوه» وتهديد ووعيد لها.

ويسجل الإصحاح السادس عشر من سفر حزقيال نعم وأفضال الرب على أورشليم، كما يسجل - كذلك - انحرافات أورشليم وضلالاتها وما ينتظرها من ويل وثبور، إلا أننا نجد - بعد هذا كله فى نفس الإصحاح -

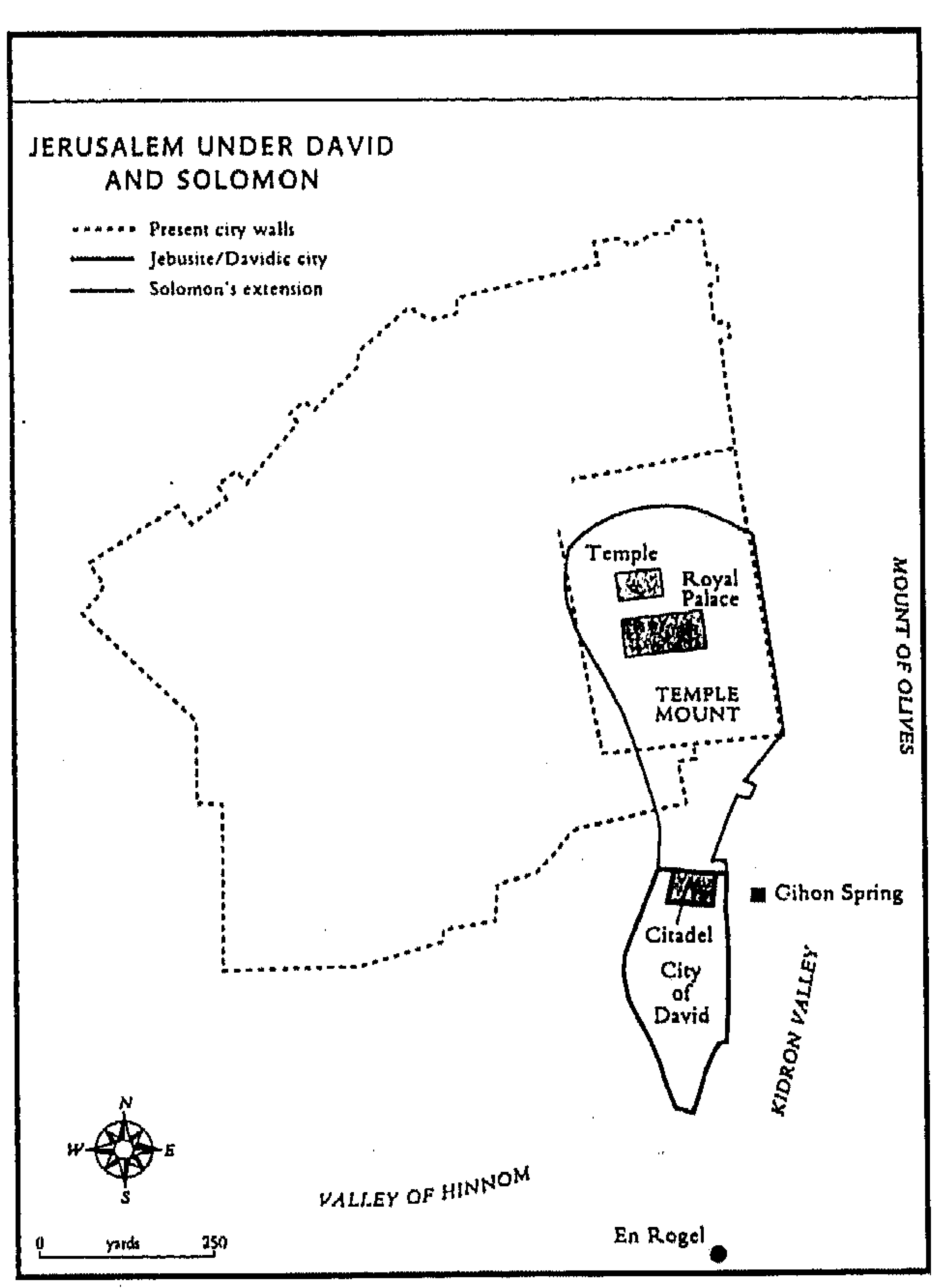


تراجعاً ملحوظاً من قبل الرب، وعـودة محمومـة إلى تفضيل المدينة وغـفران ذلاتها ومحو سيئاتها.

وهكذا تتحـول «المدينة السافكة الدم» ، «نجسـة الاسم»، «كثيـرة الشغب»، «المدينة الجـائرة»، «المتـمردة النجـسة» (انـظر سفـر صفنـيا)، إلى مـدينة الرب المقدسة، التى يفعل الأعاجيب من أجلها (صفنيا ٣/ ١٤ - ٢٠).

الهيكل بين الحقيقة والأسطورة:

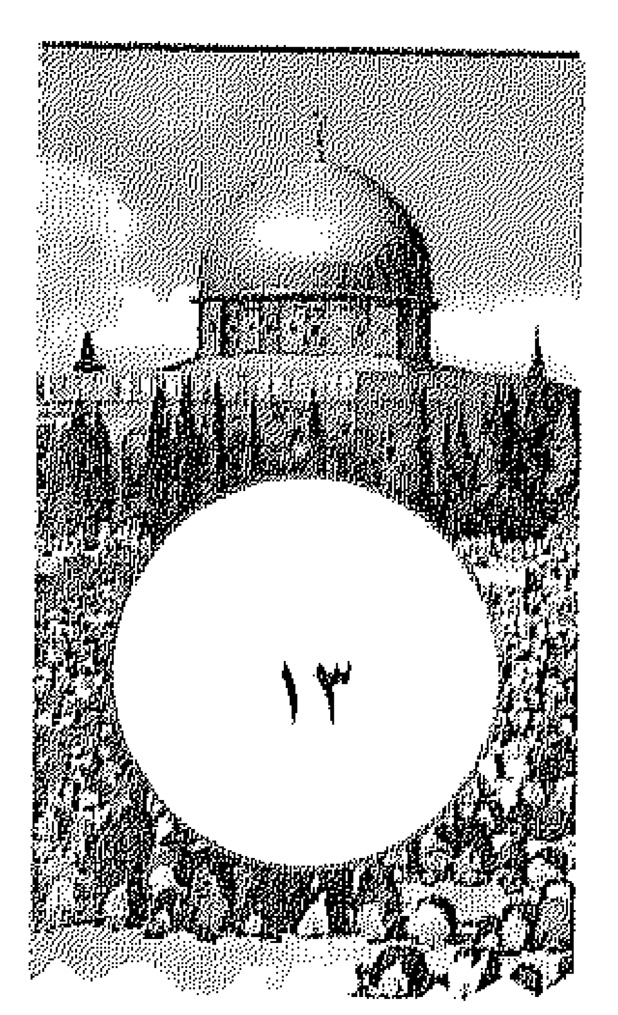
بدأت فكرة بناء بيت «هيكل» (وكلمة هيكل التى يسـتخدمها اليهود علمـاً لبيت الرب ليست عبـرية وإنما هى ذات أصل سـورى بابلى) للرب فى ذهن داود بعد أن اسـتقـر فى أورشليم وثبت دعائم ملكه، واسـتراح من الحروب، ونقل تـابوت عـهـد الرب مـن بيت عـوبيد أدوم الجـتى، حـيث بقى فيـه ثلاثـة أشـهـر فى أعــقاب اسـتـرداده من الفـلسطينيـين إلى مــدينة داود - صـهـيـون - على نـحـو مـا يذكـر الإصحاح السادس من سـفر صموئيل الثانى.



خريطة (٢)

أورشليم فى عصر داود وسليمان

لقـد بدأ داود يفكر فى «مــحل إقامة» دائم للرب، كـما أصبح له هو ذاته مـحل إقـامة دائـم فى صهـيـون وأورشليم، ويشـيـر نص الإصحـاح السابع من سفر صـموئيل الثانى (١- ١٧) إلى استنكـار إله إسـرائيل لأن يكون لـه مـقـر دائـم، إذ هو «إله جوّال». وبينمـا يرى داود بناء «بيت أبدى للرب» يعـرب الرب عن رغبـته فى بناء «بيت أبـدى» لداود ونسله من بعده، أى استـمـرارية الملك الداودى والمملـكة الداودية، لكـن الرب - فى النهاية - يتـراجع عن استنكاره ويعطى داود «ترخيصاً» لبناء البيت، لا لداود نفسه، بل لابنه الخارج من أحشائه.



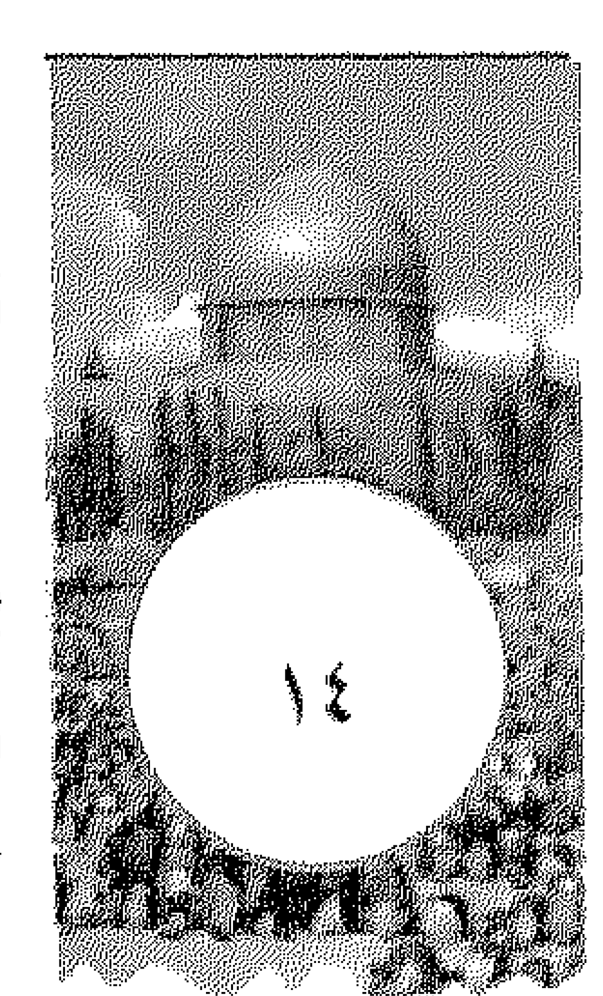
لم يتم تحديد الابن البانى للبيت من بين أبناء داود، كما لم يتم تحديد موقع البيت، لكن سليمان يتولى الملك بعد موت أبيه - دون أحقية له فى ذلك - حيث يخوض غمار سلسلة من العمليات : الحربية والسلمية، حتى تم تثبيت دعائم مملكته، ثم فكر سليمان فى بناء بيت الرب. ولما لم تكن لبنى إسرائيل أدنى خبرة فى الفن المعمارى والإنشائى، كما لم تكن لهم «صحيفة خبرة» فى عمليات البناء، فقد تم الاستعانة بملك صور، حيث زوده بالخبراء والفنيين والعمال، بل وأمده بمواد البناء المطلوبة لإتمام هذا العمل (سفر الملوك الأول ١/٥ - ١٨)، وتم إنجاز بناء بيت متواضع مساحته : ٦٠ ذراعاً طولاً × ٢٠ ذراعاً عرضاً × ٣٠ ذراعاً سمكاً (الملوك الأول ٦/ ٣٨)، الأمر الذى جعل ويلز H.G. Wells فى كتابه موجز تاريخ العالم (ص ٩٣) يقول عنه : «إننا لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أنه فى الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى».

تبدو المبالغة - إذن - فى هيبة البناء وعظمته واضحة جلية، وهذا ما يقوله أيضاً اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه : حياة اليهود، إذ يرى أن إنجازات سليمان فى أورشليم - وفى مقدمتها قصره الملكى - كانت تبدو فى عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور، مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة فى مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة، سمجة الذوق.

ومما لا شك فيه أن هيكل سليمان لم يكن نموذجاً معمارياً فريداً، فلم يكن الملك سليمان وقومه من ذوى الخبرة فى تشييد مثل هذه المعابد والهياكل، ولو كان الإسرائيليون القدامى، الذين عاشوا فى مصر عدة قرون، قد أسهموا - حسبما يزعم البعض - فى بناء الأهرام، لتوارث الإسرائيليون تلك الخبرة، وذلك التراث، وما جلبوا العمال والبناة من لبنان.

إن التصميم العام لهيكل سليمان يشابه إلى حد كبير المعبد الكنعانى، مع اختلافات يسيرة تحتمها اختلافات العقائد والشعائر، ولم يكن جل اهتمام سليمان هنا هو «فخامة الهيكل» وإنما كانت لسليمان رؤية جديدة، وخريطة متكاملة، لعاصمة تضم بين أسوارها المعبد والقصر وسائر المبانى الدينية والإدارية ومساكن زوجاته الكثيرات. لقد أقام سليمان فى أورشليم - عاصمة ملكه - حياً دينياً وآخر ملكياً، وثكنات للحرس، ومساكن لغير المؤمنين بشريعة موسى من نسائه، على نحو ما فعل مع بنت فرعون (الملوك الأول ٩/ ٢٤)، كما أقام سليمان الأسوار الفاصلة بين الأحياء والتحصينات والسلالم وخزانات المياه والأحواض والبرك.

ولإضفاء طابع التقديس على بيت الرب فى نفوس بنى إسرائيل، جمع سليمان شيوخ قومه ورؤساء الأسباط والآباء فى أورشليم، وأصعد تابوت العهد من صهيون - مدينة داود - إلى بيت الرب فى أورشليم لتبدأ صفحة جديدة لأورشليم فى الفكر الدينى الإسرائيلى.



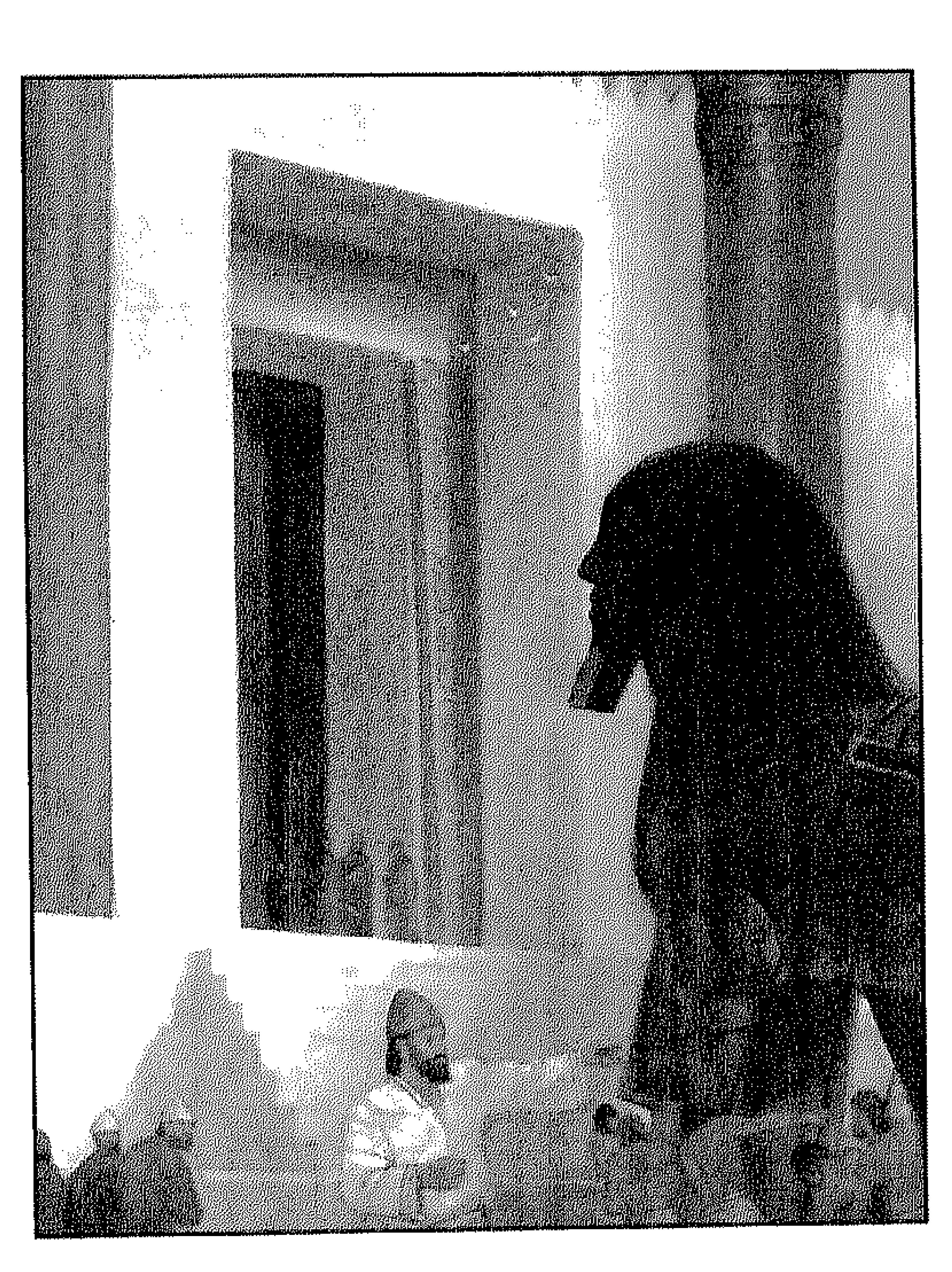
وجـدير بالذكـر، أن إله إسـرائيل لـم يحـدد على الإطلاق، لا لداود ولا لسليمان، مكان إقـامة بيته وسكناه، وإنما كـان الأمر كله مجرد اختـيار حر من قبل داود وسليمـان، وهذا فى حد ذاته لا يعكس قداسة المكان الـذى أقيم عليه بيت الرب أو خصوصيته قبل البناء، وإنمـا اكتسب المكان ما اكتسب من تقديس وخصوصية بحلول تابوت العهد فـيه، وإن كان المكان كله، والمدينة برمتها، لم تكن قد احتلت مكانة فى الفكر الدينى الإسرائيلى إلا بعد سليمان بقرون.

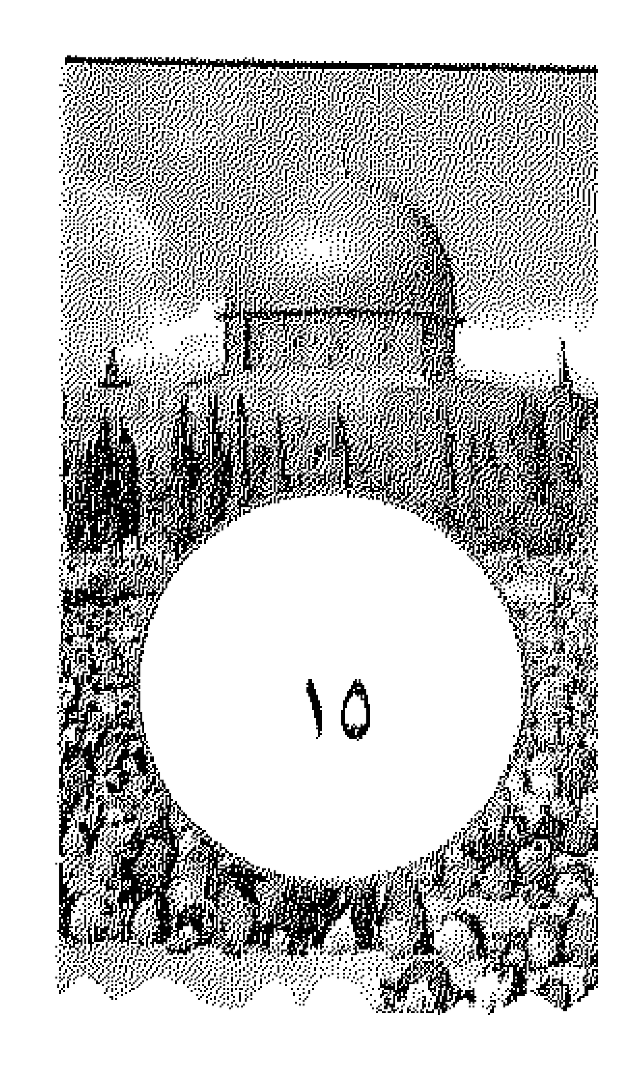
والنص المقـدس الوارد فى سـفر الملوك الأول (٩/١-٩) يـقدم لنا شـروط سكنى الرب فى هذا البيت، وهى : أن يسلك سـليمان - كأبيه داود - طريق الرب بـسلامة قلب واستقامة، وأن يعمل سليمان بكل ما أوصاه به الرب، وأن يحفظ فرائضه وأحكامه، وأن لا يحيد بنو إسرائيل وأبناؤهم عن طريق الرب وأن يحفظوا فرائضه وأحكامه، وأن لا يعبد بنو إسرائيل آلهة الأمم الأخرى.

هذه الشروط جـميعاً - وهى شـروط تعاقد الرب لسكنى البـيت - لم تنفذ على الإطلاق من قبل سليمان وبنى إسـرائيل على نحو ما ورد فى نصوص أسفار العـهد القديم، وهذا يعنى «فسخ التعاقد»، وعدم سكنى الرب فى البيت المزعوم.

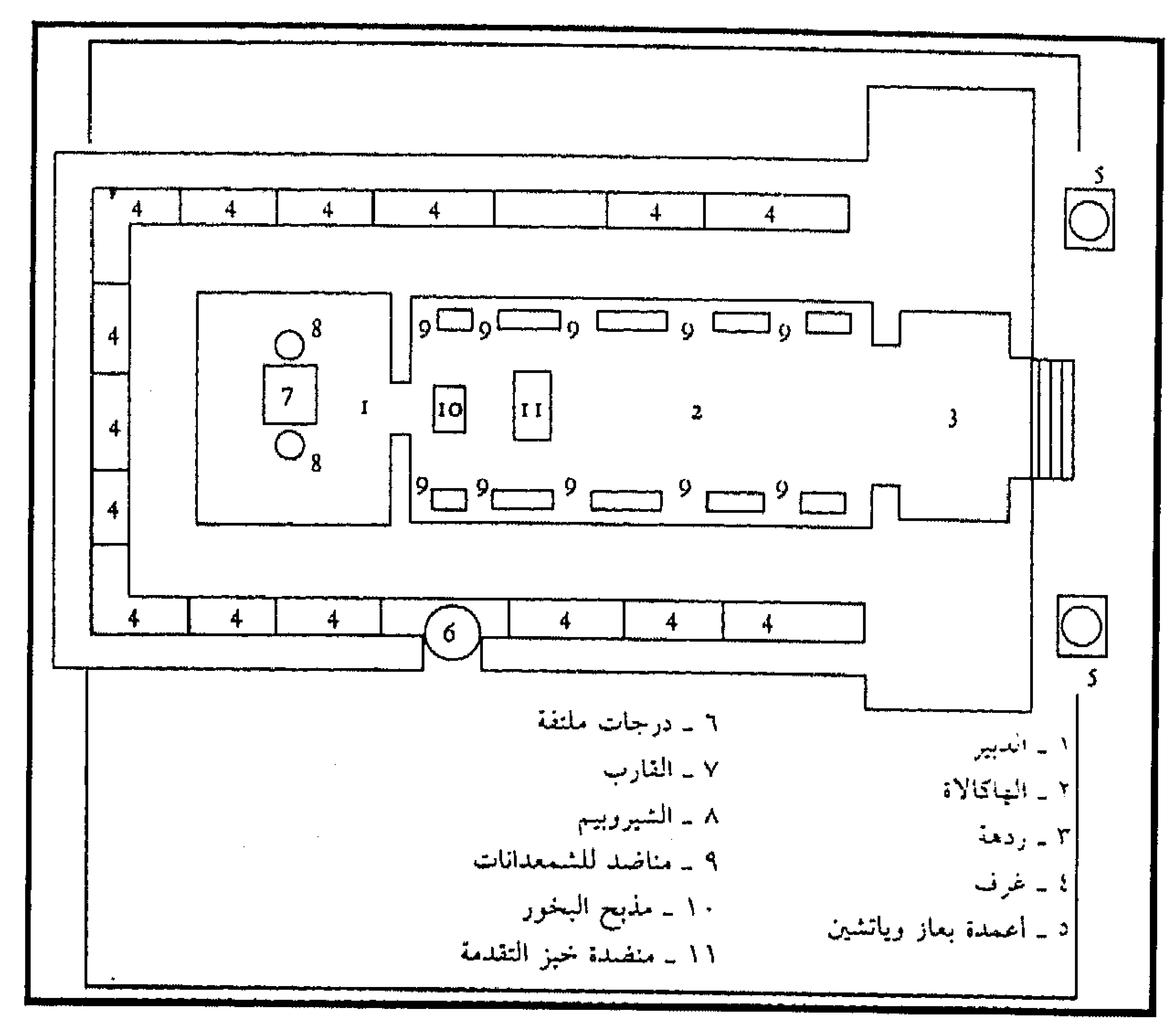
ومع أن سليمان - حسب روايات العـهد القديم - قد بنى العديد من البيـوت والهياكل لشتى الآلهة الأخـرى إرضاءً لزوجـاته (الملوك الأول ١١/ ٥ - ٨)، إلا أننا نجـد بنى إسـرائيل يخصصـون قداستهم لهـيكل واحد دون سائر الهيـاكل والمرتفعات السليمـانية ربما لأن هيكل سليمـان الأورشليـمى كـان «خـاصـاً» ببنى إسرائيل دون سـائر الأمم المجاورة، وربما لأنه - رغم مـساحـته المتـواضـعة - كـان أكبـرها وأعظمها، وربما لأنه كان فى العـاصمة، الرمز السياسى الوحيد فى تاريخ بنى إسرائيل، ومن ثم تمخضت حـوله وبسببـه تطلعات قوميـة ما كان لنـا أن نجدها حول سـائر المعابـد الأخرى التى بناها سليمان.

إن هيكل سلـيمـان الوارد فى النصـوص العبرية المقدسة، كـان مكاناً خاصاً بعبادته هو وتضرعه للرب، ولم يكن مـقصداً لسائر أبناء قومه، على نحـو ما يفهم من سيـاق العبارات


تصور لهيكل سليمان



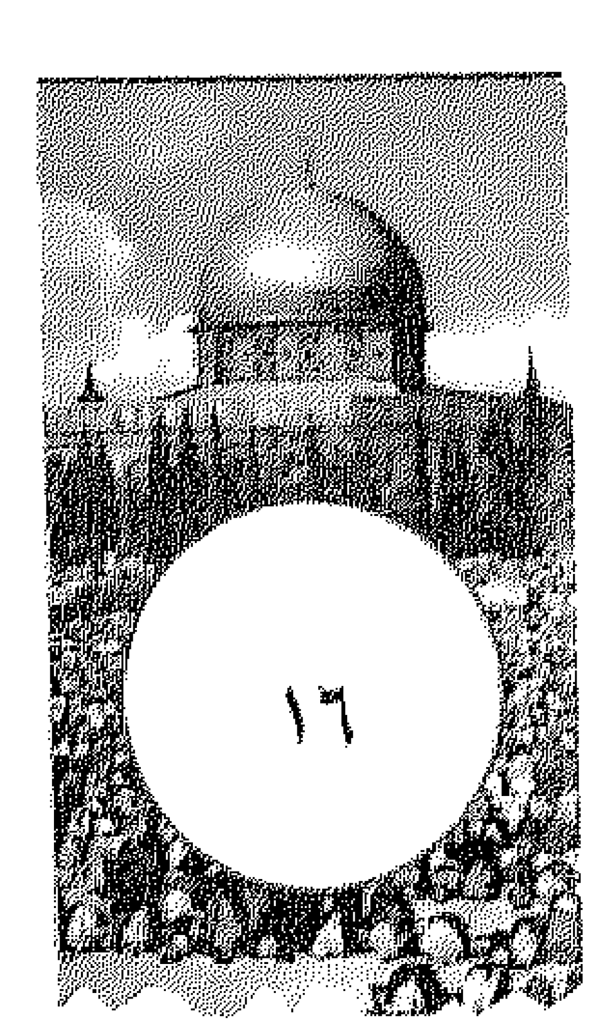
الواردة فى سفر الملوك الأول، ويؤكـد ذلك أن الهيكل، بل وأورشليم كلها، لم تكن محل قداسة على الإطلاق فيما بعد سليمان، لا من قبل بنى إسرائيل، ولا من قبل الأمم والشعوب الأخرى.



خريطة (٣)
رسم تخطيطى تخمينى لمعبد سليمان

فسفـر الملوك الأول (٢٥/ ١- ٣٠) وسفر أخبـار الأيام الثانى (٣٦/ ٢٠) يقدمان لنا انتـهاكات البابليين للهيكل والاستيلاء على ما فيه وتدمـيره تماماً. فيما يعرف بالسـبى البابلى عام ٥٨٦ ق م تقريباً، حيث تم سبى يهود أورشليم إلى بابل، وقضوا بها قرابة السبعين عاماً، حتى ظهرت مملكة فارس وتغـلبت على بابل، وسمـحت لليهـود - فى عهد الملـك الفارسى كورش - بالـعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهـيكل مرة ثانية بدعم مـادى كامل من الفرس وملكهم، وهو ما يقـدمه لنا سفر عـزرا بالتفصـيل، ونرى فيه بوضوح دور الجـوبيم «الأغيار» الحيـوى والجوهرى فى بناء هذا الهيكل للمرة الثـانية، كما نلاحظ أيضاً من خلال مـا ورد فى سفر عزرا اختلاف مسـاحة الهيكل الثانى عما كان عليه الهيكل الأول الذى دمره البابليون (عزرا ٦/ ٢-٤).

كما يقص علينا سـفر نحميا بالتفصـيل عملية إعادة إعمار أورشليم وتحصـينها، وهى تختلف عما رواه عزرا فى سفره، كما لا نعرف إذا ماكانت إعادة بناء الهيكل قد تمت فى نفس مكان هيكل سليمان أم فى مكان آخـر بأورشليم، لكن الأمر المؤكد هو زيادة مساحـة الهيكل الثانى عن الأول فى إطار سياسة التوسع الإسرائيلية بعد العودة من النفى البابلى.



مكانة أورشليم عند آباء إسرائيل وملوكهم:

مما يلفت الانتباه ألا نجد ذكراً لمدينة أورشليم فى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والمسماة بالتوراة باستثناء حادثة تكريم ملكها لإبراهيم عليه السلام، حيث لم تكن هذه المدينة تعنى شيئاً بالنسبة له لا من قريب ولا من بعيد، كما لم يذكرها ابنه إسحق، ولا حفيده يعقوب، ولا الأسباط الاثنا عشر.

لم يذكرها كذلك - وربما لم يعرفها - موسى (عليه السلام)، ولا الخارجون معه من مصر، ولا حتى يشوع بن نون الذى بدأ الغزو الإسرائيلى لفلسطين. ومع أن ملك أورشليم - أدونى صادق - كان من قوات التحالف التى حاربت يشوع والغزاة، ومع أن يشوع قد تمكن من ملوك هذا التحالف وقتلهم (يشوع ١٠/٢٦)، لم يخطر بباله على الإطلاق احتلال أورشليم، وتركها لمن بقى من أهلها بعد هزيمتهم، «إذ رآها غير ذات قيمة بالنسبة له - ولمن معه من قوات غازية - من الناحية الإستراتيجية»، وظلت أورشليم خلال قرنين ونصف القرن من الزمان - هى الفترة الفاصلة بين يشوع وداود - فى أيدى اليبوسيين، سكانها الأصليين، على نحو ما يقر ذلك الباحثون بلا اختلاف.

ولم تكن لأورشليم أية خصوصية أو قداسة بعد يشوع فى عصر القضاة، وهو العصر الفاصل بين يشوع والملكية، بل لقد حارب بنو يهوذا أورشليم وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار (القضاة ١/٨).

وفى عصر داود - كما تروى أسفار الكتاب المقدس - لم تكن لأورشليم فى نفس داود وأولاده أية قداسة أو مهابة.

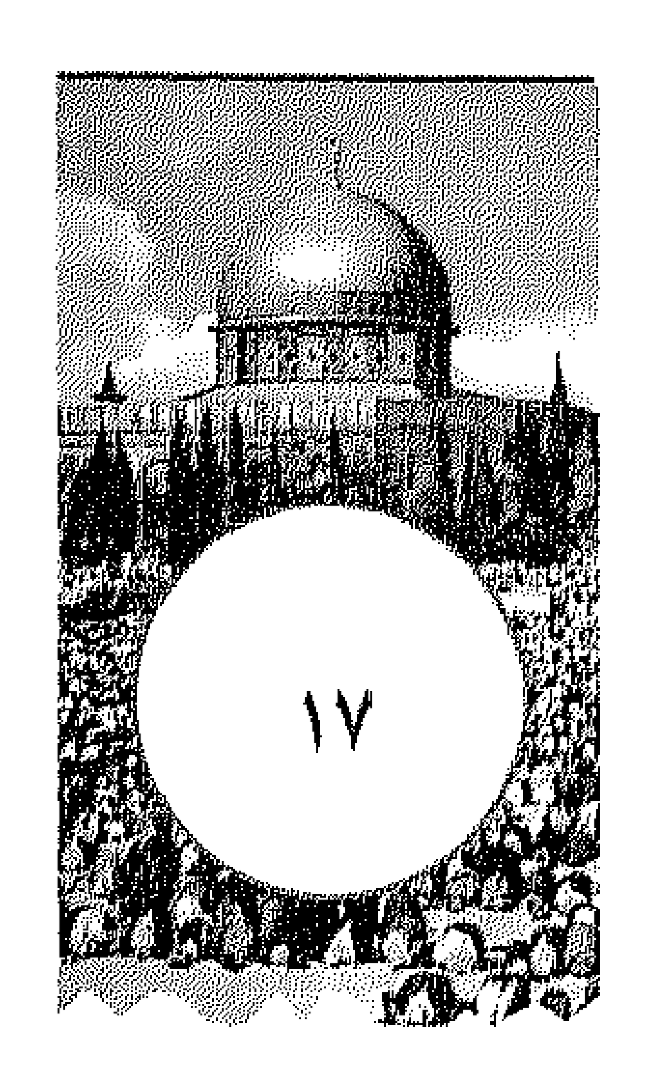
فسفر صموئيل الثانى يخبرنا أن داود قد زنا مع زوجة أوريا الحثى فى أورشليم (١١/١-٢٦).

وأمنون بن داود قد سار على سنة أبيه فى الزنا، وزنا بأخته ثامار فى أورشليم كذلك (١٣/١ - ١٥).

وأبشالوم بن داود يؤكد عدم قداسة أورشليم ويدنسها بالزنا أيضاً، وعلى مرأى ومسمع من كل بنى إسرائيل، حيث زنا بسرارى أبيه، على نحو ما تم تفصيله فى نفس السفر (١٦/ ١٥ - ٢٣).

وتآمر أبشالوم بن داود على قتل أخيه أمنون فى أورشليم (١٣/٢٨ - ٣٥) دون أن تكون للمدينة - أنذاك - أية حرمة أو مكانة فى النفس الإسرائيلية.

وما دامت أورشليم ترتبط بشكل رئيس بالملك داود فى الفكر الدينى الإسرائيلى، فينبغى التوقف قليلاً عند علاقة داود بهذه المدينة.



لقــد كــانت أورشليم فـى زمن داود أهم مــدن الداخل من النـاحـيــة الاستراتيـجية، فهى تتحكم فى الطريق الرئيـس بين الشمال والجنوب، وتشكل «الوصلة» بينهما، وكان فشل بنى إسـرائيل - حتى ذلك الوقت - فى الاستيلاء عليها سبـباً من أهم الأسباب التى أدت إلى ظهور تجمعـين منفصلين من أسباط بنى إسرائيل، ومن ثم قيام مملكتين منفصلتين : إسرائيل شمالاً، ويهوذا جنوباً، ولم تكن أورشليم آنذاك تابعـة أو ملحـقة لأى من هاتين المملكتين، بل كـانت «أرضاً محايدة».

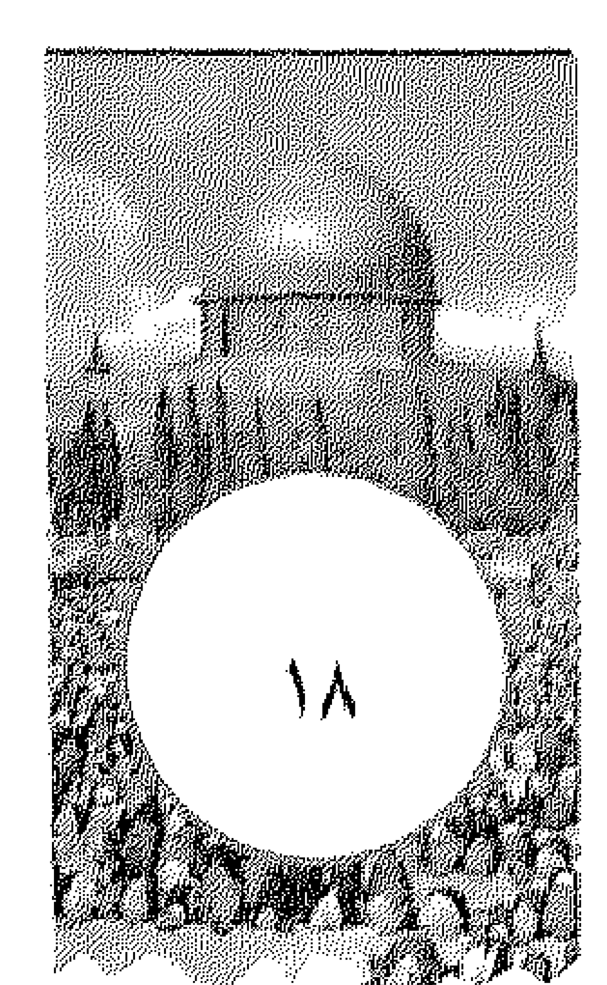
وبعد **موت شاؤل** - أول ملك فى تاريخ بنى إسرائيل - نشب صـراع سياسى بين بيت **شاؤل** وبيت داود (صموئيل الثانى ٣/ ١)، واستمر الصراع إلى أن حسـمته سياسة «الاغتيالات الداخلية» لصالح داود، حيث تم تنصيبه ملكاً فى حبرون (الخلـيل) من قبل شيوخ إسرائيل (صموئيل الثانى ٥/ ١ - ٣).

وعقب تنصـيب داود مباشرة، اتجـه هو ورجاله إلى أورشليم وسكانها اليـبوسيين لاحتـلالها، وهذه القضية - قضية احتلال داود لأورشليم - لا تحظى بالاهتمام اللائق بها إذا قارنا تفاصيلها مع ما يزعـمه الإسرائيليون من مكانة للمـدينة فى نفوسهم وتاريخـهم (انظر : سفر صمـوئيل الثانى ٥/ ٤- ١٠)، ولا نجـد تدخلاً من جـانب إله بنى إسـرائيل فى عمليـة احـتلال المدينة على نحـو تدخلاته فى احتلال سائر المدن الفلسطينية، كما لم يتبع داود نهج الإسرائيليين - من قبل ومن بعد - تجاه المدن المحتلة من حرق وتدمير مع اليبـوسيين فى المدينة، وتم ترميم أسوارها، واحتلال قلعة «صهيون» وإقامة الثكنات العسكرية لرجال داود، ثم استجلاب تابوت العهد إليها.

وليس ثمة أمر إلهى إلى داود لجعل أورشليم عاصمة لمملكته بدلاً من حبرون، وإنما ثمة عوامل سياسية وإستراتيچية بحتة وراء ذلك.

فمن الناحية السياسية، كان استمرار داود فى قيادة شعبه من مدينة حبرون «الخليل» التى ترتبط بأسباط الجنوب من شأنه أن يوحى بانحيازه الواضح إلى مملكته السابقة - مملكة يهوذا - قبل توحيد الشمال والجنوب، ومن ثـم كان عليه اختيـار «مدينة محايدة» لا تنتمى لـلشمال أو الجنوب، وفى نفس الوقت كانت قريبة من ديار سبط يهوذا، عشيرة داود، لكنها ليست من نصيب أى سبط من الأسباط، وفقاً «لتقسيم الأراضى» الذى قام به يشوع إثر غزو فلسطين وأرض كنعان.

أما من الناحية الإستراتيچية، فـإن أورشليم وعرة المسالك بالنسبة للقادمين من الأردن أو البحر أو الشمال، وهى حصينة غير مكشوفة لـلغزاة، وكانت تقع فى وسط عشائر فلسطينية قديمة، يبدو أنهم كانوا يميلون إلى المسالمة أكثر من أهل الشمال. لقد كانت أورشليم ذات تحصينات منيعة، وتقع فى مكان مرتفع وسط التلال، مما يحـقق لها الأمن من أى اعتداء مفـاجئ يقوم به الفلسطينيون أو

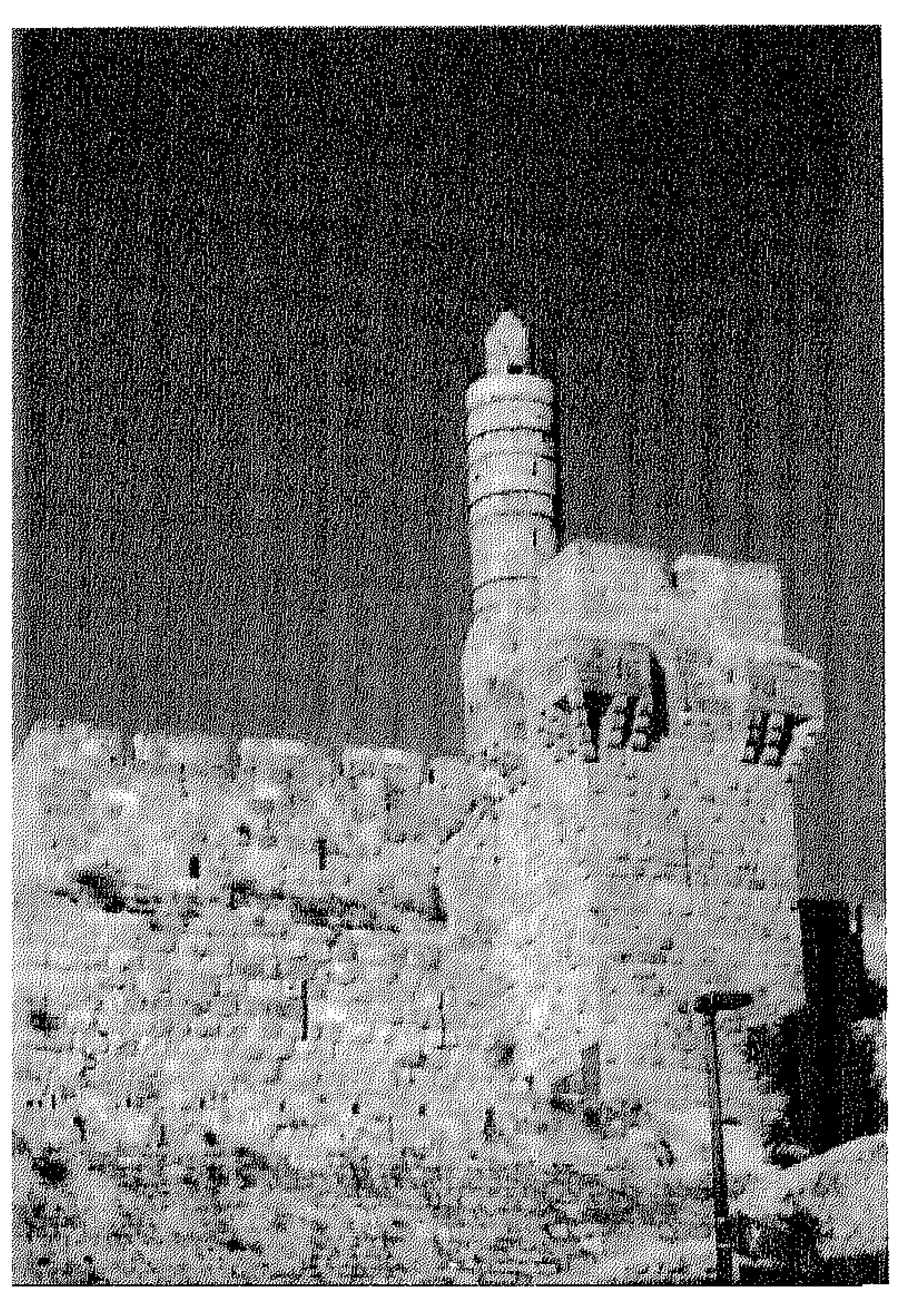


قبائل سيناء والنقب، أو أى من المملكتين الجديدتين : مملكة عمون ومملكة موآب على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

ويؤكد لنا تلك الأهمية الإستراتيجية ذلك التركيز من قبل داود على الاستيلاء على جبل أو حصن صهيون، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن أورشليم.

ولما كان داود قد استولى على أورشليم بجنوده هو، فقد أصبحت المدينة - وفقا لعادات المنطقة - من ممتلكاته الشخصية، ويعكس هذا المفهوم تغيير اسم المدينة إلى مدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٩)، وهناك من يرجح هذا الانتقال السلمى - دون حروب أو معارك - للحكم من أيدى اليبوسيين فى أورشليم إلى داود والإسرائيليين، إنما كان بمثابة «انقلاب عسكرى» تمكن داود وجنوده من خلاله من احتلال مكان الملك اليبوسى وحاشيته المقربة دون المساس على الإطلاق لا بالمدينة ولا بسكانها على النحو المألوف فى تاريخ الغزوات الإسرائيلية، وربما مهد لذلك أيضاً ما تشير إليه الفقرات العديدة من أسفار الكتاب المقدس من تعايش سلمى بين اليبوسيين والإسرائيليين منذ زمن (انظر : يشوع ١٥/ ٦٣، القضاة ١/ ٢١)، فلولا أن ثمة علاقة بين الغازين الإسرائيليين واليبوسيين سكان أورشليم الأصليين، ما التزم داود العدل والرحمة تجاه المغلوبين، وهو «رجل الدماء» (صموئيل الثانى ١٦/ ٧).

قلعة الخليل وبرج الملك داود - صورة حديثة



كما لم نسمع - على كثرة تفاصيل العهد القديم مع الأمم الوثنية عن تدخل من جانب داود بأى شكل من الأشكال فى الدين المحلى للسكان، بل إن الأفكار الدينية والعقائد التى تحمس لها اليبوسيون قد اندرجت فى سياق تطوير ديانة «يهوه» إله إسرائيل فى أورشليم، ومن ثم شهدت «مدينة داود» الجديدة تفاعلاً خلاقاً بين التقاليد اليبوسية والتقاليد الإسرائيلية، وانعكس ذلك على تلك الاستجابة السخية من قبل أرونة اليبوسى (ولعله آخر ملوك اليبوسيين فى المنطقة) لمنح «بيدره» لداود، كى يبنى مكانه مذبحاً لإله إسرائيل، بل دعا أرونة لداود وباركه (صموئيل الثانى ٢٤/ ٢١ - ٢٤).

ومما لا شك فيه أن داود كان بحاجة لجهود اليبوسيين فى المدينة وخبرتهم فى الشئون المالية والسياسية، إذ لم يكن الإسرائيليون الغازون يتمتعون بالخبرة اللازمة لإدارة شئون المملكة التى تعتبر نظاماً سياسياً جديداً غير مألوف فى التاريخ الإسرائيلى الذى لم يشهد من النظام الملكى سوى عصر **شاؤل** المضطرب.

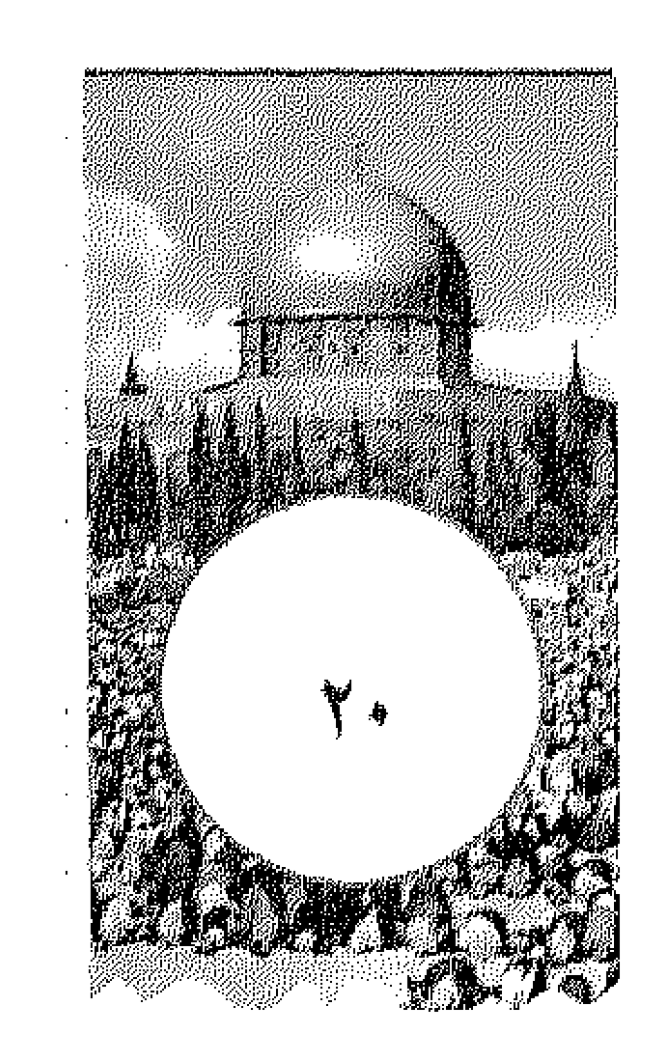
وكان داود قد أخذ من نساء أورشليم زوجات له وأبرزهن بتشبع زوج أوريا الحثى اليبوسى (صموئيل الثانى ١١/٣ - ٢٦) التى أنجب منها ابناً، ليكمل لنا بذلك التزاوج صورة الانصهار اليبوسى - الإسرائيلى فى أوضح مظاهرها، بل إن هناك من يرى أن النبى ناثان - المعاصر لداود - (صموئيل الثانى ١٢/١-١٥) كان يبوسياً، كما يذهب البعض إلى أن صادوق - رئيس كهنة أورشليم - كان من اليبوسيين كذلك، استناداً إلى أن الاسم «صادوق» يبوسى وليس إسرائيلياً.

وبحنكة داود السياسية، وتدعيماً لملكه، استقدم داود تابوت العهد من المدينة الكنعانية «قريات يعاريم»، وأودعه فى أورشليم، ليجعل من هذه المدينة مركزاً للرابطة بين الأسباط الاثنى عشر.

ثم جاء سليمان وريثاً لعرش أبيه داود، وليبنى الهيكل - على نحو ما أسلفنا - فى أورشليم، دون تحديد من الرب لمكان البناء، ودون تقديس للمدينة بأسرها، لا من قبل سليمان ولا من قبل أتباعه، إذ تشهد أسفار العهد القديم بأن أورشليم - بعد وفاة سليمان - لم تكن لها أدنى قداسة عند يربعام بن ناباط الإفرايمى ولا عند رحبعام بن سليمان، بل إن يربعام قد أقام فى «شكيم» بديلاً عن بيت الرب الأورشليمى ليجذب الناس إليه، ويحول أنظارهم عن هيكل سليمان وعن أورشليم كلها.

JERUSALEM DURING THE FIRST TEMPLE PERIOD
1000–586 BCE

خريطة (٤)
أورشليم فى زمن المعبد الأول



أما من جاء بعد سليمان من ورثة وحكام على أورشليم من أمثال رحبعام وأبيام ويهورام بن يهوشافاط وأخزيا بن يهورام ويهودياع ويهوآش وأمصيا بن يهوآش وعزريا بن أمصيا وآحاز بن يوثام ومنسى وصدقيا وحزقيا بن آحاز وغيرهم، فجميعهم لم يبدوا أقل قدر من القداسة أو الاحترام لأورشليم والهيكل، ودنسوا المدينة وعاثوا فيها فساداً، وارتكبوا شتى الموبقات فيها وفى هيكلها، وفى سفر الملوك الثانى كله تفاصيل تاريخ هؤلاء ومواقفهم تجاه أورشليم وتجاه الهيكل، باستثناء حزقيا بن آحاز الذى أعاد للمدينة بعض قداستها، وكذلك محاولات الملك يوشيا الإصلاحية التى شملت كافة جوانب الشريعة وبيت الرب وتطهير أورشليم (الملوك الثانى ٢٣/ ٤- ٢٠).

اللاهوت الأورشليمى فى الفكر الدينى الإسرائيلى:

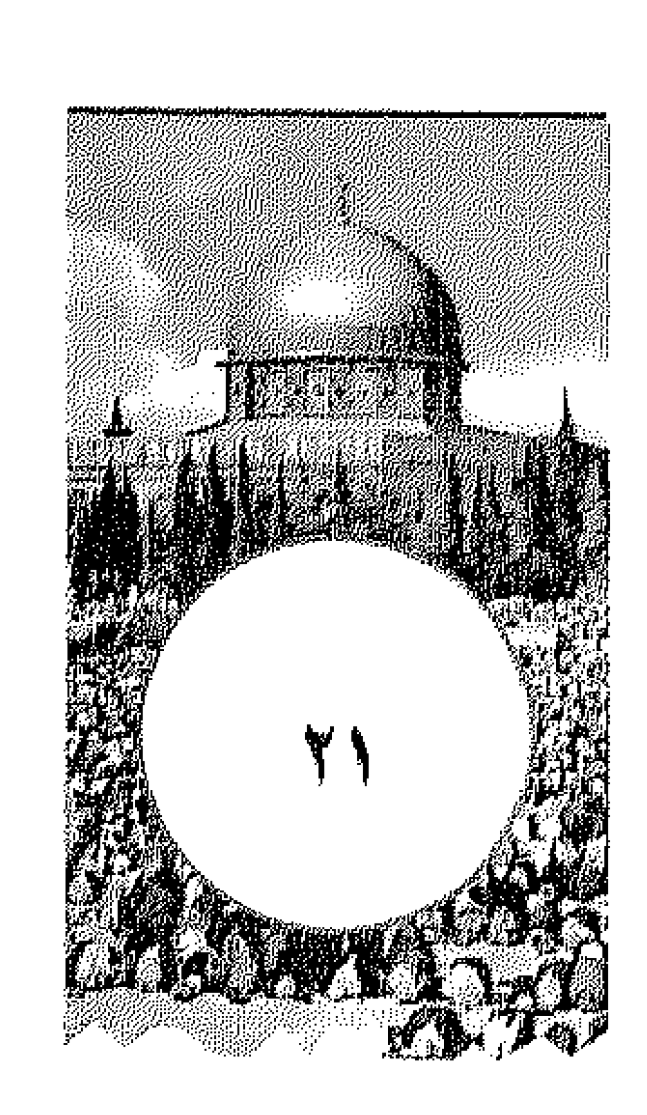
فى النفى البابلى - وبعده - بدأت ملامح لاهوت (فكر دينى) يجعل من أورشليم نقطة ارتكازه ومحوره، ومع إسقاط ملك اليهود نهائياً من على أرض أورشليم على أيدى البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد، بدأت أورشليم القدس تأخذ شكلاً صوفياً عند اليهود، وتحولت إلى رمز للوطن الضائع، فى الوقت الذى تحرك فيه التعصب الطبقى لليهود المنفيين إلى بابل، والذى كان يشعرهم بأنهم متميزون حاكمون فى فلسطين، لقد تحول هذا التعصب الطبقى إلى تعصب دينى وعنصرى.

وجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود المنفيين فى بابل لم يحيوا فى المنفى حياة الأسر والمذلة، بل تمتعوا بملذات الحياة فى بابل، وبأمر الرب إله إسرائيل، على نحو ما صوره لنا سفر إرميا (٢٩/ ٤-٧)، وربما كانت مشكلتهم الوحيدة هى استحالة الإعلان عن عبادتهم للرب «يهوه» حسب تقاليدهم، أى : فى أورشليم.

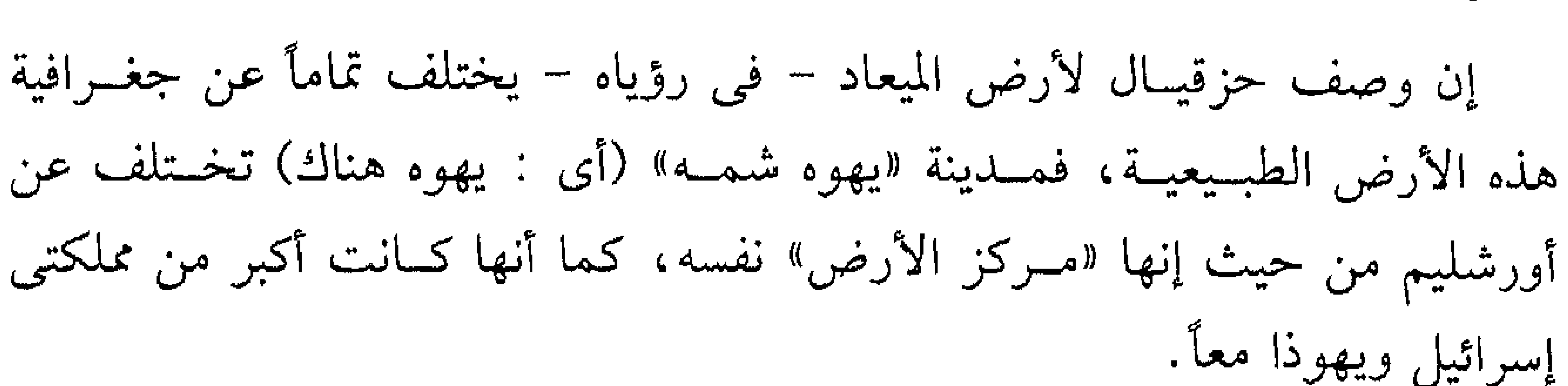
ومن هنا كان تركيز المنفيين على حب أورشليم، وعلى جميع الشعائر الدينية التى يمكن أن تجعلهم متميزين على غيرهم، وأن تفصلهم وتفردهم عن ذلك المحيط الجديد.

ومع أن الهيكل السليمانى الأورشليمى كان يزخر بصور «وثنية» فى ظاهرها، فقد أصبح من المؤسسات التى تتمتع بأكبر إعزاز وتكريم فى إسرائيل، وكان بعض الأنبياء المصلحين يبدون اعتراضهم عليه ويحثون الناس على العودة إلى «دين الخروج من مصر»، زاعمين أنه أنقى وأصفى، لكن مع التدمير البابلى لهذا الهيكل، شعر معظم المنفيين بأن عالمهم قد أصابه الفناء، ومن هنا تحول الفكر اليهودى تجاه الهيكل تحولاً ملحوظاً فى معناه ومبناه.

لقد أسهمت أحاسيس الاغتراب فى المنفى، وآلام النزوح، فى التحول الفكرى إلى الأساطير القديمة، ومن ثم تصوروا العودة إلى المكان الذى عليهم أن يقيموا فيه، وابتكر «حزقيال» فى رؤياه



هيكلاً فى وسط المدينة فى إطار خريطة مقدسة، هذا الهيكل يطابق هيكل سليمان الذى أصبح حطاماً (حزقيال ٤١/٣-٤)، لكنه يختلف عن الهيكل السليمانى فى أمرين مهمين : فلم يعد قصر الملك مجاوراً للهيكل، وأصبحت مبانى محاطة بفناءين حولهما الأسوار (انظر حزقيال ٤١).



إن وصف حزقيال لأرض الميعاد - فى رؤياه - يختلف تماماً عن جغرافية هذه الأرض الطبيعية، فمدينة «يهوه شمه» (أى : يهوه هناك) تختلف عن أورشليم من حيث إنها «مركز الأرض» نفسه، كما أنها كانت أكبر من مملكتى إسرائيل ويهوذا معاً.

لم تكن رؤيا حزقيال بـ «الوطن الموعود» فى حقيقتها وصفاً واقعياً لوطنه، بل هى صورة روحية أكثر منها واقعية، فالهيكل أو المعبد هو نواة حقيقة العالم، يليه المدينة المحيطة به، ثم منطقة خاصة يشغلها القائمون على الكهانة والقداسة وهم : الملك والكهنة واللاويون.

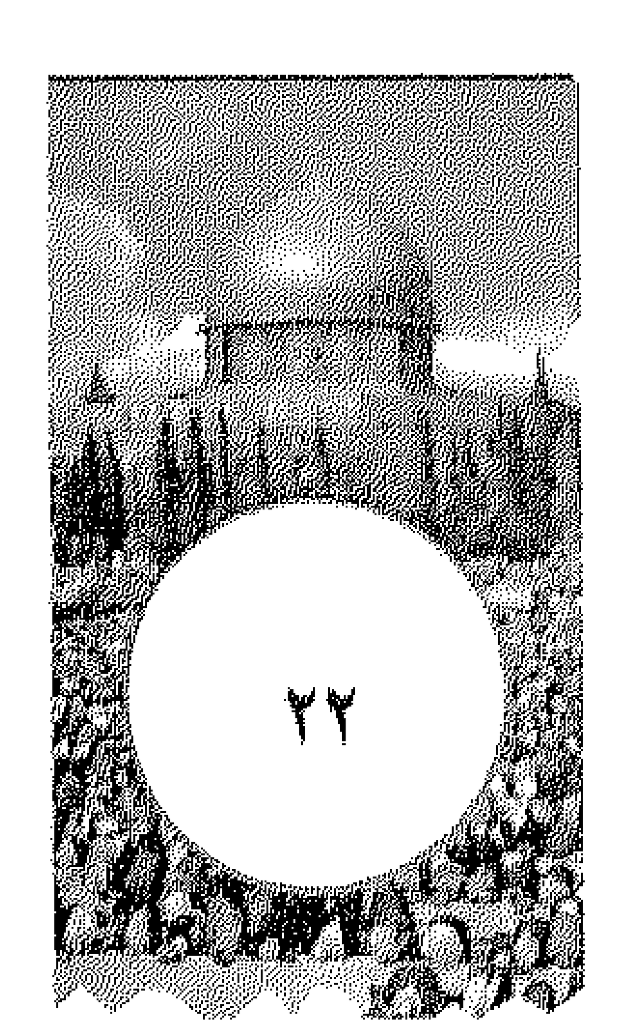
إن التفاصيل الدقيقة التى يرسمها لنا حزقيال فى رؤياه للمعبد والمحراب وطقوسه وكهنته قد تم تصويرها فى وقت لم يكن ثمة أمل فى تنفيذها، إذ كان المعبد قد دمر تماماً، ومع ذلك فقد أسهمت - على ما يبدو - «خصوبة بابل الطبيعية» فى «خصوبة الخيال اليهودى».

لم تكن تلك النصوص العبرية الحافلة بالتفاصيل الدقيقة عن هذا المكان المقدس، على نحو ما نجد فى سفر حزقيال، معبرة عن أوضاع قائمة بالفعل وقت كتابتها، ولا حتى قبلها. لقد أصبحت أورشليم - وفق الفكر الناشئ فى النفى - «قيمة» داخلية فى نفوس المنفيين، وأصبحت صورة للخلاص الذى يمكن تحقيقه.

إن «الأحلام الحزقيالية» لم تكن أحلاماً قابلة للتحقيق، بل لم يطلب حزقيال نفسه تحقيق هذه الأحلام، ولم يفكر المنفيون فى التطبيق المادى لها، بدليل أنه لما أتيحت الفرصة لهؤلاء المنفيين كى يعودوا إلى «أرض الأحلام» فضّل كثير منهم البقاء فى بابل لأمر بسيط للغاية، وهو أنهم كانوا يدركون أن الوجود الجسمانى المادى فى أورشليم ليس ضرورياً وفق قيمهم الجديدة تجاه صهيون وأورشليم.

لقد كان حزقيال يتطلع إلى «يوتوبيا» متمثلة - فى تحول روحانى يتم بموجبه منح «يهوه» لشعبه قلباً جديداً وروحاً جديدة، ومن ثم لم يكن «الخلاص» ليتمثل فى بناء هيكل جديد وحسب وإنما فى بعث «شخصية يهودية» جديدة تماماً.

لكن يبدو أن أحلام حزقيال ورؤاه الطوباوية المثالية لم تكن بينها وبين الواقع أية وشائج، إذ كانت قلوب العائدين من المنفى قد استعاضت عما يرى فيها من دماء، بعنصرية بغيضة جعلتهم ينظرون إلى الأمم الأخرى كأعداء لهم، بل إنهم كانوا يرون فى «عام هآرتس» أى : اليهود الباقين



فى أورشليم، ما يرونه فى الأغراب الجوييم، وإن كان – وفقاً لشرعة القداسة – يسمح لهم بدخول أورشليم. إن العائدين من المنفى لم يبدوا أى ترحيب بالعيش مع إخوانهم «عام هآرتس»، ومن هنا لم تحقق أورشليم السلم المنتظر، بل تحولت إلى موضع خلافى فى الأرض المقدسة.

وهكذا ضاعت أحلام حزقيال، وشطحات إشعياء، وعاد المنفيون ليجدوا هيكلاً مادياً جديداً، لكنه فقد شيئاً رئيساً لم يعثر عليه حتى الآن، ألا وهو تابوت العهد، الذى انقطعت أخباره منذ النفى البابلى وحتى يومنا هذا.

إن النصوص العبرية التى تصف لنا ما بعد النفى لا تشير إلى عودة الإله «يهوه» إلى صهيون على النحو الذى تنبأ به إشعياء، ومع هذا فقد استمر الناس يحلمون بأورشليم الجديدة، فالآمال القديمة لم تمت، وأصبحت أورشليم رمزاً للخلاص النهائى الذى لم يتحقق حتى الآن (انظر إشعياء ٦٥/١٧ – ٢٥).

إن الحقبة التاريخية التالية لإشعياء ونبوءته حول أورشليم لتفيد بوقوع عكس ما جاء فى هذه النبوءة، فالوثنية القديمة مازالت تعشش فى أوكارها وأسوارها، والمشاكل الاجتماعية متأججة، فالقادمون من المنفى يسعون إلى استبعاد الآخرين من المدينة وقصرها عليهم فقط مع أن الرب يقول: «بيتى بيت الصلاة، يدعى لكل الشعوب» (إشعياء ٥٦/ ٧).

ومنذ رؤى حزقيال ونبوءات إشعياء، وحتى وقتنا هذا، لم يسجل لنا التاريخ اليهودى – المثبت فى كتبهم المقدسة وغير المقدسة – تحقيق ما جاء فى هذه الرؤى والنبوءات، وأغلب الظن أنها لا تعكس واقعاً دنيوياً، بل ربما كانت صورة من صور الملكوت الربانى المنتظر فى الآخرة.

لقد أسهمت كل هذه الأحلام والرؤى فى خلق «لاهوت» أورشليمى تضخم مع مرور الزمن، وازداد تضخمه مع تداخل العناصر السياسية والمصالح الدنيوية فى العصر الحديث.

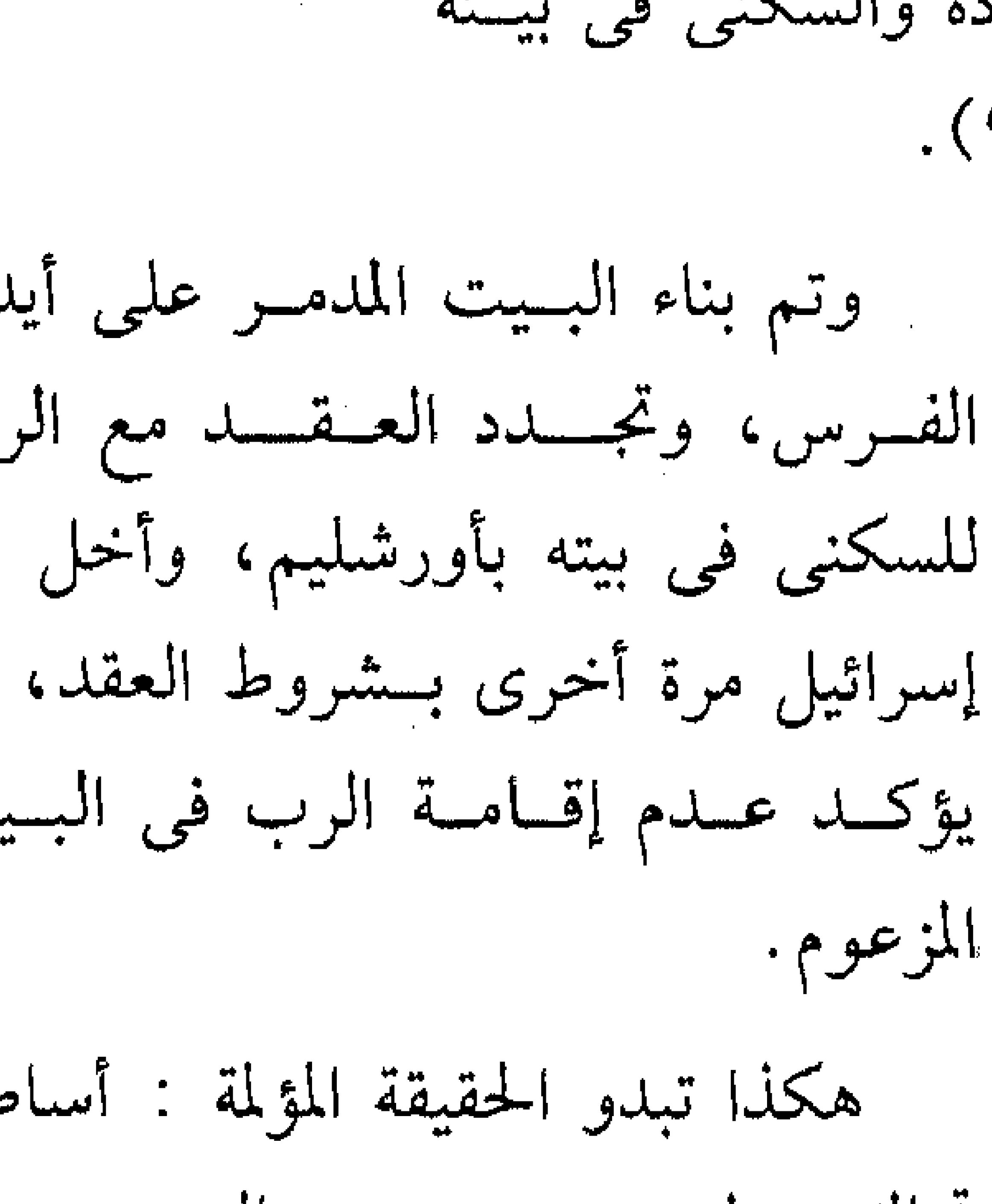
لكن ثمة قضية مهمة تنسف هذا اللاهوت بأكمله، ألا وهى قضية الفهم الخاطئ لعلاقة الرب بأورشليم.

فالعلاقة «السكنية» بين «يهوه» والهيكل في أورشليم تحددها بنود واضحة فى عقد السكن المزعوم على نحو ما جاء فى سفر الملوك الأول (٩/ ١–٩)، تتمثل فى التزام بانى الهيكل (سليمان) بسلامة القلب والاستقامة والعمل حسب وصايا الرب (الساكن) وحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه، كما اشترط الساكن (الرب) شرطين يتم بموجبهما فسخ العقد، وهما: تخلى صاحب العقار (سليمان) وورثته (بنى إسرائيل) عن طريق الرب وعدم حفظ وصاياه، وعبادة المالك وورثته للآلهة الأخرى والسجود لها.

وسفر الملوك كله يضم «شهادات موثقة» و«محاضر» مسجلة تسجيلاً أميناً لإخلال المالك وورثته بشرطيّ سكنى الرب وإقامته فى البيت، ومن ثم فإن الرب لم يسكن على الإطلاق فى هذا المكان.

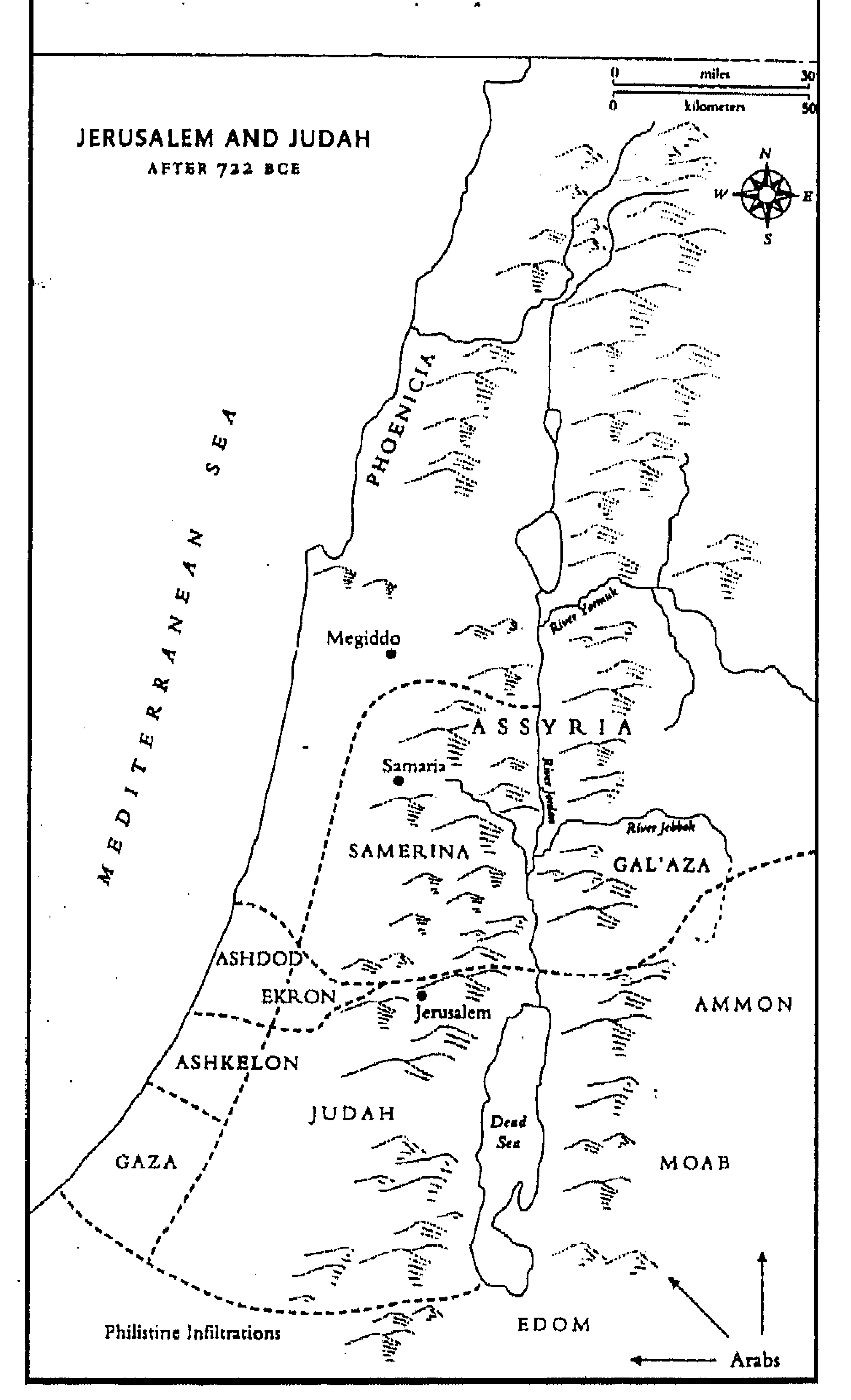
ونتيجة عدم الالتزام الإسرائيلى، والإخلال ببنود العقد السابقة، فقد أعلن إله إسرائيل بطلان العقد (الملوك الأول ١١/١١-١٣)، بل وقام بتوقيع العقوبات الملائمة على بناة البيت وأصحابه.

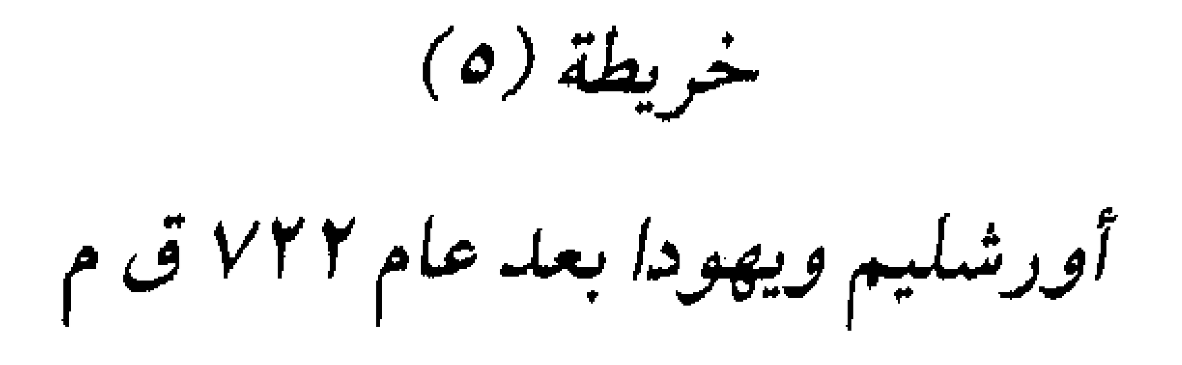
لكن إله بنى إسرائيل يعطى الفرصة مرة أخرى للعودة والسكنى فى بيته الأورشليمى والعودة - كذلك - مشروطة (نحميا ١/٨ - ٩).



وتم بناء البيت المدمر على أيدى الفرس، وتجدد العقد مع الرب للسكنى فى بيته بأورشليم، وأخل بنو إسرائيل مرة أخرى بشروط العقد، مما يؤكد عدم إقامة الرب فى البيت المزعوم.

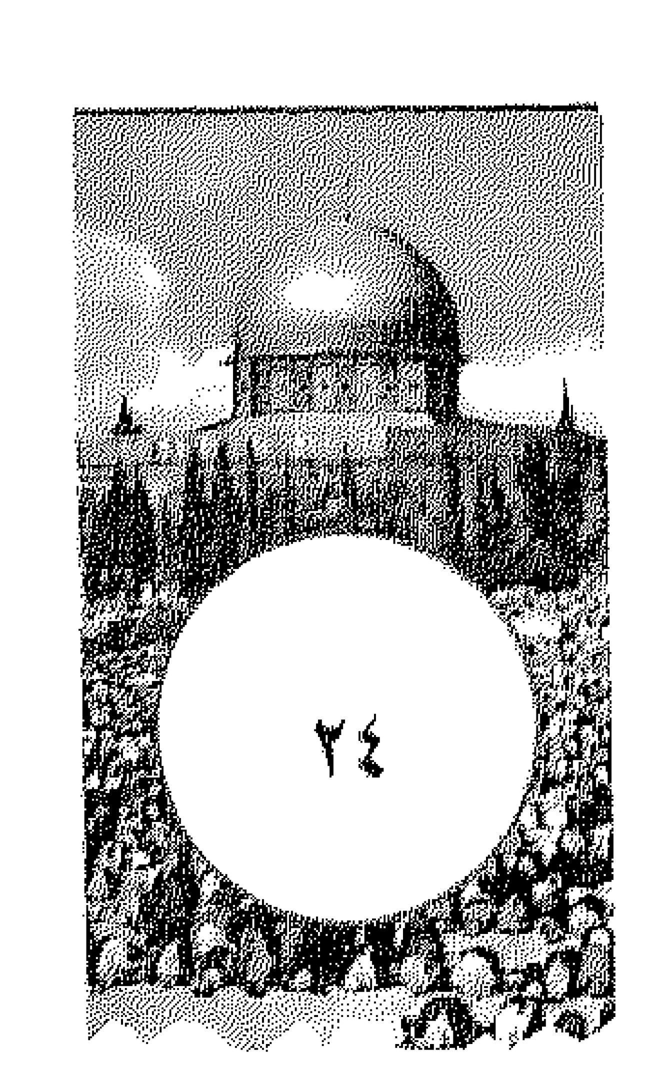
هكذا تبدو الحقيقة المؤلمة : أساطير تحاك حول بيت مهجور. الرب - وفق حكمه وشروطه - لا يسكن فيه، حتى تابوته المقدس، لم يعد له ذكر، بل لم يعد له أثر لا من الناحية المادية الملموسة، ولا من الناحية المعنوية المتمثلة فى تطبيق ما فيه، ومع هذا يتضخم اللاهوت حول أورشليم وبيت الرب، ليصبح هذا التضخم صعب الاستئصال لتشعبه فى الفكر اليهودى تشعباً سرطانياً، ولم تعد هناك إمكانية تدخل جراحى يعيد الأمور إلى نصابها.





خريطة (٥)

أورشليم ويهودا بعد عام ٧٢٢ ق م



وأصبحت أورشليم محور الفكر الدينى الإسرائيلى:

فهى تحدد موقف الرب من الشعب ومن الأغيار.

وهى مقدسة فى ذاتها، وجالبة القداسة لمن يسكن فيها.

وهى مصدر الشريعة.

ومركز العبادة .

و... و... (انظر إشعياء ٢/٢-٣، ٤/٢-٦ ، ٣٣/ ٢٠-٢٤، ٤٩/ ٢٤- ٢٥، ٥٢/ ١، ميخا ٤/ ٢، مزمور ١٣٧ / ١-٤، زكريا ٩/ ٩-١٠ ...)

ويقدم لنا الإصحاح الستون من سفر إشعياء صورة أورشليم المستقبل، وأبعادها على النحو التالى :

* ستكون أورشليم - وبالطبع سكانها اليهود - مصدر هداية للأمم : شعوباً وملوكاً.

* سيطرة أورشليم - واليهود - على مقدرات الأمم وثرواتها.

* اتخاذ أمم العالم أورشليم قبلة لهم، تهفو إليها نفوسهم ويتجهون إليها بكل ما لهم.

* الويل والهلاك لكل من لم يخضع لسلطان أورشليم.

* استنزاف أورشليم لموارد الأمم والشعوب الأخرى.

* حصول الشعب اليهودى الأورشليمى على براءة من الرب، ومجازاته بميراث الأرض.

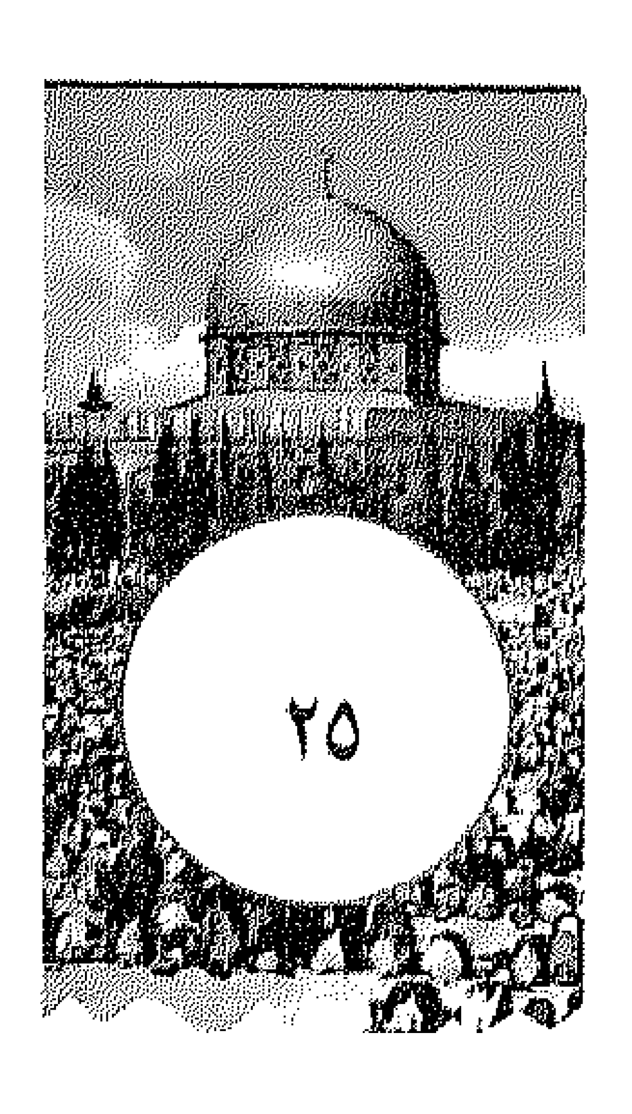
هذه النقاط المستقاة من نص إشعياء تشكل بؤرة الشعور فى العقل الإسرائيلى، ودستوراً للعمل اليهودى على مر العصور.

وجدير بالذكر، أن الحديث عن أورشليم - على نحو ما قدمنا - لا يعنى الحديث عن مدينة ذات شوارع ومبان، وإنما المقصود هنا من أورشليم هو اليهود، وأحاديث الرب إليها إنما هى أحاديث موجهة لمن فيها من البشر، لا إلى محتوياتها الصماء.

هكذا كان تاريخ أورشليم القدس المادى حتى فترة العودة من النفى البابلى، وهكذا أصبح وضعها المادى، ومكانتها المعنوية حتى تلك الفترة.

وإن كانت أورشليم بمكانتها المعنوية فى نفوس اليهود لم تتغير كثيراً، فإن أوضاع المدينة المادية وأحوالها قد تغيرت وتبدلت وفق معطيات الزمن ووقائع التاريخ.

لقد أعاد قمبيز الفارسى بناء المعابد والمدن التى حل الخراب بها، وكان ضمن هذه الخطة الرامية إلى استتباب الأمن والسلام فى مملكته، إعادة بناء أورشليم ومعبد الإله يهوه فيها، حتى اعتبر



النبى اليهودى إشعياء الثانى الإمبراطور قمبيز المسيح المخلص لليهود، الذى مسح «يهوه» على رأسه بالزيت المقدس وكلفه بمهمة خاصة، هى إعادة بناء أورشليم ومعبدها.

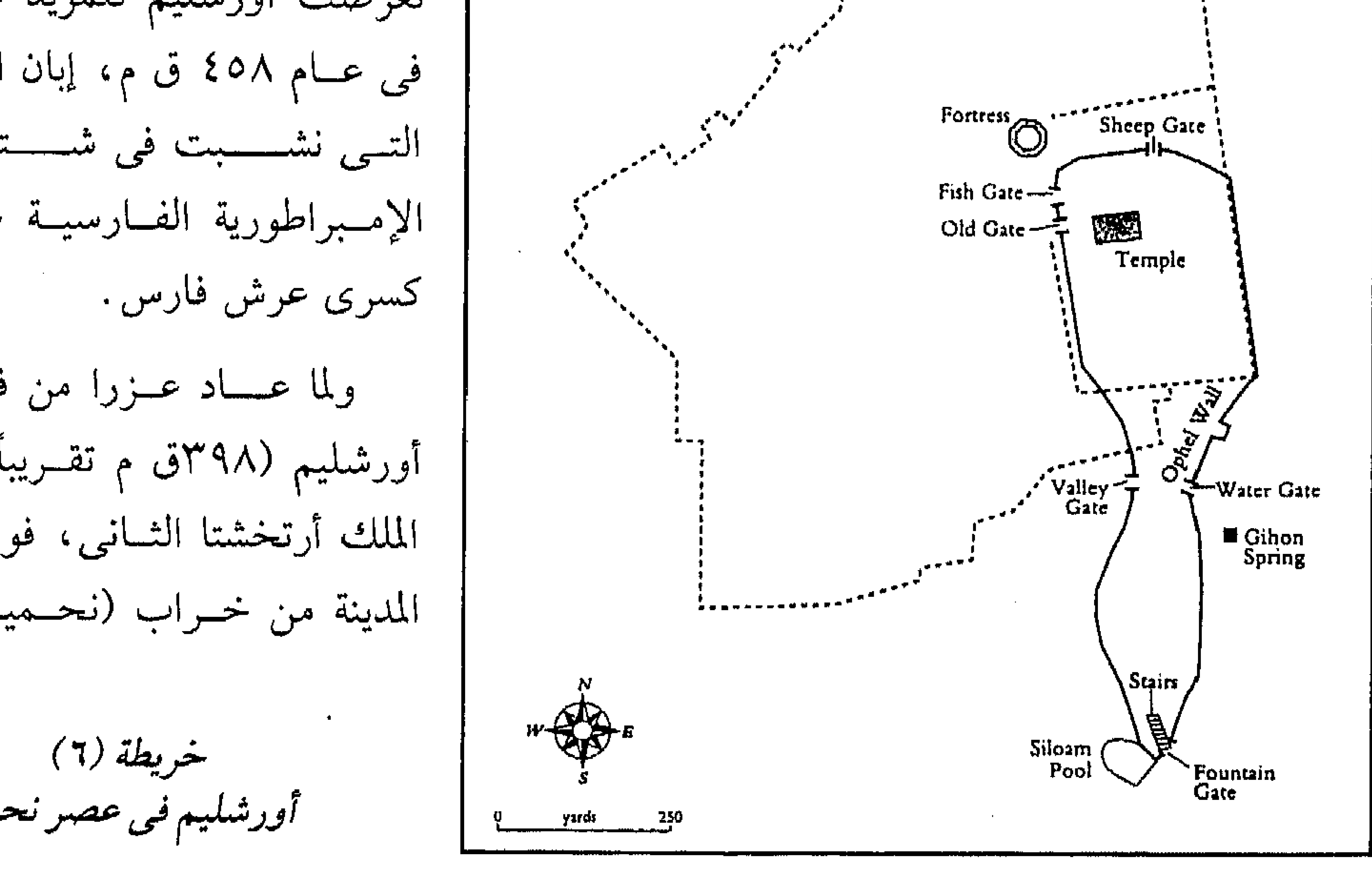
كما أعاد قمبيز إلى معبد أورشليم الأوانى الفضية والذهبية التى كان نبوخذ نصر البابلى قد صادرها إبان غزوه للمدينة ونفيه لسكانها.

لكن اليهود المنفيين فضلوا البقاء فى بابل على العودة إلى مدينة أورشليم الخربة، ولم يعد منهم سوى القليل، واستقر آخرون منهم فى المناطق المعمورة من يهودا والسامرة.

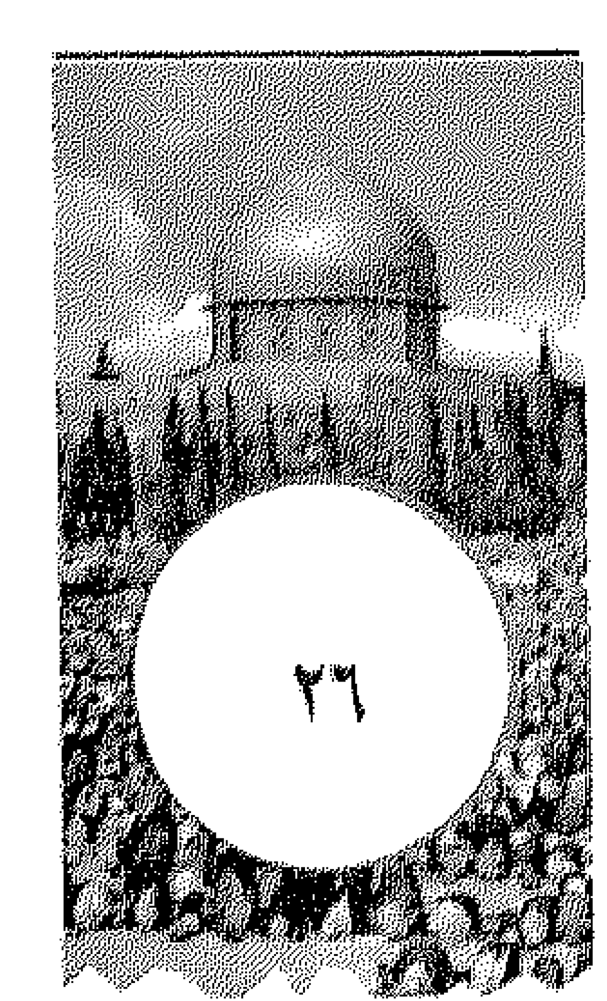
ولما تولى الملك الفارسى **دارا الحكم** عام ٥١٩ ق م تقريباً وكان العمل فى بناء المعبد قد توقف، اشتعل الحماس من جديد، عندما وصل زربابل (أخبار الأيام الأول ٣/ ١٩) حفيد الملك يهوياكين إلى أورشليم من بابل مع يشوع حفيد آخر كبير للكهنة فى المعبد القديم، وتم إرساء أسس المعبد الثانى بحلول خريف عام ٥٢٠ ق م.

وحدث الشقاق بين الإسرائيليين، إذ اعتبر اليهود العائدون من المنفى أنفسهم الممثل الشرعى الوحيد لإسرائيل، ونظروا إلى بقية الإسرائيليين على أنهم من الأعداء، ولم يرحبوا بدخول هؤلاء إلى المدينة المقدسة، وهكذا فإن أورشليم الجديدة لم تأت بالسلم المأمول إلى البلاد بل أصبحت موضع خلاف ونزاع بين بنى إسرائيل، وربما تعرضت أورشليم للمزيد من الأضرار فى عام ٤٥٨ ق م، إبان الاضطرابات التى نشبت فى شتى أنحاء الإمبراطورية الفارسية عند اعتلاء كسرى عرش فارس.

ولما عاد عزرا من فارس إلى أورشليم (٣٩٨ق م تقريباً) فى عهد الملك أرتخشتا الثانى، فوجئ بما عليه المدينة من خراب (نحميا ٢/ ١٣)،



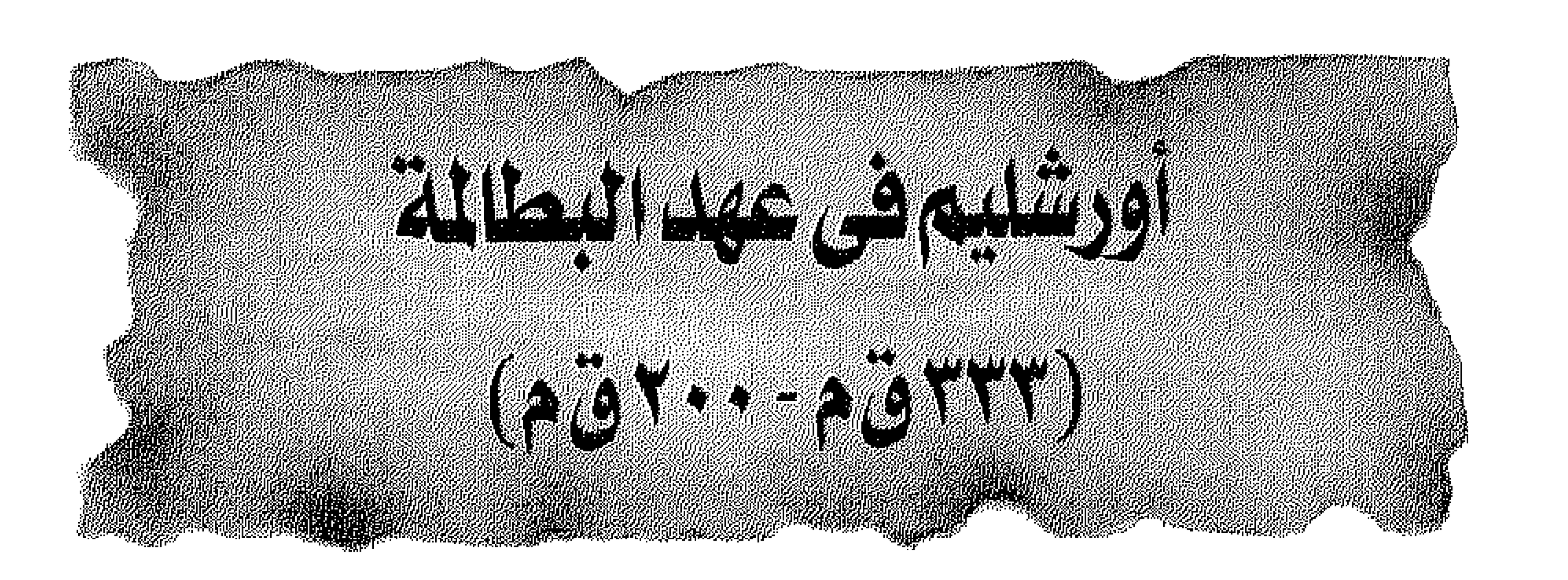
خريطة (٦)
أورشليم فى عصر نحميا



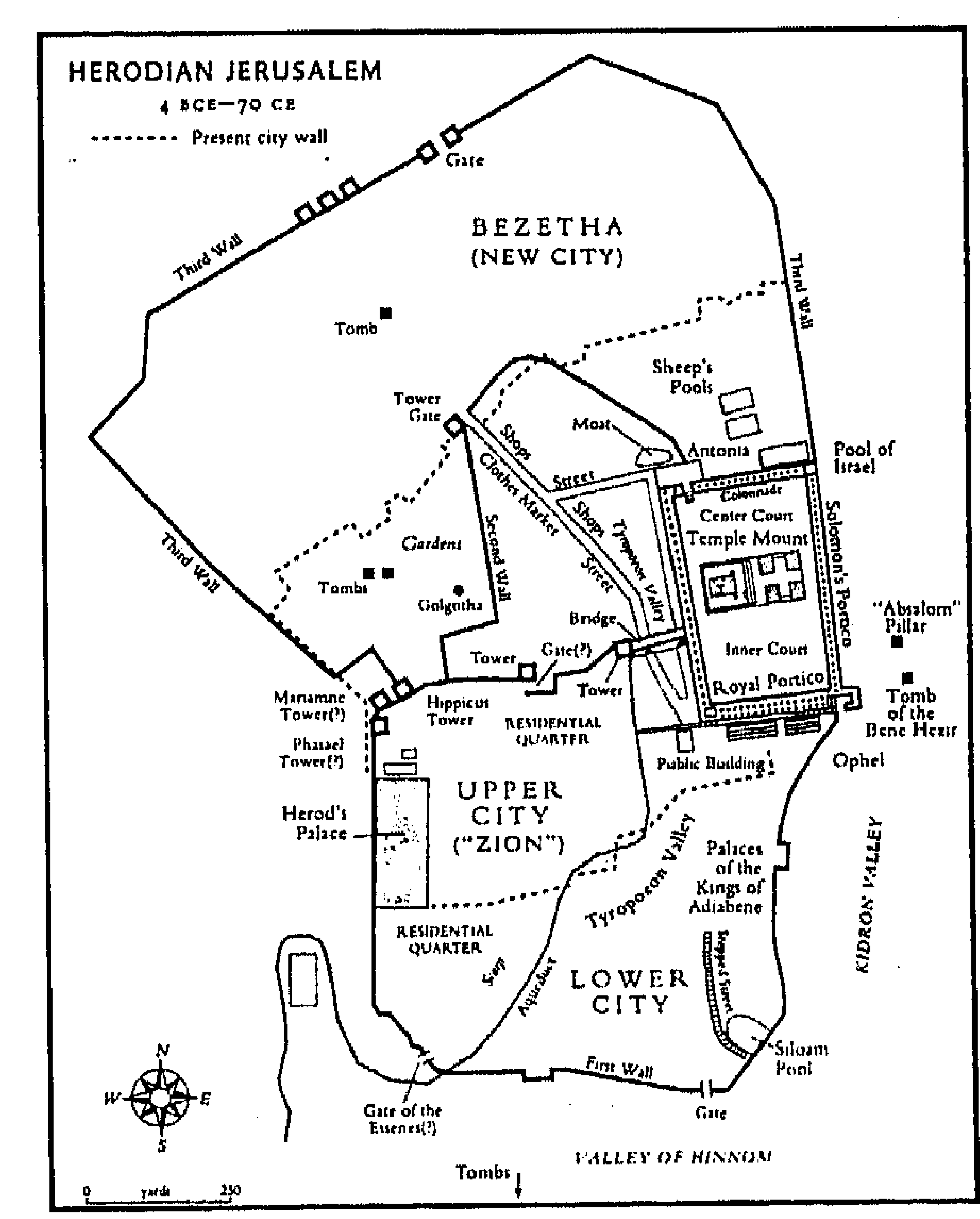
وبدأ يحث قومـه على رفع العار ومـحو المهـانة عن أورشليم، واستـجابوا له، وبدأوا فى بناء أسوار جديدة للمدينة فى وقت قياسى، واقتصرت عمليات إعادة الأعمال على مدينـة داود القديمة، وقام نحميا فى مدة حكمـه الثانية التى بدأت عام ٤٣٢ ق م تقريباً. بإصدار قانون جديد يحظر على أفراد اليهود العائدين من المنفى الزواج من يهود أورشليم الذين بقوا فيها.

لقد كـانت الإصلاحات الدينيـة التى قام بها الـيهود المنفـيون فى بابل إبان القـرن الخامس قـبل الميلاد هى الأسـاس الذى شكل جـوهر الديانة اليهـودية، وأصبح الانتماء إلى إسرائيل مقتصرا على سلالة الذين نفوا إلى بابل.

ومنذ تلك الفترة، أصبح تاريخ أورشليم يـتميز بالاتجاه إلى استبعاد الـشعوب الأخرى بصورة حاسمة، وتضاءلت أخبار المدينة فيما بعد عزرا، وحتى عصر الإسكندر المقدونى.



كان انتـصار الإسكندر المقـدونى على دارا الثالث مـلك الفرس بالقـرب من نهر إيسوس، فى أكتوبر عام ٣٣٣ ق م، بمثابة صدمـة ليهـود أورشليم، إذ كانوا أتبـاعاً مـخلصين للـفـرس الذين أعـادوهم إلى المدينة وسـاعدوهم فى إعادة بناء الـهيكل بعد تدميـره على أيدى البابليين عام ٥٨٦ ق م ويذكر المؤرخ الـيهودى جوسيـفوس فـلايوس (عـاش فى القــرن الأول) أن الكاهن الأكبر قد رفض التسليم للإسكندر حـيث أقسـم على أن يظل مـوالياً لآخـر



خريطة (٧)
أورشليم اليهودية

ملك من ملوك الفرس، لكنه رأى رؤية جعلته يستسلم، وبعد أن وعده الإسكندر باستمرار تطبيق القانون اليهودى على جميع اليهود فى شتى أنحاء إمبراطوريته.



الإسكندر الأكبر

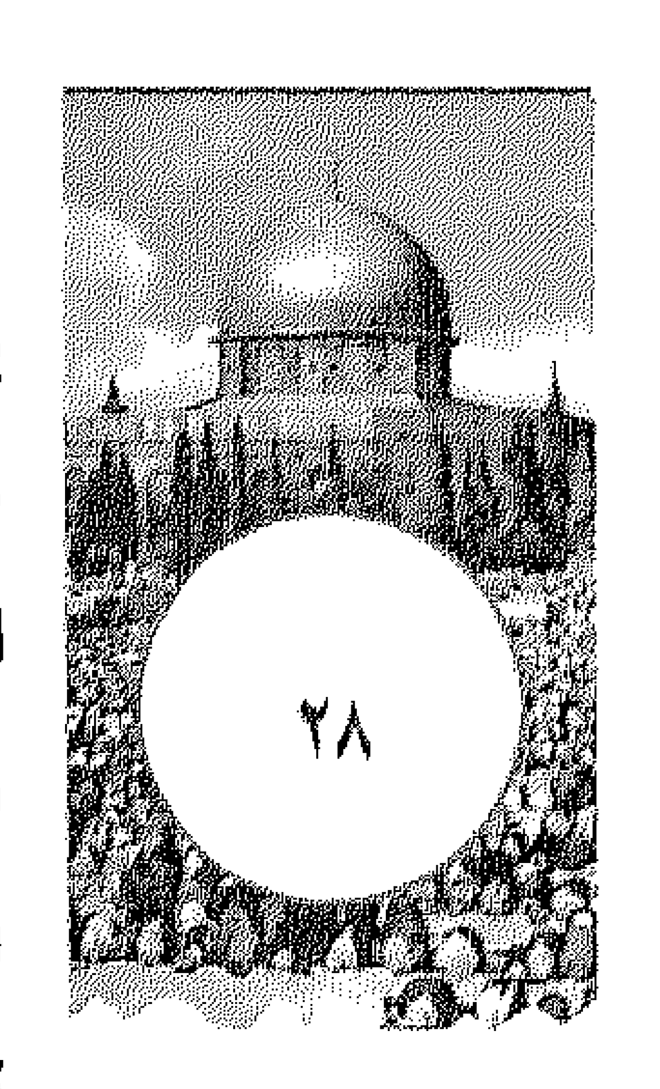
وليس ثمة أدلة على زيارة الإسكندر لأورشليم، وبقى اليهود على حالهم، إلا أن آثار الفكر اليهونانى الهلينى قد قسمت اليهود إلى فريقين : أحدهما معارض لهذا الفكر، والآخر متعاطف معه، واستمر الصراع بين الفريقين نحو ثلاثة قرون.

وبعد وفاة الإسكندر الأكبر فى بابل عام ٣٢٣ ق م، ساد الاضطراب إمبراطوريته حيث نشبت معارك خاضها الخلفاء الستة (أطلق عليهم الديادوك) - حيث لم يكن للإسكندر من وريث سوى طفل صغير - وتعرضت منطقة يهوذا - حيث كانت معبراً للجيوش السائرة من آسيا الصغرى إلى سورية أو مصر - لعمليات غزو متواصلة، وفتحت أورشليم ست مرات على الأقل خلال العقدين التاليين لوفاة الإسكندر.

وقد قسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر فى النهاية بين قواده، فقبض **بطليموس** على زمام الأمور فى مصر واختار الإسكندرية عاصمة له، وأصبح سلوقس مسيطراً على الشمال بعد سنوات، وكانت له عاصمتان : أنتيوخ على نهر العاص فى سورية، وسلوقيا فى بابل، وبعد صراع بين القائدين، انتصر بطليموس وخضعت أورشليم فى القرن التالى لأسرته، بدءاً من عام ٣٠١ ق م، وقد أخذ **بطليموس** معه إلى مصر عدداً كبيراً من الأسرى اليهود، أصبحوا فيما بعد مركزاً لما يسمى بيهود الشتات Disapora Jewry.

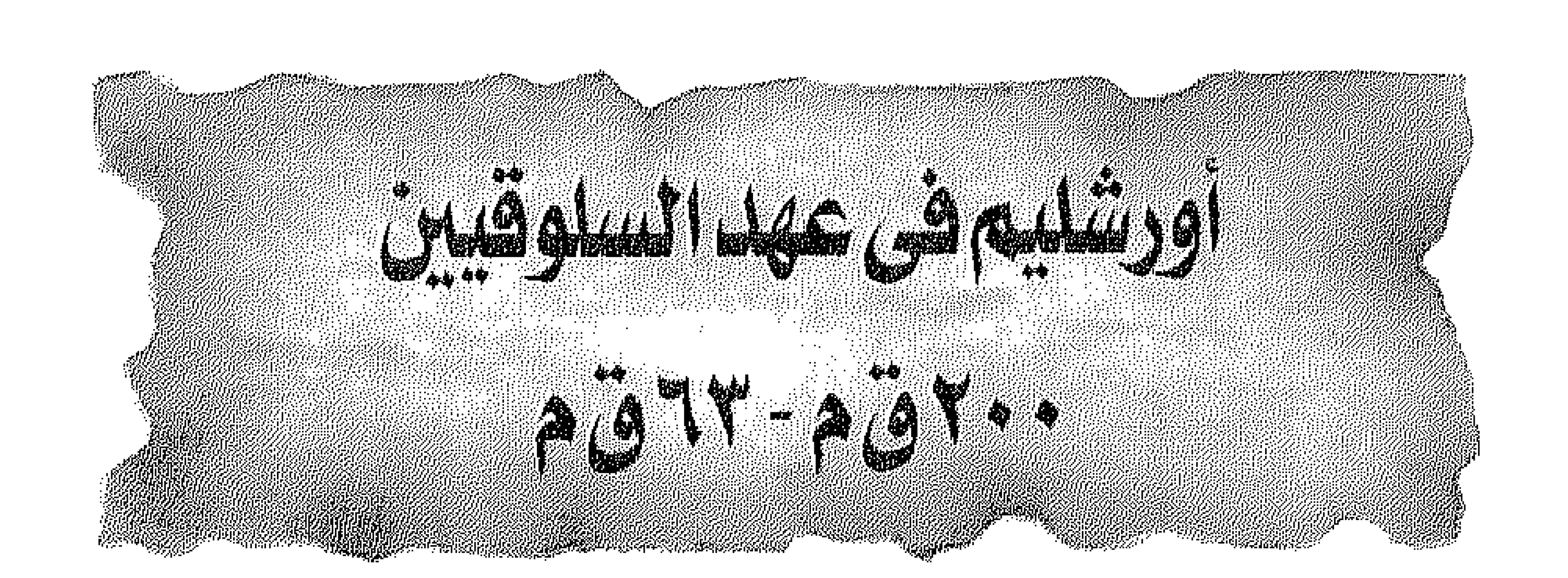
وتعد هذه الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد من فترات الاستقرار النسبى، وإن حاول السلوقيون عدة مرات أخذ البلاد. وقد أقام البطالمة نظاماً جديداً للإدارة يراعى خصوصيات كل منطقة من مناطق حكمهم، ولم يكن من شأنهم التدخل كثيراً فى الشئون المحلية للسكان، وازدهرت أورشليم، واستمرت العبادة فى المعبد، وفى عهد بطليموس الثانى ترجم العهد القديم العبرى إلى اليونانية، وهى تلك الترجمة المعروفة بالسبعينية.

وظلت أورشليم فى نظر يهود العالم مدينة مقدسة، معبدها هدف روحى لهم، وهى قبلة لهم، وكان على كل يهودى أن يرسل كل عام نصف شيكل كضريبة، وكانوا يحجون إلى أورشليم كلما أتيحت لهم الفرصة.



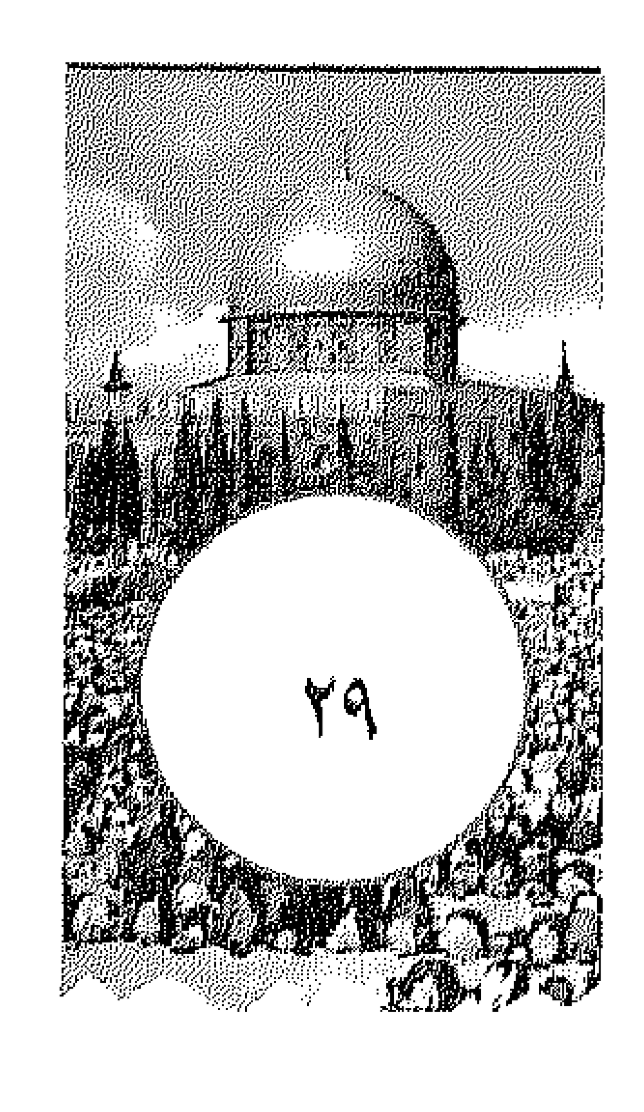
ولـم تتأثر أورشليم فى أول الأمر بالثقافة الهلينية العلمانية الجديدة، حيث لم يهتم البطالمة كثيراً بأرض يهودا، واستمرت التوراة قانوناً لليهود كما كانت عليه منذ أيام الفـرس، واستمـر الكهنة فى حكم أورشليم، ومن المحتـمل أن يكون البطالمة قد عينوا وكيلاً محلياً «أويكونوموس» للإشراف على شئون يهودا، ومن المحتمل كذلك أنهم كانوا يرسلون حـامية عسكرية للدفاع عن أورشليم فى زمن الحـرب على الأقل، ولكنهم كـانوا يتركـون لليـهـود - فى معظم الأوقـات - تصريف أمورهم بأنفسهم، واقتصرت صلتهم الرئيسة بالحكومة المصرية على دفع الجزية التى التزموا بدفعها كل سنة ومقدارها عشرون مثقالاً من الذهب.

وقد نجح أحد أبناء أورشليم اليهود ويدعى يوسف خـلال فترة حكم بطليموس الثانى (٢٨٢ - ٢٤٦ق م) فى الحصول على منصب جابى الضرائب لمقاطـعة سورية كلها، وكان يوسف ينتمى إلى عشيـرة طوبيا، واستطاع أن يدخل النظام التـمويلى المصرفى اليونانى إلى القـدس، بل أصبح أول صاحب مصرف من بين اليـهود، الأمر الذى أدى إلى ازدهار اليهود الاقتصـادى، وفتح الباب أمام التأثيرات اليونانية التى كـان أفراد عشيرة طوبيا من روادها والمتحمـسين لها، وبدأ اليهود فى العالم الإغريقى يشاطرون اليونان إحساسهم فى «المواطنة العالمية» وكسر قيود الانغلاق التى فرضتها عليهم عقيدة «الشعب المختار»، وإن لم نعدم وجود يهود عارضوا هذا الانفتاح وتمسكوا بتقاليدهم القديمة.



أورشليم فى عهد السلوقيين ٢٠٠ ق م - ٦٣ ق م

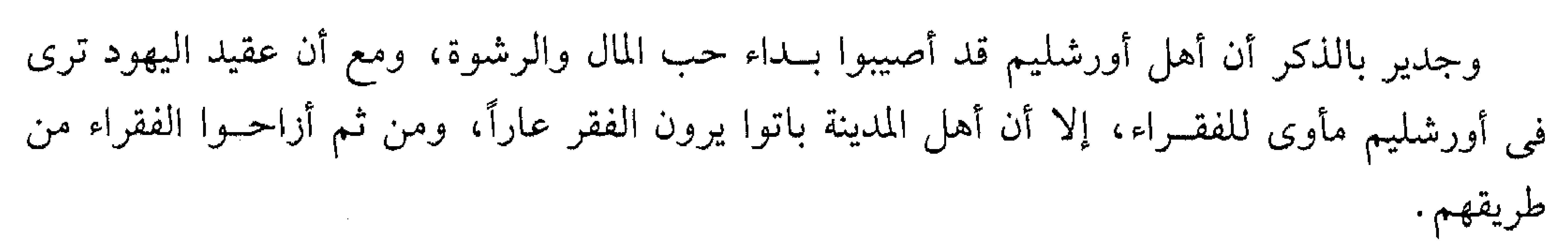
قام الملك السـلوقى أنتيوخس الثـالث فى أواخر القـرن الثالث ق م بالاستـيلاء على السـامرة وساحل فينيقيا، إلا أن **بطليموس الرابع** تمكن من إجلائه عن هذه الأقاليم، ولما كان «الطوبيون» على علاقات وثيقة مع البطالمة منذ أن أصبح يوسف رئيس جـباة الضرائب لهم، فقد أعرب يهود أورشليم المحافظون عـن دعمهم ومـؤازتهم للسلوقيين، ولما عاد أنتـيوخس الرابع لغـزو البلاد من جديد عام ٢٠٤ ق م، أعانه اليـهود على فتح قلعة أورشليم عام ٢٠١ ق م واحتـلالها لعام كامل حيث عاد البطالمة إلى البلاد وأجلوه عنهـا فى العام التالى. وفى عام ٢٠٠ ق م تعرضت أورشليم لحصـار طويل ودمار شـديد بعد نجاح أنتيوخس فى استـعادة السـيطرة عليها، حـيث كافـأ يهود أورشليم على دعمهم له، وعين سمـعان الثانى (من أسرة أونياد) رئيسا لهم، وبهـذا تفوق اليهود المحافظون على اليهـود الطوبيين المنحازين إلى اليونان، واستـمر اعتبار التـوراة قانون البلاد، وتم



تطهير أورشليم من كل ما يدنسها، وسنت قوانين يهودية معادية للأغيار (الجوييم) الأمر الذى أجج روح العداء بين اليهود وهؤلاء الأغيار.

وليس ثمة دليل على ظلم السلوقيين لأهل فلسطين، ولكنهم أرادوا تقريبهم من الأساليب اليونانية فى الحياة.

كما يشير المؤرخ اليهودى بن سيراه إلى الأعمال الإنشائية الكبيرة التى أنجزها سمعان الثانى فى أورشليم حيث أصلح أسوار المدينة ومداخل المعبد الذى أصيب ببعض الأضرار إبان حصار عام ٢٠٠ ق م، كما قام بحفر خزان للمياه شمالى جبل المعبد.

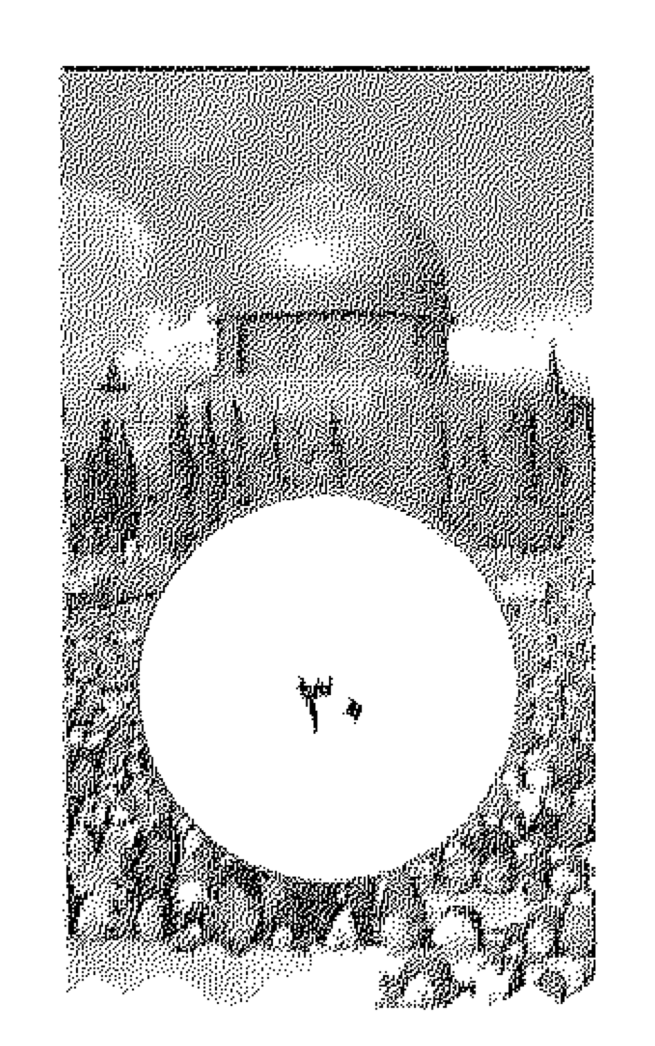


وجدير بالذكر أن أهل أورشليم قد أصيبوا بداء حب المال والرشوة، ومع أن عقيد اليهود ترى فى أورشليم مأوى للفقراء، إلا أن أهل المدينة باتوا يرون الفقر عاراً، ومن ثم أزاحوا الفقراء من طريقهم.

وقد شهدت أورشليم صراعاً بين من مالوا إلى الهلينية والمحافظين، وبرزت مظاهر هذا الصراع فى عام ١٨٠ ق م تقريباً عندما اتهم أونياس الثالث - الكاهن الأكبر وابن سمعان الثانى - باكتناز المال فى خزانة المعبد، حيث أرسل الملك سلوقس الرابع وزيره هليودوروس من أنطاكية إلى أورشليم لإحضار المال المكتنز الذى كان الملك يعتقد أنه من حق الدولة، إذ إنه ملتزم بدفع جميع نفقات شعائر أورشليم الدينية من دخله الخاص، الأمر الذى يخول له - فى رأيه - حق التحكم فى الشئون المالية للمعبد. لكن الملك السلوقى لم يكن يقدر حساسية المعبد بالنسبة لليهود؛ لذلك قوبل الوزير المبعوث بحالة من الهياج والاضطراب بين يهود المدينة، إذ اعتبروا أى محاولة لانتهاك قداسة المعبد ضرباً من الاغتصاب، واعتبر أعداء أونياس أنه مسئول عن تلك الأحداث، وقام أخوه يشوع بالتقرب من الملك سلوقيوس وقدم له رشوة ضخمة مقابل تعيينه كاهناً أكبر محل أخيه، وفر أونياس من البلاط ثم قتل بعد ذلك.

ولم يكن يشوع محافظاً، بل كان من أنصار الهلينية، لكن من الصعوبة أن تتحول أورشليم إلى مدينة يونانية فى وقت قصير نظراً لخصوصيتها بين اليهود آنذاك، إلا أن مظاهر الهلينية بدت واضحة فى المدينة، إذ أقيمت صالة مغطاة للألعاب فى أورشليم بالقرب من المعبد، وبدأ الشباب فى تعلم الفلسفة اليونانية والموسيقى وممارسة الألعاب الرياضية، وإن ظلت التوراة قانوناً للمدينة، وأصبح الكهنة يشاركون فى هذه المظاهر، ربما على أمل إنعاش اقتصاد المدينة، وتمادى دعاة التحول إلى الهلينية فى دعوتهم رغبة فى التخلص من انغلاق اليهودية وانعزالها.

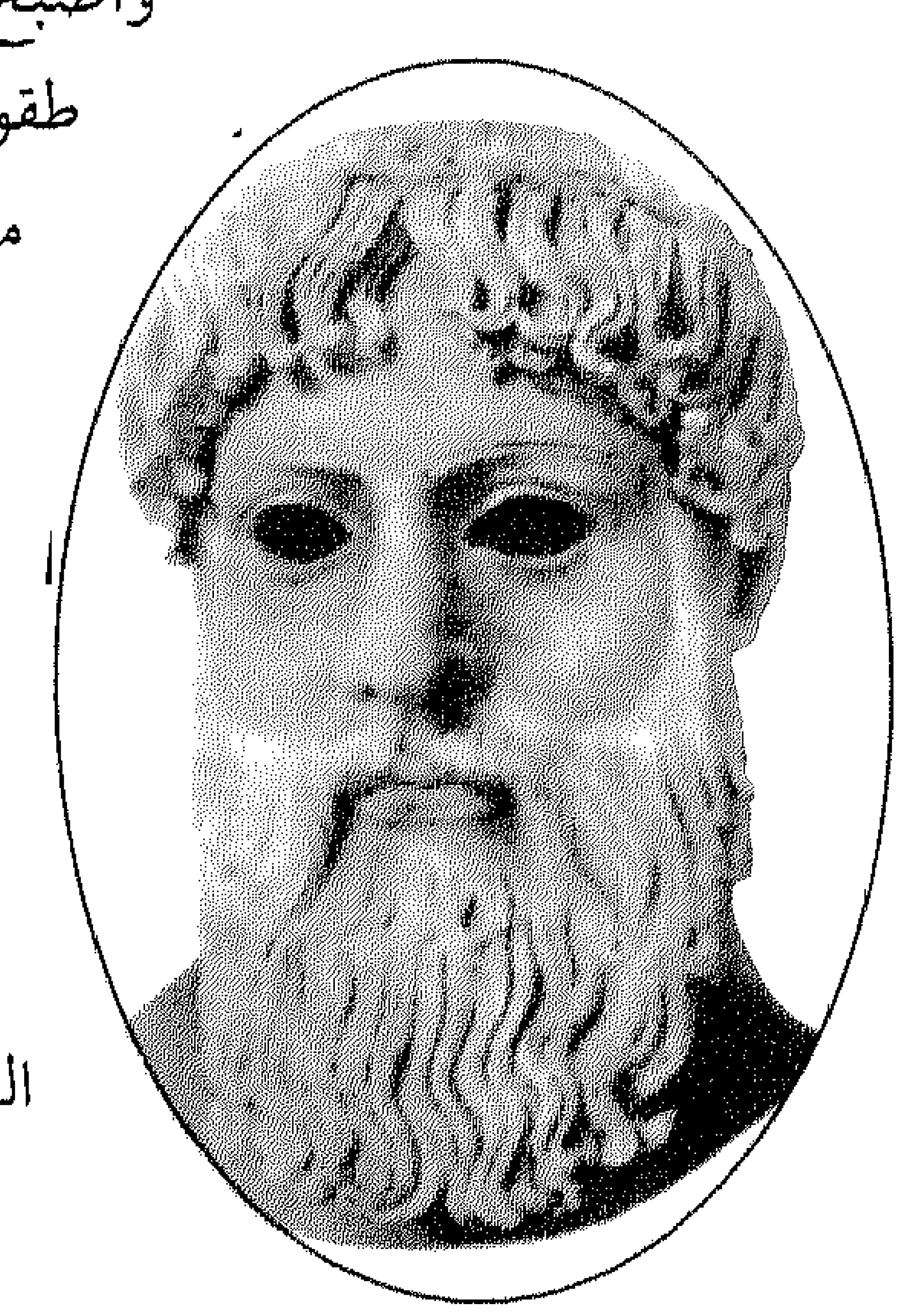
وفى عام ١٧٠ ق م حاول يشوع (وكان يدعى كذلك جاسون) الإطاحة بالنظام السلوقى الحاكم إثر إشاعة مفادها مصرع أنتيوخس فى معركة مع الرومان فى مصر، لكن النبأ لم يكن صحيحاً مما دفع أنتيوخس إلى الانقضاض فى ثورة عارمة على المدينة، حيث نهب خزانة المعبد



واستولى جيشه على المذبح الذهبى وقاعدة المصباح وحجاب قدس الأقداس وجميع الآنية والمباخر، وأقيم حصن حربى سمى حصن أكرا للاحتفاظ بالرقابة الحربية على المدينة.

وقد اعتبر اليهود هذه الأحداث انتهاكاً سافراً لأقدس مكان عندهم، وتحولت أورشليم بعد ذلك إلى مستعمرة عسكرية حيث أرسل أنتيوخس فى العام التالى فرقة عسكرية جديدة قامت بغزو أورشليم فى عطلة السبت وهدمت بعض أسوار المدينة.

وجاءت الفترة الأخيرة من عهد السلوقيين فى محاولة لتغيير حالة أورشليم إلى الهلينية، وأصبح يطلق على المعبد «**معبد زيوس**» ومارست الفرق اليونانية طقوسها فيه، وأدخلت تمثال زيوس، وتم تقديم لحم الخنزير (وهو محرم فى الشريعة اليهودية) على مائدة قربان المعبد، ومزقت صحف الشريعة، وكان الإعدام مصير كل من حاول الحفاظ على تقاليد السبت والأعياد والطهارة، بل كان اليهودى يحاكم إذا ما رفض أكل لحم الخنزير أو عدم السجود لتماثيل اليونان، ولم يبق إلا قلة من «الحسيديم» المتدينين الذين كانوا يؤدون الشعائر الدينية سراً.

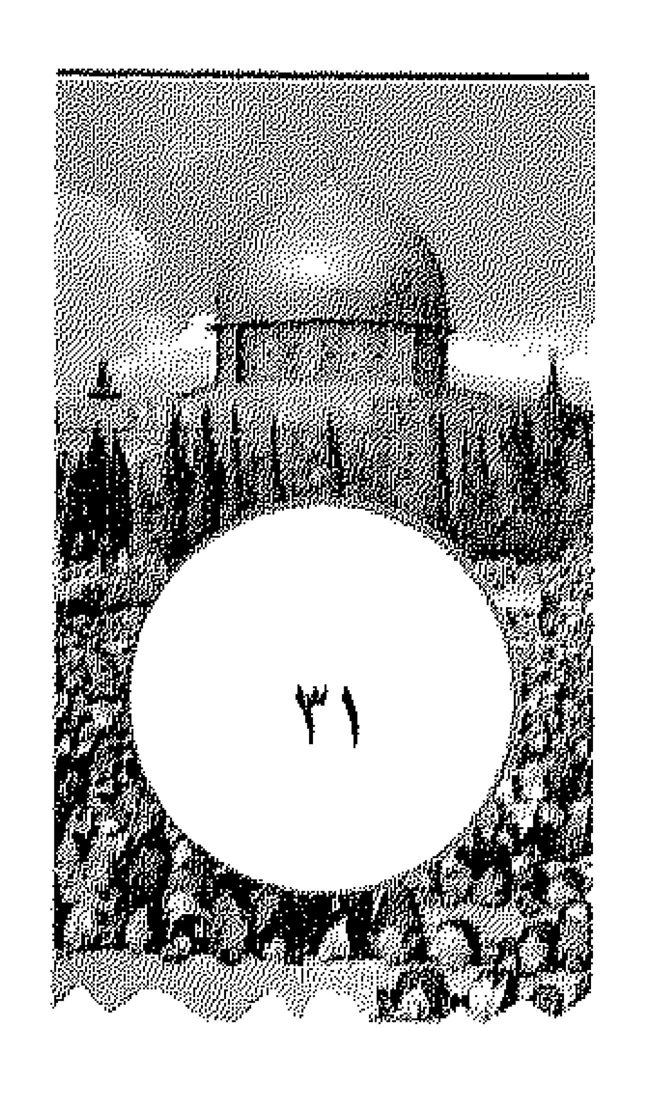

رأس تمثال زيوس

كما أصدر أنتيوخس مرسوماً يحظر ممارسة العبادات اليهودية فى يهودا، وإعدام كل من يخالف ما جاء فى هذا المرسوم، ثم اضطر انتيوخس إلى إلغائه عام ١٦٤ ق م، حيث تمكنت يهودا من السيطرة على أورشليم وإن لم تستطع زحزحة اليونانيين أو اليهود السائرين فى ركاب الهلينية من أكرا.

وبدأت عملية. إعادة تطهير الهيكل وتعميره مرة أخرى، وأعيد تكريس المعبد مرة أخرى بعد ثلاث سنوات من تدنيسه حيث أعلن اليهود هذا اليوم (٢٥ كسلو ١٦٤ ق م) يوم عيد «التدشين» (الحنوكاه)، ويحتفل به سنوياً حتى الآن.

تمرد الحشمونيين (المكابيين):

كان من نتائج تلك التغيرات الجوهرية فى الحياة اليهودية الأورشليمية ظهور «المتنبئين» الذين قاموا برسم صورة أحداث الأيام الأخيرة على الأرض من خلال خيالاتهم، كنوع من مقاومة الوضع الجديد، كما لجأ آخرون إلى معارضة هذا الوضع بالسلاح.



وأدى التدخل السلوقى السافر فى أحوال اليهود وأورشليم إلى خلق حزب وطنى قوى، وقاد اليهودى ماتاثيس (متى فياس) عام ١٦٧ ق م ثورة على السلوقيين السوريين بمعاونة أبنائه الخمسة، وخاضوا حرب عصابات ضد السلوقيين فى وقت كان السلوقيون فيه يعانون من الصراعات الداخلية على السلطة، حيث استغل يهودا بن ماتاثيس تأليب بعض السلوقيين على البعض الآخر، وقد انتقلت الزعامة إليه فى أعقاب وفاة أبيه، وتسمى يهودا باسم المكابى (بمعنى المطرقة)، وعرفت حركته التمردية هذه باسم الحركة المكابية، وإن كانت الأسرة تسمى بالحشمونية نسبة إلى حاشمون، الجد الأعلى لأبى يهودا.

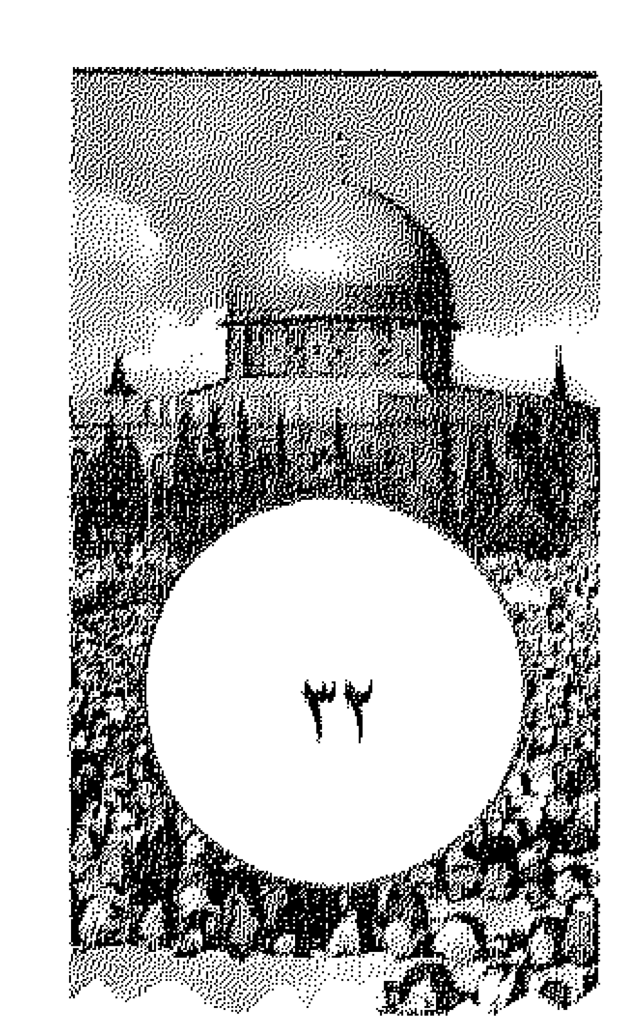
وكان يهودا محارباً، واستطاع أن يحول الجماعات اليهودية المحيطة به والتى كانت تشكل عصابات من المقاتلين إلى جيش نظامى، ويسجل لنا سفر المكابيين أربع معارك رئيسة خاضها اليهود فى تلك الفترة، حيث قتلوا القائد اليونانى أبولونيوس فى السامرة، كما هزموا القائد سيرون عند بيت حورون ومنعوه من دخول أورشليم، وهزموا أيضاً حملة أمانوس على بعد ١٥ ميلاً غربى أورشليم، وحملة أخرى عند بيت زور جنوب المدينة، ومن ثم أصبح الطريق إلى أورشليم مفتوحاً أمام اليهود، حيث اجتمع المكابيون اليهود عند جبل صهيون وكانت القوات السلوقية لاتزال خلف الأسوار المحصنة فى قلعة أكرا.

وتفيد الروايات المكابية أن يهودا ورجاله لم يعيدوا احتلال المدينة، وإنما سيطروا على معبد الصخرة، ويبدو أن أورشليم قد بقيت فى أيدى اليونان تحت حماية قلعة أكرا ورجالها، بينما فر باقى السكان من المذابح إلى القرى، وظلت المدينة قاعدة للسلوقيين.

وقد قتل يهودا المكابى فى معركة السا على بعد ١٢ ميلاً شمال أورشليم فى عام ١٦٠ ق م، وانتقلت زعامة المتمردين من بعده إلى أخيه يوناثان الذى تمكن من دخول أورشليم عام ١٥٢ ق م كزعيم محارب وككبير للكهنة وكحاكم فعلى لليهود، وقد عينه الملك ديمتريوس الذى تولى عرش السلوقيين عام ١٦٢ ق م، وأصبحت أورشليم فى قبضة اليهود المكابيين، فأعيد بناؤها وتحصينها، وفى الوقت نفسه بقى حصن أكرا معقلاً للهلينية.

وبعد مقتل يوناثان الذى حكم اليهود من ١٦١ - ١٤٣ ق م، والذى استطاع أن يستفيد من خلافات الأسرة السلوقية الحاكمة لتحقيق أكبر قدر من الفوائد والمزايا لليهود، تولى أخوخ شمعون الزعامة والكهانة، واستطاع أن يستولى على حصن أكرا عام ١٤١ق م.

وجدير بالذكر أن المكابيين اليهود قد سموا أنفسهم بالملوك مع أنهم كانوا تابعين ويدفعون الخراج للسلوقيين حتى تمكن شمعون من الحصول على إعفاء من دفع هذا الخراج من قبل الإمبراطور ديمتريوس الثانى عام ١٤٣ ق م، الذى عينه حاكماً على اليهود، واعتبره اليهود ملكاً يتولى ورثته الحكم من بعده، حتى ظهور «نبى معتمد».



وقد اعتبر اليهود عام ١٤٣ق م عصراً جديداً وأرخت الوثائق الرسمية باسمه وبسنة حكمه، وانتهى عصر حكم الكهنة التقليدى، ليبدأ حكم ملكى اعترف به الإمبراطور السلوقى، وليبدأ حكم أورشليم حتى الفتح الرومانى عام ٦٣ ق م إضافة إلى سنوات معدودة بين ٤٠ - ٤٧ ق م.

وقد تميزت الأسرة الحشمونية، أو المكابية، بالقوة، وازداد سكان أورشليم فى عهدها، ووفد إليها الحجاج من كل مكان.

ولما قتل شمعون عام ١٣٥ ق م، تولى الحكم من بعده ابنه جون هيركانوس الذى تمكن من ضم أجزاء من شرقى الأردن والسامرة فى الشمال وأرض أدوم إلى بلاده، كما تمكن من عقد هدنة مع انتيوخس سيدتس آخر الملوك العظام فى الأسرة السلوقية، الذى غزا فلسطين فى عهد هيركانوس.

وشهدت فترة هيركانوس خصاماً مع رجال الدين اليهود - الفريسيين - وساعده فى ذلك الصدوقيون أعداء الفريسيين.

وبعد موت هيركانوس عام ١٠٥ ق م، ورثه ابنه يهودا ارستوبولس الذى حكم عاماً واحداً، وجاء من بعده أخوه الإسكندر ينای، وقامت فى عهده حرب أهلية بين الصدوقيين الذين مع التزامهم بالرموز الدينية العريقة، كانوا قد اكتسبوا الطابع الهلينى وأقاموا علاقات طيبة مع جيرانهم الوثنيين، وبين الفريسيين الذين كانوا ملتزمين بمراعاة التوراة مراعاة دقيقة وصارمة، وكانوا يرون أن الحكام الحشمونيين لا ينبغى لهم شغل منصب كبير الكهنة، وانتهى الأمر إلى الاعتقاد بأن الحكم الأجنبى لهم أفضل من حكم هؤلاء اليهود الفاسدين.

وقد يكون هؤلاء الفريسيون هم الذين دبروا الثورة على ينای وهاجموا المعبد أثناء احتفال اليهود بعيد «السكوت» (المظال) الأمر الذى جعل الملك المكابى الإسكندر ينای يعدم ستة آلاف رجل منهم.

كما اندلعت ثورة أخرى، قام على أثرها ينای بصلب ثمانمائة متمرد فى أورشليم وذبح زوجاتهم وأطفالهم أمام أعينهم وهم فوق الصلبان، وكان خلال ذلك يتمتع بالمشهد أثناء مأدبة حافلة ويلهو مع محظياته.

وقد وسع ينای حدوده بحيث شملت من جبل الكرمل شمالاً إلى قطاع غزة جنوباً، وغرب الأردن والبحر الميت وشريط من شرق الأردن، من غرب سورية فى الشمال إلى الطرف الجنوبى للبحر الميت.

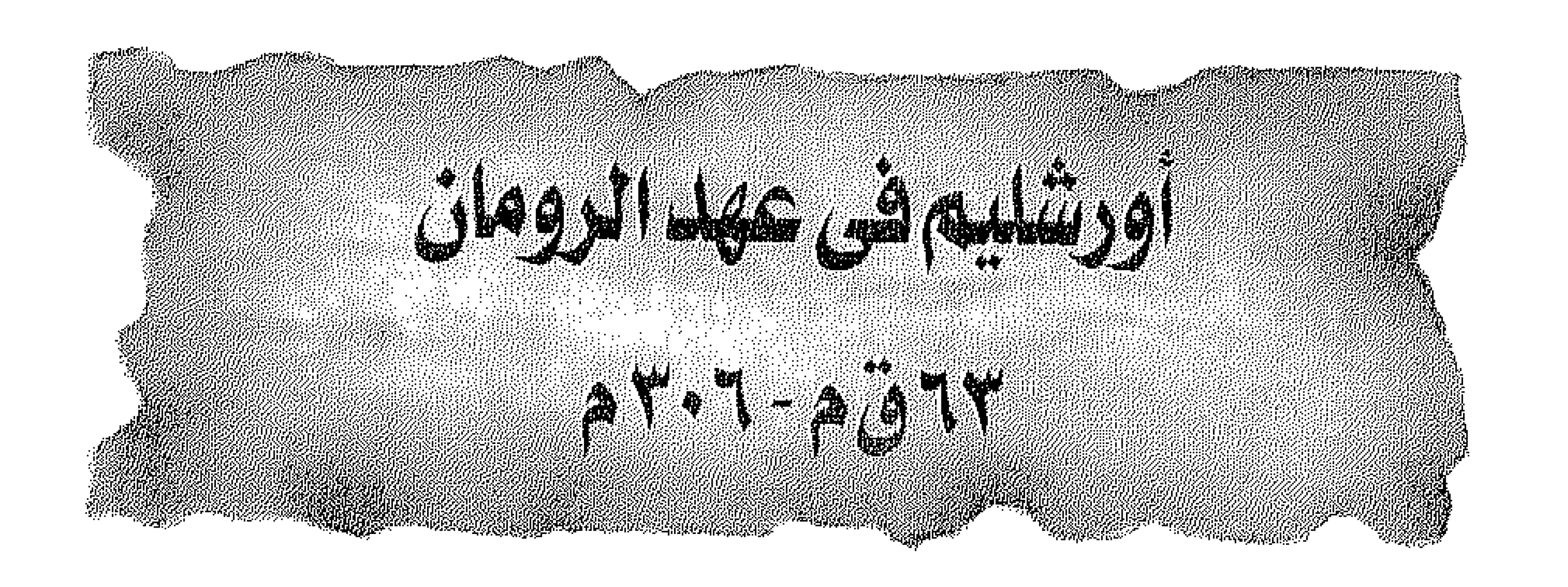
ولما كان ينای على فراش الموت قام بتعيين زوجته «سالومى» وريثة للعرش، إذ كان له ولدان صغيران، وقد حكمت سالومى من ٧٦ - ٦٧ ق م.

وقد عينت سالومى ابنها الكبير هيركانوس كبيراً للكهنة، وكان شأن الفريسيين قد ارتفع فى عهدها ارتفاعاً عظيماً، إلا أنه بوفاتها نشب الصراع على كرسى الملك بين الأخوين هيركانوس الثانى واريستوبولوس الثانى، وبدأ كل منهما يستعين بقوات أجنبية، فساعد الأنباط العرب هيركانوس، وتمكن بفضلهم وفضل الحاكم غير اليهودى لإيدومية العربية «أنتى بيتر»، من السيطرة على الأراضى العليا، وتراجع أريستوبولوس إلى أورشليم واحتمى بأسوارها.

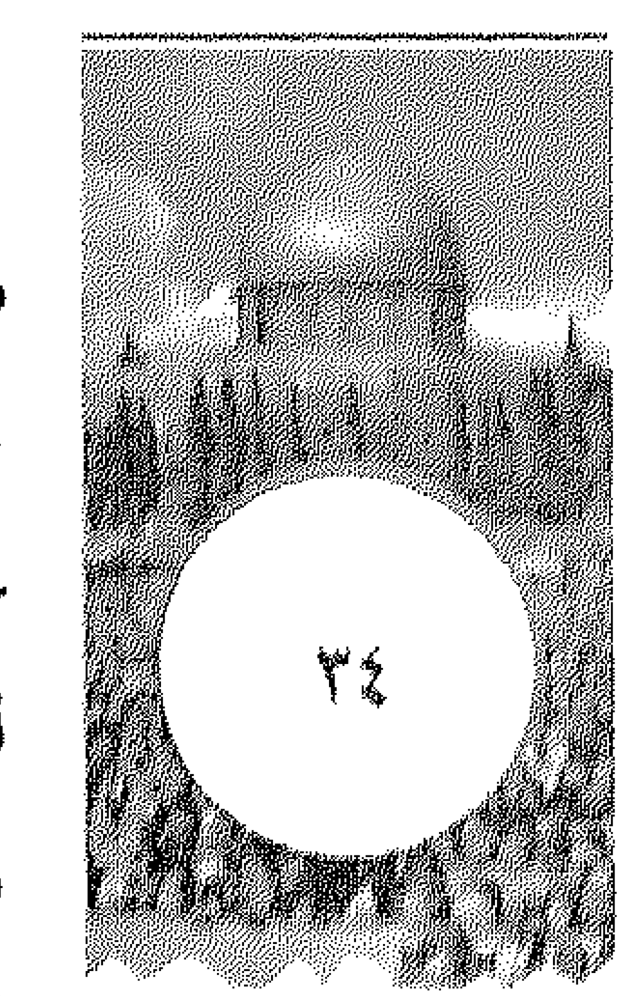
فى ذلك الوقت، كانت روما تغزو أرمينيا، وأرسلت قوة إلى الجنوب للاستيلاء على دمشق، وعندما سقطت دمشق، تقدم ماركوس سكاوروس للاستيلاء عليها، وسمع بالثورة فى بلاد يهودا. ولما أتى القائد الرومانى بومبى إلى سورية ودخل دمشق، اتجه إلى الجنوب حيث احتل أريحا وتقدم إلى أورشليم، حيث طلب منه التوسط بين الأخوين المتحاربين، واستطاع أنتى بيتر حاكم إيدومية العربية، إقناعه لصالح هيركانوس، ويعود العرب ليشاركوا - مرة أخرى- فى تقرير مصير أورشليم.

وقد حاصر بومبى أورشليم ثلاثة أشهر، سلمت المدينة بعدها للرومان الذين دخلوا معبد اليهود المقدس عام ٦٣ ق م وقتل اثنى عشر ألف يهودى فى المذبحة التى تلت دخول المعبد، إلا أن بومبى انسحب منه، وأمر بتطهيره وخضعت المدينة للرومان حيث عينوا عليها سكاوروس حاكماً، وهيركانوس كاهناً، وعاد بومبى إلى روما وأخذ معه أريستوبولوس وولديه.

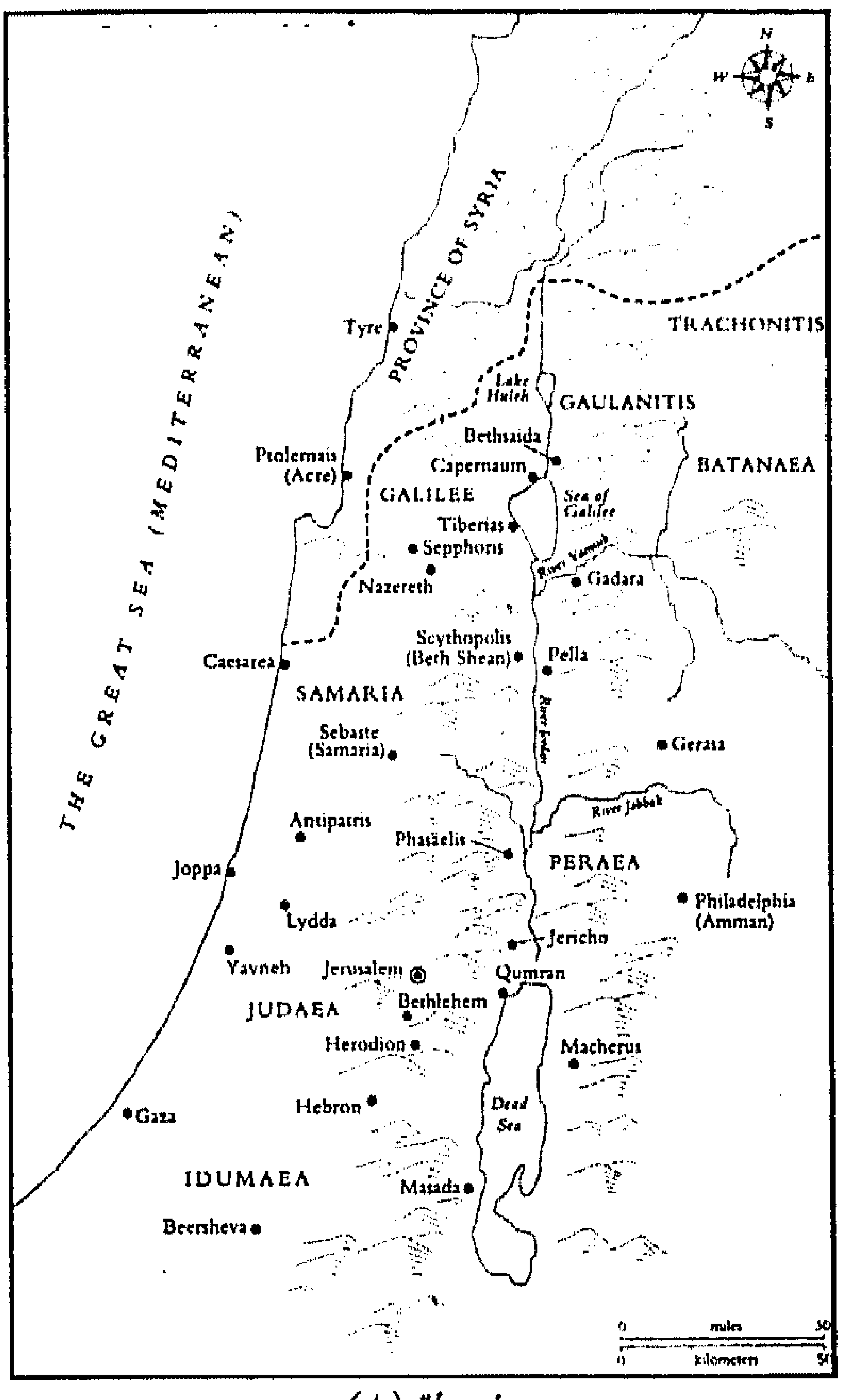
لكن الاحتلال الرومانى للبلد، الذى تم إطلاق اسم فيليسطيا (=باليستيا باللاتينية) بدأ بانتهاك حرمة المعبد وجعل اليهود يراقبون سادتهم الجدد بعين الحذر خوفاً من تكرار ذلك التدنيس.



بعد انتصار القائد الرومانى بومبى على المملكة الحشمونية اليهودية، فرض على أهلها شروطاً قاسية، إذ سمح لليهود بحكم يهودا وأيدوميا وبيريا والجليل، ولكنه سمح للمؤمنين بإله إسرائيل «يهوه» فى السامرة، وكذلك لغير اليهود من سكان السهل الساحلى والمدن اليونانية والسهل الفينيقى، ومنطقة ديكابوليس، بإدارة شئونهم بأنفسهم، كما سمح للذين رفضوا اعتناق اليهودية وطردوا من البلاد بالعودة إليها.



وقد كافأ بومبى حلفاءه من اليهود، فعين أنتى بيتر حاكم أيدوميا - الذى تهود على ما يبدو - قائداً للجيش، ومسئولاً عن يهودا، مع التزامه بإطلاع السفير الرومانى فى دمشق على كل شىء، بينما عين هيركانوس الثانى كبيراً للكهنة، لكن أورشليم فقدت جانباً كبيراً من مكانتها السياسية بعد أن دمر بومبى أسوارها تماماً، ولم تعد سوى عاصمة لمقاطعة فرعية لا منفذ لها على البحار، وتفصلها عن الجليل منطقة يحكمها السامريون وغير اليهود، كما تخلص بومبى بالقتل من اليهود المشاغبين، وسبى معه من سبى، وبتر الأجزاء الأخرى التى كان يسيطر عليها اليهود ونقلها إلى حاكمه الجديد فى سورية، وواصلت الأسرة المكابية وجودها على هذا النحو المتقلص فى ظل الرومان.

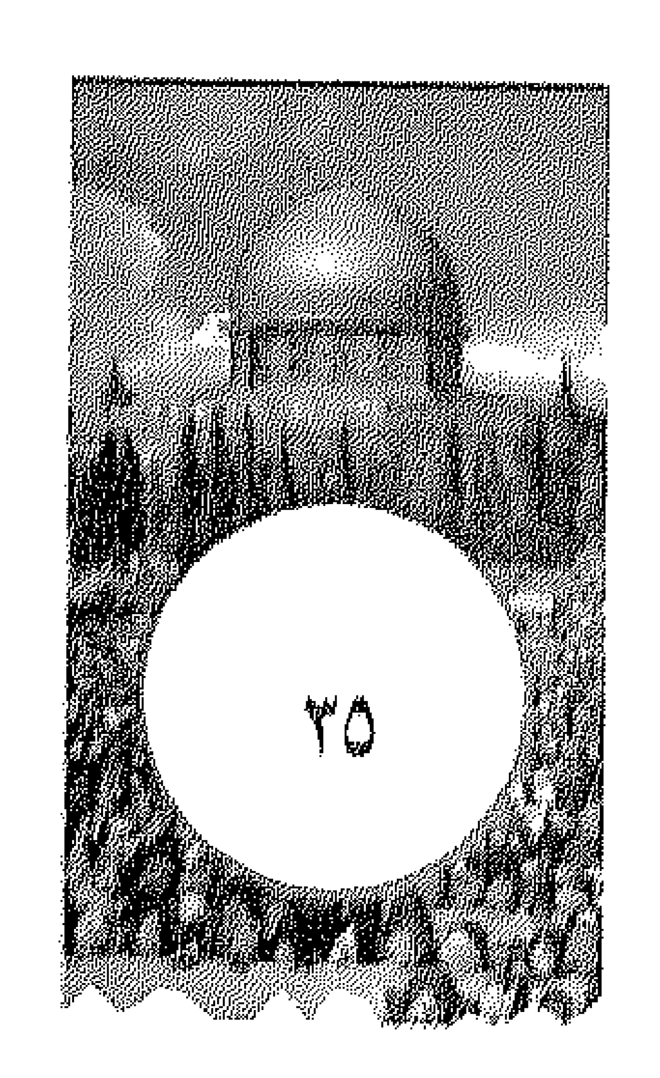


خريطة (٨)
أورشليم الرومانية

وقد حاول أريستوبولوس استعادة سلطته فى أورشليم بعد أن فر من آسريه الرومان، وشرع فى إعادة بناء الأسوار، لكن السفير الرومانى فى سورية قمع ذلك التمرد عام ٥٧ ق م، وأعيد أريستوبولوس وابنه مرة أخرى إلى روما، وإن سمح الرومان لأبنائه الآخرين بالبقاء فى فلسطين لعدم استعداء رعاياهم اليهود، ونظراً لما تمثله فلسطين من أهمية إستراتيجية للرومان.

واستمر الوجود الحشمونى القوى فى البلد، وكان أنتى بيتر حاكماً يحظى باحترام اليهود، وإن كانت أسرته حديثة العهد بالدين اليهودى، وكان هو وأسرته يحولون ولاءهم بذكاء إلى صاحب الأمر إذا تأثر سلطان حاميهم، ومن ثم عندما انتصر يوليوس قيصر عام ٤٩ ق م على بومبى، كان أنتى بيتر إلى جانبه، وكافأه يوليوس قيصر على ذلك بأن جعله ذا سلطة كاملة على يهودا، وسمح له بإعادة بناء أسوار أورشليم، وأعيد ميناء يافا ووادى يزرعيل إلى سلطة اليهود.

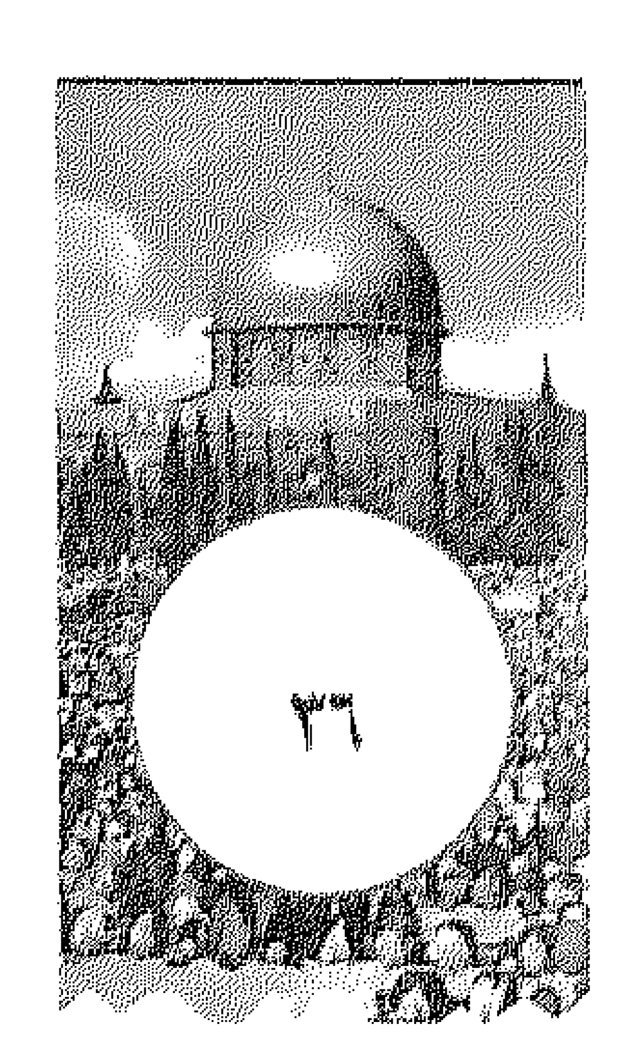
يوليوس قيصر



وقد عين إنتى بيتر ولده البكر فاصائيل حاكماً على أورشليم، بينما عين ابنه الثانى هيرود حاكماً على الجليل، ومات إنتى بيتر بالسم عام ٤٣ ق م، وتقاسم ولداه سلطته، وإن كان نصيب هيرود هو الأكبر.

هيرود - جزء من لوحة للفنان (ماتيورى چيوفانى) حيث قتل ١٤٤ ألف طفل خشية ميلاد المسيح وهو سبب هروب العائلة المقدسة إلى مصر


آثار رومانية فى القدس



ولما قتل يوليوس قيصر عام ٤٤ ق م فى روما إثر مؤامرة دبرها ماركوس بروتوس وجايوس كاشياس، مال كل من فاصائيل وهيرود إلى الحكام الجدد وأصبحا من عملاء كاشياس، ولما أعلن أوكتافيان ومارك أنطونيو الحرب على بروتوس وكاشياس ، أظهر هيرود وفاصائيل استعدادهما لتحويل ولائهما من جديد إليهما، وبالفعل، بعد أن هزم كل من بروتوس وكاشياس فى موقعة فيليبى عام ٤٢ ق م، مد أنطونيو يد الصداقة لهيرود وفاصائيل، حيث تمتعا برعايته لهما فى ظل الإمبراطورية الرومانية فى مرحلتها الجديدة.

وفى عام ٤٠ ق م فقد الرومان السيطرة مؤقتاً على فلسطين فى أعقاب نجاح انتيجونس الحشمونى وطائفة الفريسيين فى التقدم إلى أورشليم والاستيلاء عليها بعد قتال فى المعبد والمدينة، حيث تم تنصيب أنتيجونس حاكماً لأورشليم، وأسر فاصائيل وأرغم على الانتحار، لكن هيرود تمكن من الفرار إلى روما، وأقنع الرومان بأنه اليهودى القادر على الحفاظ على تبعية البلد لروما، ومن ثم عينه الرومان ملكاً على اليهود، وعاد إلى فلسطين عام ٣٩ ق م، وفتح الجليل بمساعدة مارك أنطونيو وحاصر أورشليم عام ٣٧ ق م، ودخل المدينة بعد أربعة أشهر، فى أعقاب مذبحة قتل فيها آلاف من اليهود فى الشوارع وفى المعبد الذى كانوا يحتمون به، وتم إعدام انتيجونس الحشمونى بناء على رغبة هيرود.

وقد اتسم عصر هيرود الطويل (٣٧ - ٤ ق م) بالرفاهية العامة والاستقرار، واستطاع استعادة الأراضى التى كان بومبى قد استولى عليها، ونظم الإدارة على النمط الهلينى، وكان هيرود من أنصار الرومان الذين كان يدين لهم بالفضل فى تنصيبه ملكاً على البلد، بل كان ضد القومية اليهودية، وكان لا يحظى بحب اليهود.

وجدير بالذكر أن الرومان قد تركوا لهيرود السيطرة الكاملة على أورشليم بعد أن ضمنوا ولاءه لهم، واستقرار الأمور تحت زعامته، حيث وقف اليهود الفريسيون إلى جانبه ضد اليهود الحشمونيين، وإن عمد هيرود إلى استمالة هذا الفريق الأخير بزواجه من بناتهم، الأمر الذى أضفى على حكمه لوناً من الشرعية، بل إنه قام بتعيين شقيق زوجته الحشمونية الأصغر - يوناثان - فى منصب كبير الكهنة، الأمر الذى أثار كوامن الحشمونيين وأجج مشاعرهم، مما جعل هيرود يدبر قتله على الفور خشية تزايد نفوذه.

ومع أن هيرود كان مخلصاً لليهودية - بأسلوبه الخاص - إلا أنه لم يعترض على وجود الأديان الأخرى فى فلسطين وما حولها، ولم يكن - على خلاف الحشمونيين - يتدخل فى الحياة الدينية لرعاياه، بل قام ببناء المعابد للآلهة اليونانية والرومانية فى المدن غير اليهودية داخل مملكته وخارجها.

ولما كان «الأمن» و«الحدود الآمنة» الشغل الشاغل لهيرود إبان فترة حكمه، فقد قام ببناء قلعة بدأ فى إنشائها عام ٣٥ ق م فى الموقع الذى كانت تشغله القلعة التى بناها النبى نحميا، فى أضعف نقطة دفاعية بالمدينة، إلى الشمال من المعبد ، وأطلق عليها اسم «أنطونيا» تكريماً لراعيه وحاميه **مارك أنطونيو**.

وقد شهدت أورشليم فى عهد هيرود تغيراً كبيراً فى طابعها، وذلك فى عام ٢٣ ق م، حيث بدأ هيرود فى بناء قصر له فى المدينة العليا على التل الغربى وكان محصناً بثلاثة أبراج، مازالت أسسها باقية حتى الآن. كما أعاد هيرود تخطيط طرقات المدينة العليا وكان بالمدينة مسرح وحلبة لسباق الخيل، حيث كانت دورات الألعاب تقام مرة كل خمس سنوات تكريماً لأغسطس، مما اجتذب حشود اللاعبين المتميزين إلى أورشليم التى أصبحت فى ظل حكم هيرود مدينة مهيبة متميزة، يقيم فيها بصفة دائمة نحو مائة وعشرون ألفاً، وأعاد بناء أسوارها وإن اختلف الباحثون حول مسار هذه الأسوار.

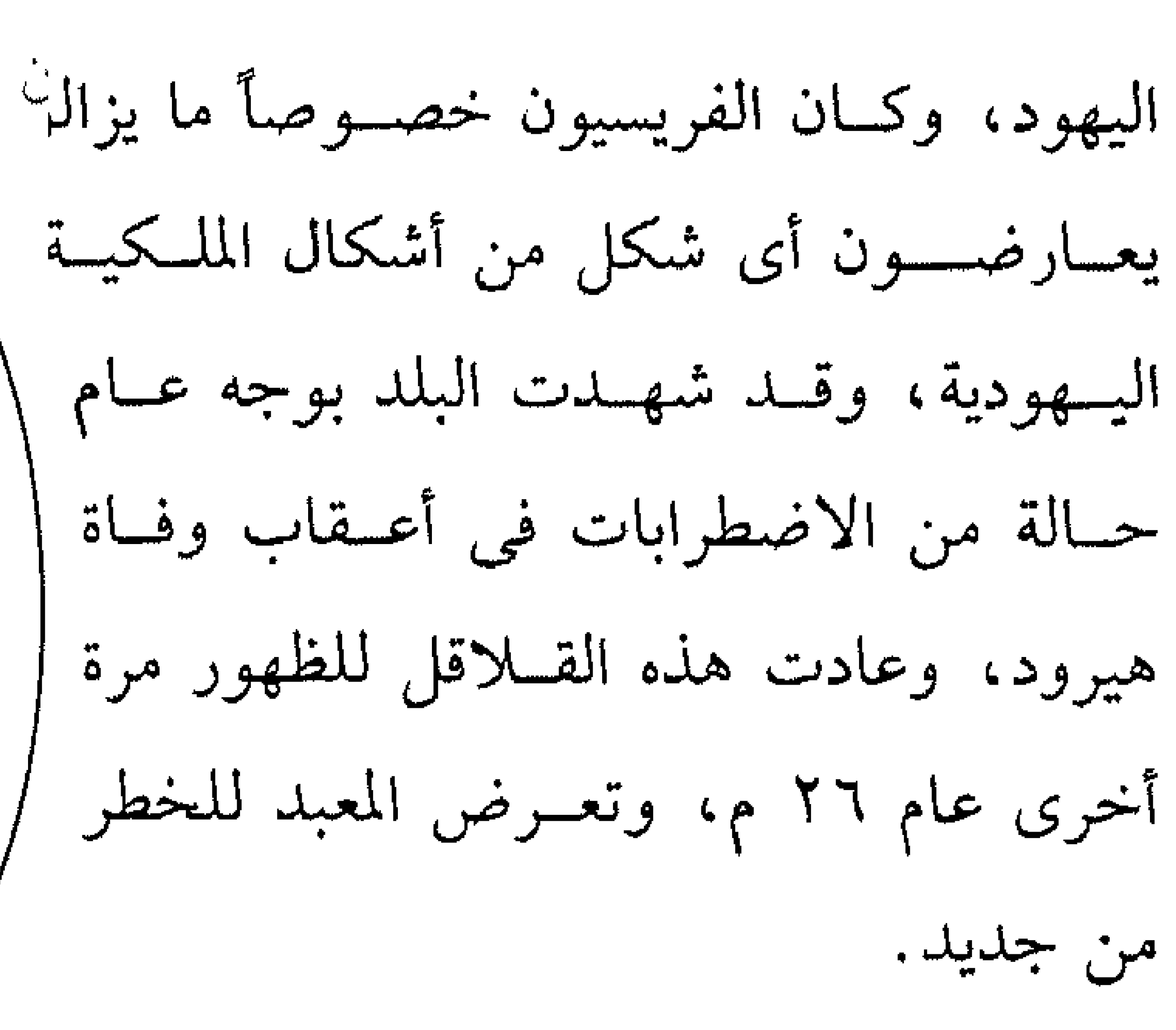
وفى عام ١٩ ق م تقريباً قرر هيرود إعادة بناء المعبد، واستمر العمل فيه قرابة ثمانية أعوام، ولم ينته العمل تماماً إلا قبل عام ٧٠م بقليل، ولم يكن هيرود يملك تغيير حجم أو شكل المكان المقدس، وإن كان قد زاده جمالاً حيث كسيت الجدران بالرخام الأبيض، وكانت أبواب الهيكل مغطاة بالذهب، وإن قام هيرود بتوسيع المنصة التى أقيم المعبد عليها، وتزايد عدد الحجاج فى عهد هيرود، وازدهرت أورشليم ازدهاراً لم تشهده من قبل، واستمر المعبد محوراً للحياة الروحية أثناء حكم هيرود، وإن كان البعض من اليهود غير راض عن سلوك هيرود الذى أدخل الكثير من المبانى اليونانية والرومانية التى كانت تزاول فيها الطقوس الوثنية.

وجدير بالذكر أن أحد حوائط هذا المعبد هو الذى يعرف الآن **بحائط المبكى**، وقد بنى أساسه من كتل حجرية كبيرة مستطيلة بلغت حوالى ١٩ سطراً ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ثمانية عشر متراً، بنى أسفله بكتل ضخمة مستطيلة إلى ارتفاع ستة أمتار، ويأتى فوق هذه الكتل ١٤ سطراً من حجارة صغيرة بنيت غالباً فى القرن الثانى عشر الميلادى، وبقايا هذا السور هى التى يعتقد اليهود المعاصرون أنها من بقايا سور المعبد السليمانى، لكن صخور السور وأحجاره تشير إلى غير ذلك.

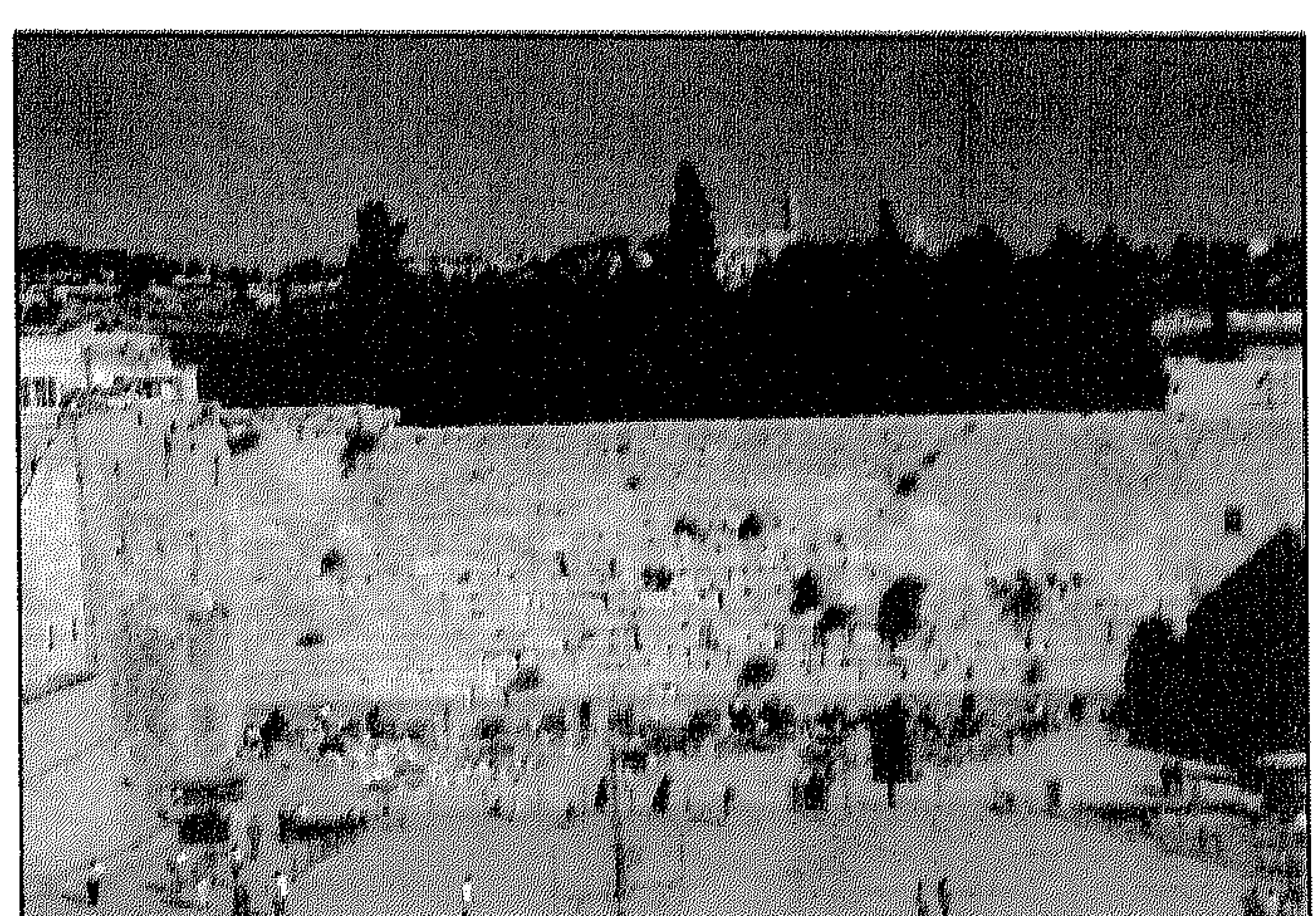
ولقد أقام هيرود تمثالاً ذهبياً لعقاب، هو رمز الإله جوبيتر ورمز إمبراطورية روما، فوق باب المعبد، تمت إزالته أثناء احتضار هيرود فى العام الرابع قبل الميلاد.

وكان هيرود قد قتل زوجته الحشمونية عام ٢٩ ق م كما قتل ثلاثة من أبنائه قبيل وفاته لاعتقاده بتآمرهم ضده. ولما مات هيرود ترك وصيتين وثلاثة أبناء، الأمر الذى وضع مصير مملكته فى يدى الإمبراطور الرومانى **أغسطس** الذى استدعى أبناء هيرود الثلاثة إلى روما، وانتهى الأمر بأن تولى الحكم من بعده ابنه أرخيلوس الذى حكم قرابة عشر سنوات انتهت عام ٦ ميلادية حيث عزله الرومان بعد أن عينوا حاكماً رومانياً مباشراً، واستمر الرومان يحكمون البلد، وبموافقة كثير من

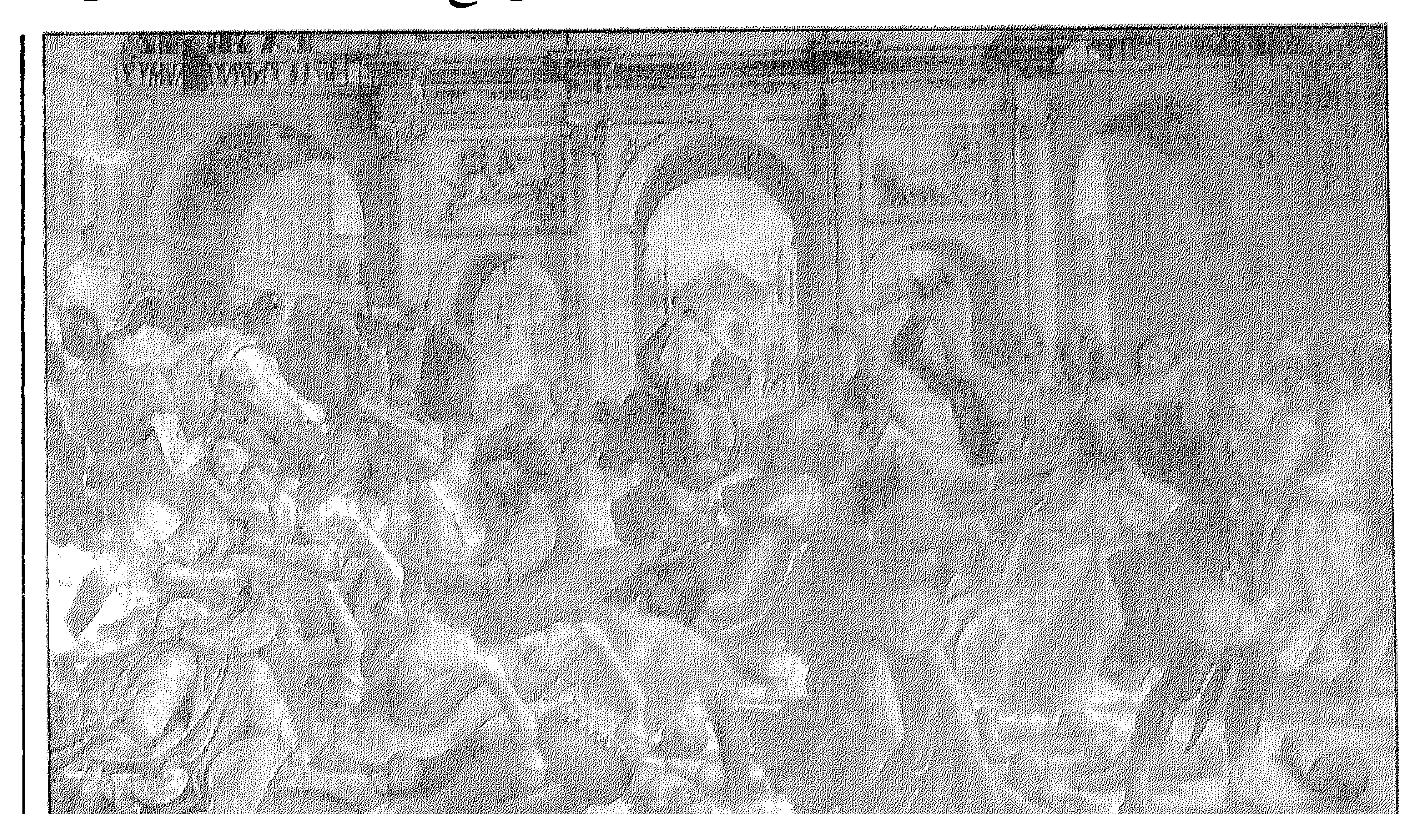


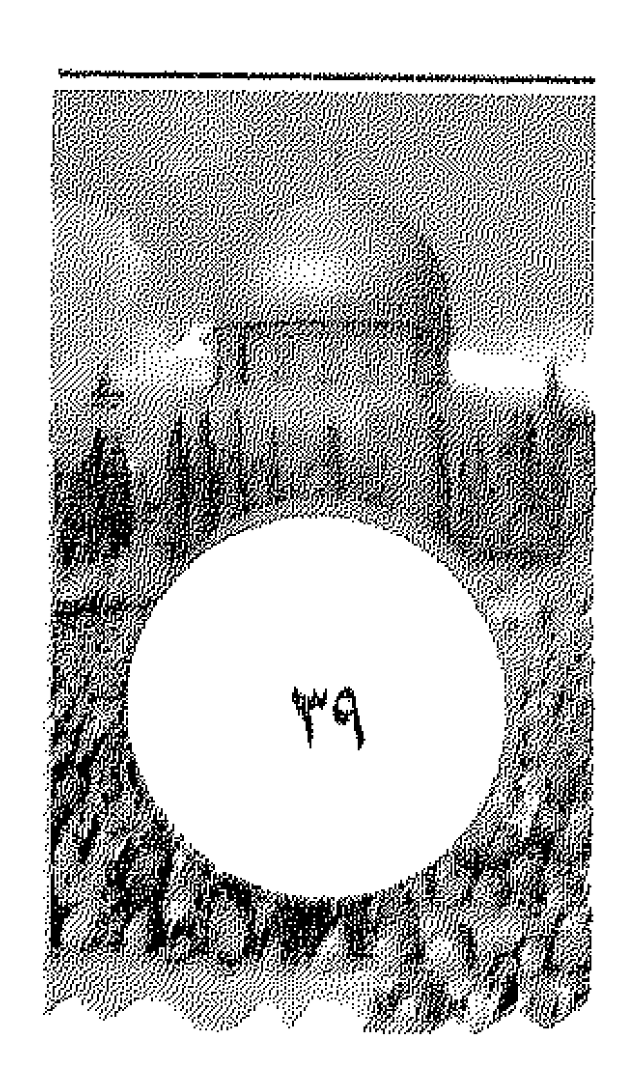

اليهود، وكان الفريسيون خصوصاً ما يزالون يعارضون أى شكل من أشكال الملكية اليهودية، وقد شهدت البلد بوجه عام حالة من الاضطرابات فى أعقاب وفاة هيرود، وعادت هذه القلاقل للظهور مرة أخرى عام ٢٦ م، وتعرض المعبد للخطر من جديد.


الإمبراطور الرومانى أغسطس


حائط البراق

تصور للمذبحة التى راح ضحيتها آلاف الأطفال على يد





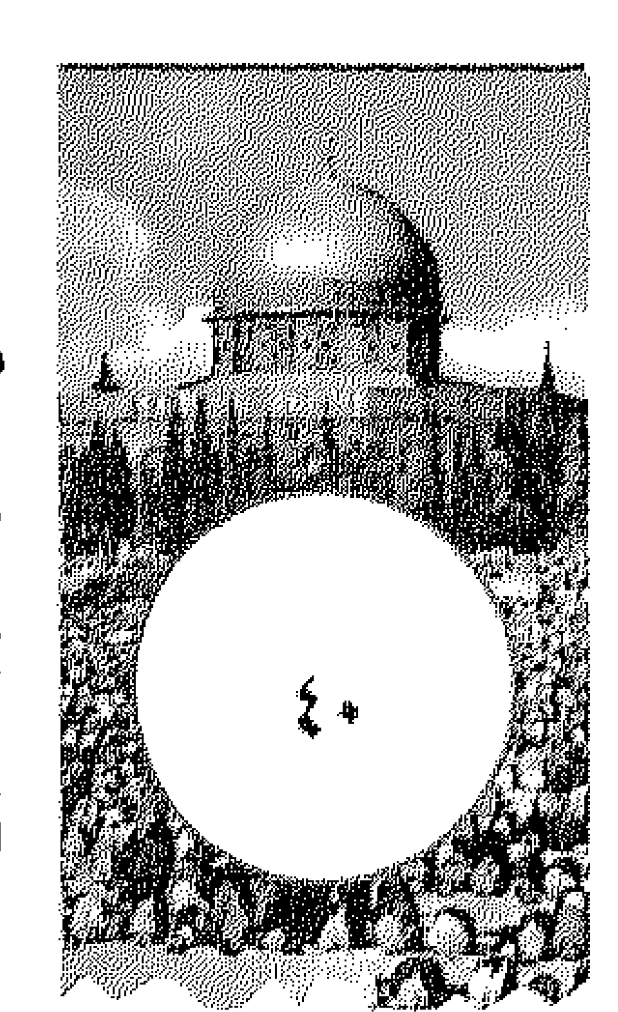
وظهـر **يسوع المسـيح**، ودخل أورشليم، وتنبـأ برفضـها له ونزول العـقاب الإلهى بها فى المسـتقبل القـريب حيث سـتـهدم وتسوى بالأرض، وقـد أعرب المسيح عن رفضه لما كان يفعله اليهود فى الهيكل من أمور تمس قداسته وطهارته (انظر إنجيل مـرقس ١١/ ١٥ - ١٨) وكـان ذلك فى عهـد الحـاكم الرومـانى بيلاطس (٢٦ - ٣٦م)، الذى وقعت فى عهده المحـاولة اليهودية لصلب المسيح عليه السلام.



المغارة التى ولد بها السيد المسيح فى كنيسة المهد

وعند نهاية عهد بيـلاطس عاد الحكم مرة ثانية إلى أسرة هيرود، حيث تم تعـيين هيرود أجريبا الحفيد البكر لهيـرود وزوجته الحشمونية ملكاً على البلاد، وقـام ببناء سور جديد لأورشليم يعرف بالسور الثالث فى الشمال لحماية الضاحية الشمالية.

ومع موت هيرود أجريبا عاد الحكم من جديد ونهـائياً إلى الرومان الذين اعتبروا فلسطين كلها إقليمـاً رسميـاً لهم، وانطفأت آخر شـمعة للسـيادة اليهـودية الصورية التى كانت أسـرة هيرود - اليهـودية نفاقـاً - تمارسهـا، وإن كانت السيـادة اليهـودية الاسميـة قد انتـهت بالفعل مع سـقوط انتيجونس، آخر مكابى حكم أورشليم عـام ٤٠ ق م، هذا مع أن الدويلة اليهودية التى قامت بعد مجيء اليهود من بابل، إنما قامت كتابعة للدول الأخرى سواء الفرس أو اليونانيين الهلينيين.



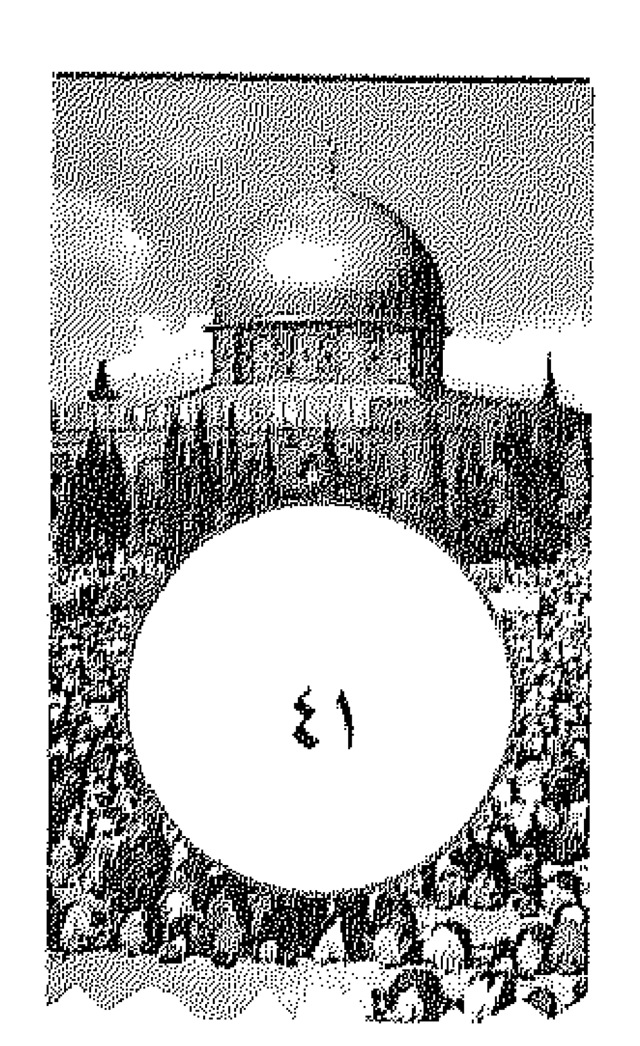
ومما لا شك فيه أن لعصر هيرود مكانة فى التاريخ الأثرى الأورشليمى، إذ مازالت أطلال منشآته باقية حتى الآن، ولم يبق من عمارة المعبد السليمانى شىء على الإطلاق، والذى بقى فى أورشليم حتى اليوم هو **الدكة التى أقيمت عليها قبة الصخرة**، وتقع المدينة فى غربها، وتسيطر دكة معبد هيرود على الجزء الجنوبى الشرقى للمدينة القديمة الحالية.

وفى عام ٦٤م، حينما جاء جيسيوس فلورس إلى البلاد كحاكم، حدث نزاع شديد، إذ تميز حكمه بالمذابح، واندلعت الحرب بين اليهود والرومان عام ٦٦م واستمرت خمس سنوات، أصبح خلالها **فسباسيان إمبراطوراً**، وجاء إلى فلسطين عام ٦٧م ومعه ابنه تيتوس وجيش بلغ تعداده ستين ألف رجل، وغزا **الجليل**، وأخضع يهودا، وعزل أورشليم عن فلسطين.

وفى عام ٧٠م اتجه تيتس إلى أورشليم، حيث أحاطت قواته بالمدينة من كل جهة، واستطاعت دخول المعبد بعد سبعة عشر يوماً، وأشعلت النار فى قدس الأقداس، وأضرمت النار فى المدينة كلها، وأمر تيتس بإبادة المدينة وتدميرها باستثناء ثلاثة أبراج من أبراجها وكذلك السور الغربى وذلك لحماية بعض القوات.

وقد عاد تيتس إلى روما، وقام هو وأبوه فسباسيان بعرض **كنوز المعبد المنهوبة** فى موكب كبير، سار فيه أسرى اليهود الذين جىء بهم من أورشليم، وأقام قوساً **للنصر سمى قوس النصر لتيتس**، بنى فى ساحة روما، ونقش عليه الكثير من المناظر.

وفى سنة ٧٣م كانت كل أنواع المقاومة اليهودية للرومان قد انتهت وأطلق الرومان اسم «يهودية» على كل فلسطين باعتبار إطلاق الجزء على الكل، وأصبح يديرها قائد الفيلق الرومانى السادس، إلا أن محاولات الشعب اليهودية قد استمرت، وفى عام ١٣٢ قام باركوخبا ومعه بعض اليهود بمحاولة لتحرير أورشليم من الرومان، واشتعلت كل أرض التلال بالثورة، ونجح المتمردون فى الاستيلاء على بعض معاقل الرومان، بل واستردوا أورشليم لبعض الوقت، واستقل اليهود لثلاثة أعوام اتخذوا خلالها أورشليم عاصمة ومركزاً دينياً لهم، إلا أن **هادريان** تمكن عام ١٣٥م من إخماد هذه الثورة فى التاسع من آب (أغسطس) وهو نفس التاريخ الذى هدم فيه المعبد فى المرة الأولى والثانية، وتم القبض على باركوخبا وقتل، وتم القضاء على اليهود تماماً، وهدم هادريان المدينة وبنى فوقها مدينة إيليا كابيتولينا، وصدر الاسم هو لقب عائلة **هادريان**، وعجزه هو الإله الرومانى الرئيس «كابتولين جوبيتر»، كما أقام هادريان هيكلاً وثنياً للإله **جوبيتر** على نفس مكان الهيكل اليهودى القديم.



وقد دفعت السلوكيات اليهودية الحاكم الرومانى هادريان كى يقرر محق القومية اليهودية العنيدة حيث أصدر مرسوماً يمنع بمقتضاه قراءة التوراة واحترام السبت وسنة الختان. ويبدو أن هادريان لم يصل إلى هذا الحل إلا بعد أن فشل فى استرضاء اليهود، فالمؤرخ اليهودى هيامسون يذكر أن هادريان كان قد سمح لليهود بإعادة بناء الهيكل، وإعادة بناء أورشليم كمدينة وثنية، إلا أنه غير سياسته تجاه اليهود، وكان القضاء عليهم وعلى أورشليم على النحو الذى صورته لنا كتابات المؤرخين.

وما دمنا نسجل معالم اللحظات الأخيرة من عمر أورشليم، تجدر الإشارة هنا بإيجاز عن **حقيقة السور الغربى الذى يدعى حائط المبكى** ومازال قائماً حتى الآن، وقد سبق وأن ذكرنا أنه يعود إلى الفترة التالية لعصر هيرود أجريبا.

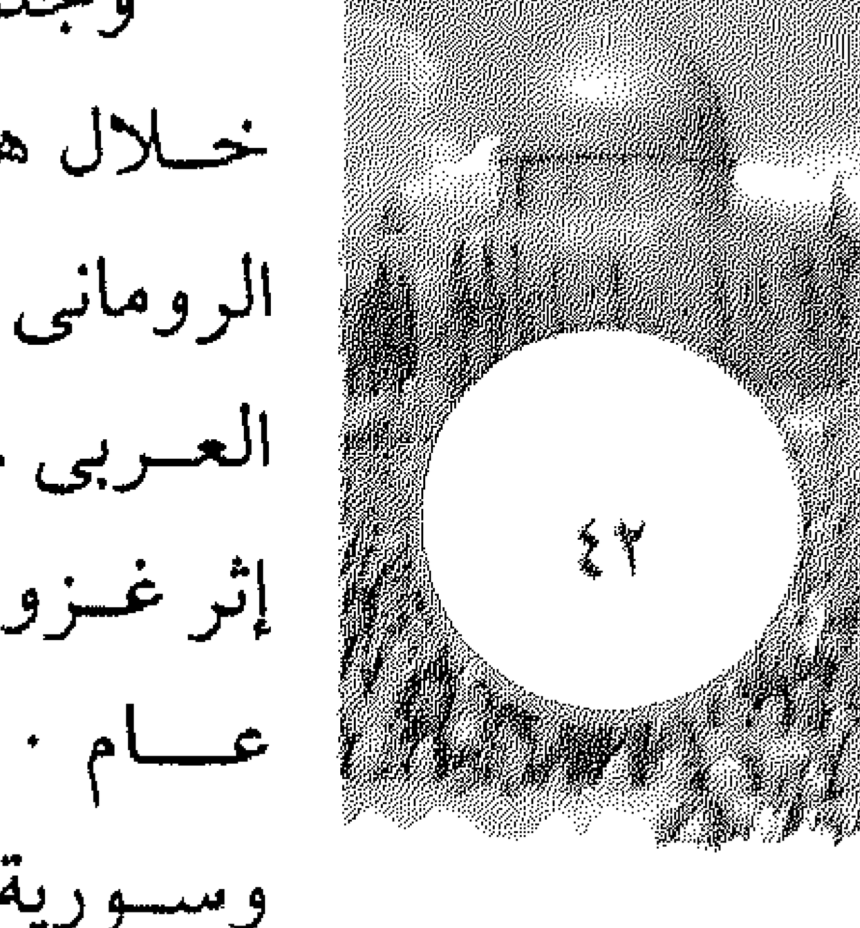
لقد اعتقد البعض أن هذا السور من عمل **هيرود أجريبا** كأحد الاستحكامات التى أقامها اليهود فى الثورة الأولى عام ٦٦ - ٧٠م أو الثانية عام ١٣٠ - ١٣٥م، وبعد أن تم الكشف حديثاً عن أجزاء كثيرة من هذا السور، وما عثر عليه من فخار، لم يثبت تأريخه بالقرن الثانى بعد الميلاد.

ومن الثابت تاريخياً أن اليهود فى ثورتهم الأولى ضد الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم، وأن مثل هذا العمل المتمثل فى بناء سور عرضه ٤٥٠ متراً من كتل كبيرة من الحجر، وطوله ٣٧٥ متراً، أو أكثر من ذلك، لا يمكن أن يتم فى عهد أصحابه على هذا الحال من الانقسام والتنافر، كما كان هذا العمل صعباً على اليهود فى فترة الثورة الثانية لأنهم كانوا أضعف مما كان عليه الثائرون اليهود فى الثورة الأولى.

لم يبق أمامنا إلا احتمال أن هذا السور من عمل الرومان المهاجمين، وأنه كان يمثل جزءاً من محيط مركز إدارة الفرقة العاشرة التى أناط بها تيتس مراقبة أورشليم بعد الاستيلاء عليها، ويؤكد ذلك احتمال أن تكون هذه الكتل الحجرية المنحوتة بهذا الحجم الكبير والموجودة بالسور إنما توافرت بعد أن هدمت أورشليم.

ويحتمل أن يكون السور جزءاً من الاستحكامات التى أقامها تيتس - كما ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس - حول أورشليم ليحاصر سكان المدينة.

على أية حال، لقد استمر الحكم الرومانى المباشر لفلسطين التى ضم إليها كذلك شرقى الأردن وجلعاد وموآب، ولم يبق من المظاهر اليهودية فى فلسطين إلا المدارس الدينية التى تأسست فى المدن الأخرى من يهودا دون القدس، وقد استقرت هذه المدارس بعد مطاردات ومشاغبات فى طبرية، وكانت أولى هذه المدارس قد تأسست فى الخليل عام ١٣٥ م.



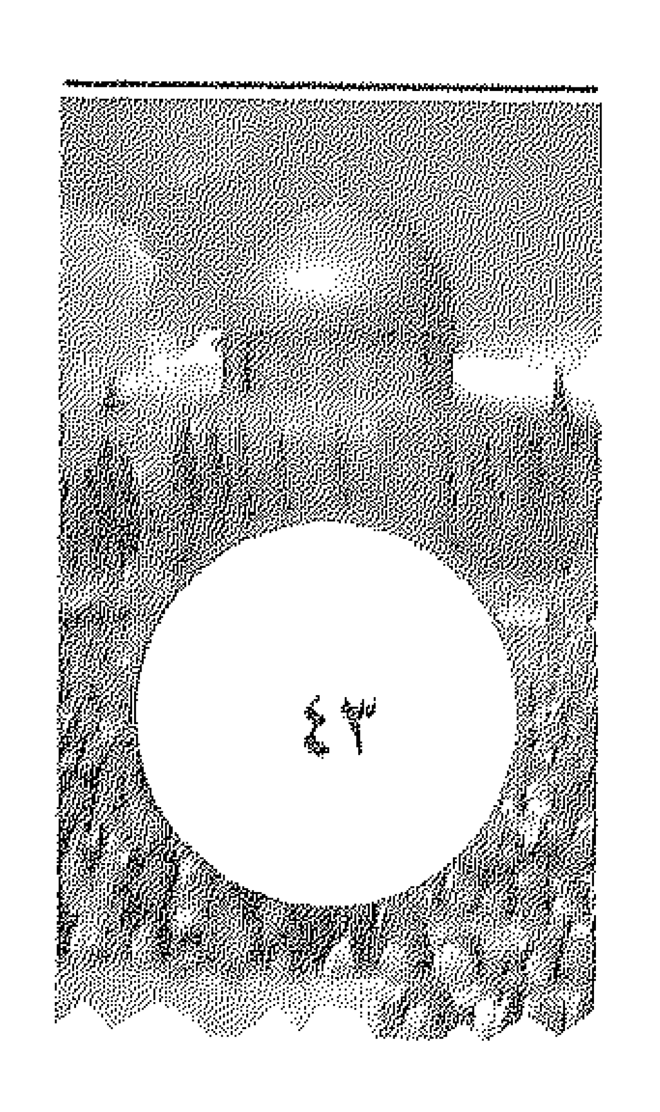
وجدير بالذكر، أن فلسطين خلال هذه الفترة من الحكم الرومانى قد عادت إلى الحكم العربى لمدة ثلاث سنوات على إثر غزو الملكة العربية **زنوبيا** عام ٢٧٠م سائر فلسطين وسورية ومصر، وقد تمكن الإمبراطور الرومانى **أورليان** من قتال التدمريين وهزيمتهم واسترداد فلسطين وسورية ومصر من أيديهم بعد ثلاث سنوات من الحكم العربى.

كنوز المعبد اليهودى المنهوبة فى عهد تيتوس

أورشليم النصرانية
٣٠٦ - ٦٣٩م

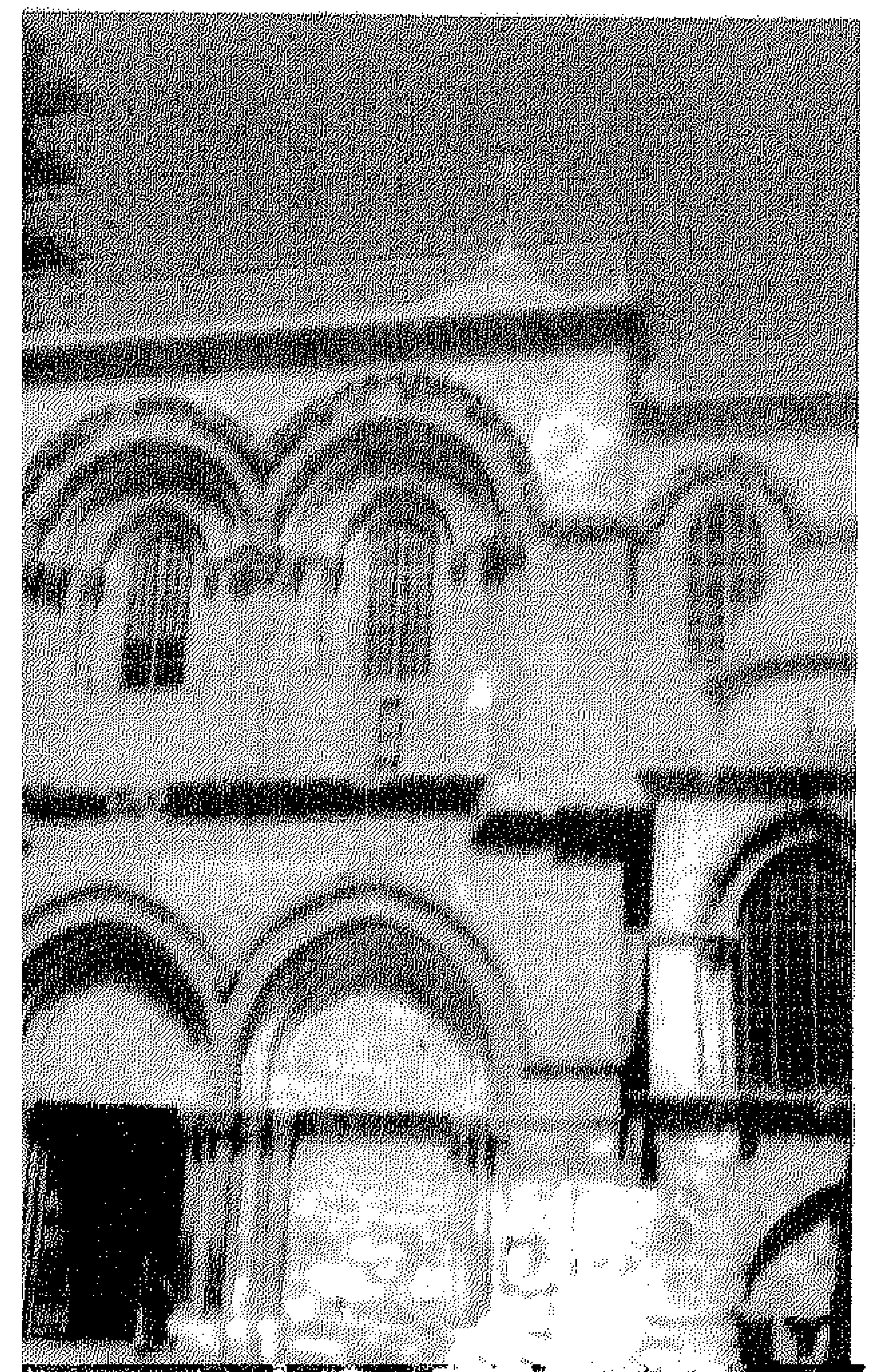
أصبح قسطنطين إمبراطوراً فى الغرب بعد انتصاره فى موقعة جسر ميلفيان، ثم انتصاره عام ٣٢٣م على لوكينيوس، إمبراطور المقاطعات الشرقية، الأمر الذى جعله الحاكم الأوحد للعالم الرومانى، وقد وقع تطور مثير فى غير صالح اليهود حين اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١١م، حيث ازداد الاضطهاد المسيحى لليهود، وأعاد قسطنطين أحكام هادريان الخاصة بمنع اليهود من الإقامة فى القدس، والتى كان أوريليوس قد خففها، وتساهل الحكام فى تنفيذها قبل قسطنطين.

خريطة (٩)
أورشليم البيزنطية ٣٢٦ - ٦٨٣م

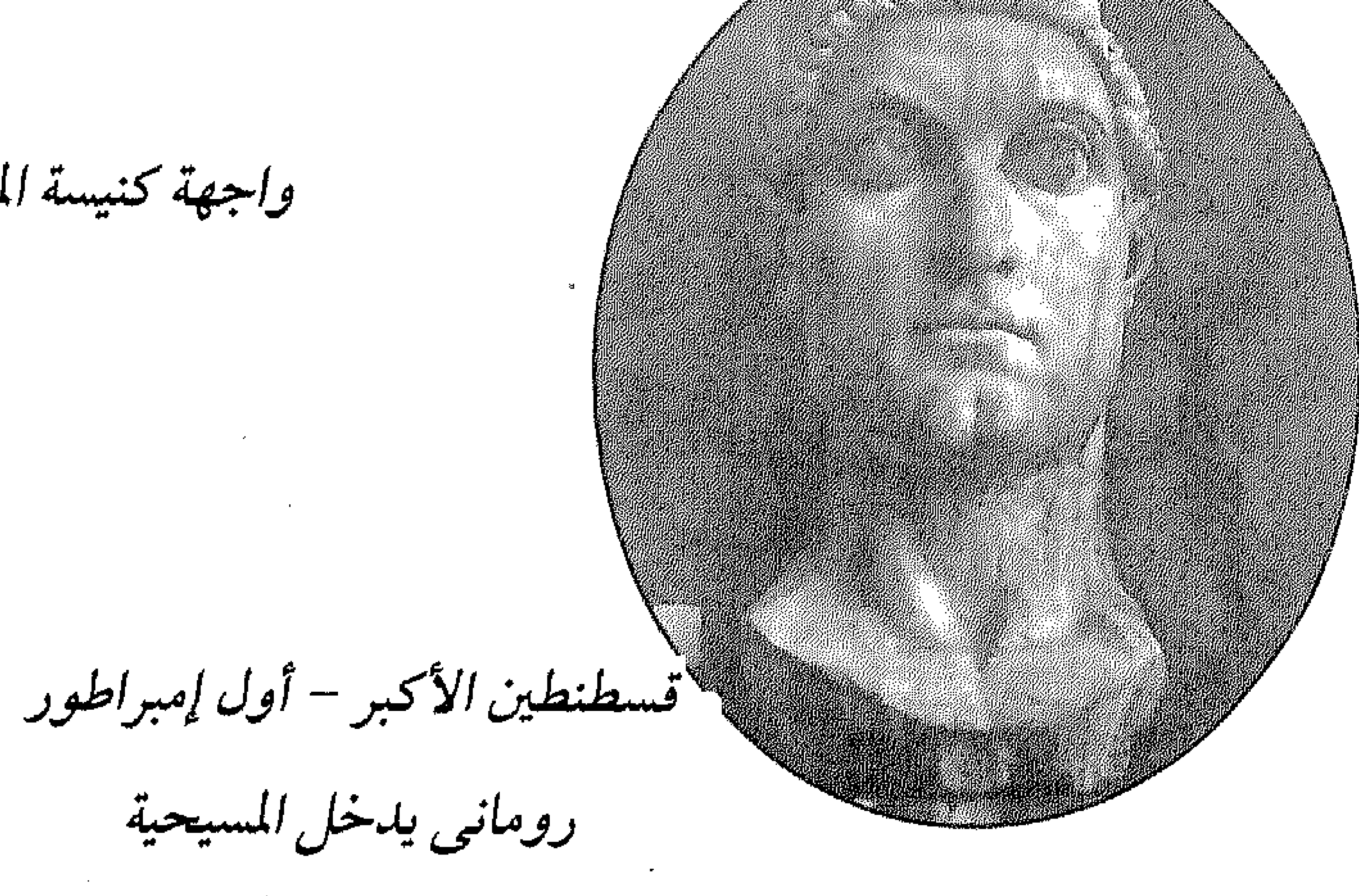




آثار كنيسة
بيزنطية

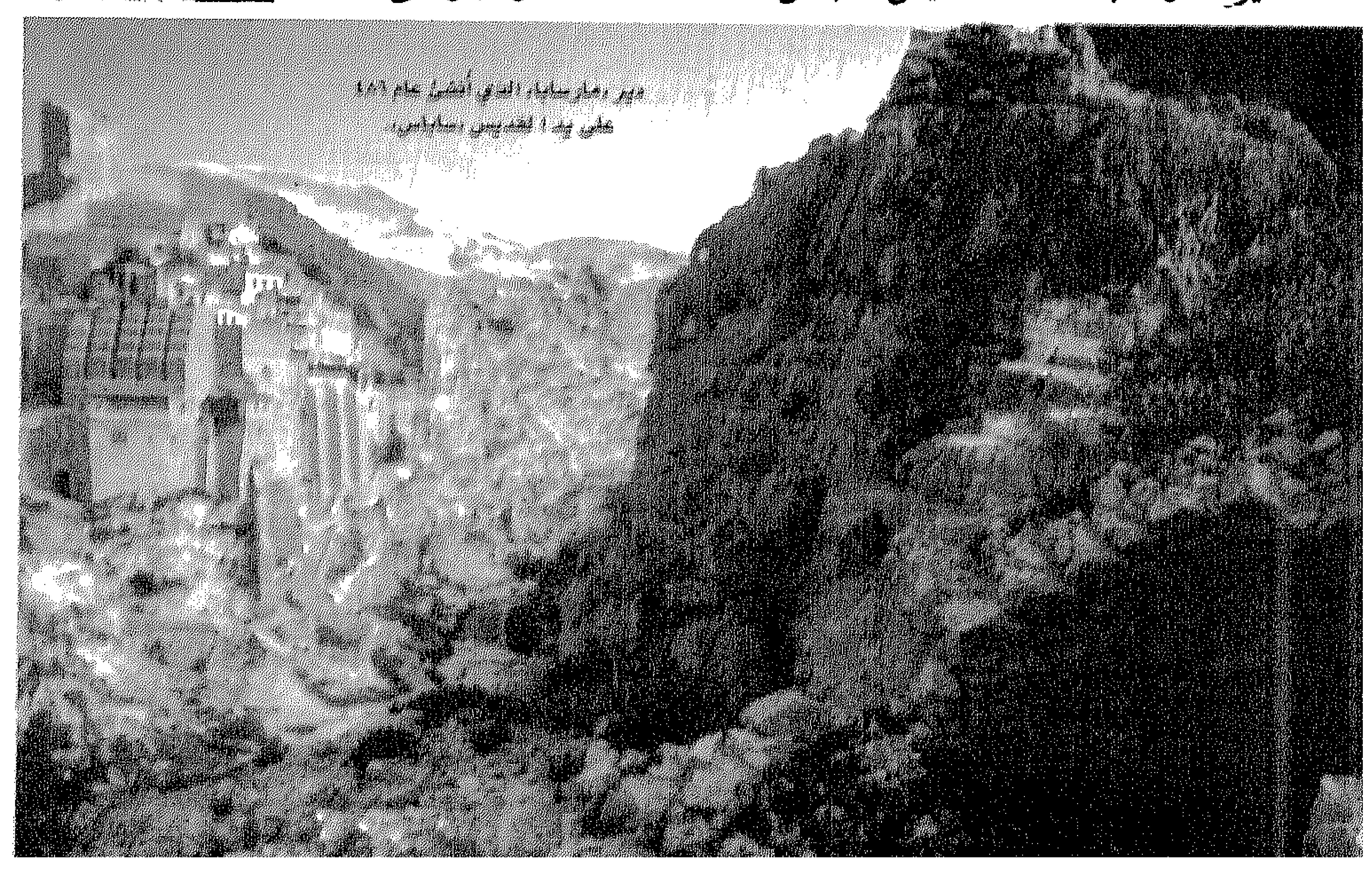


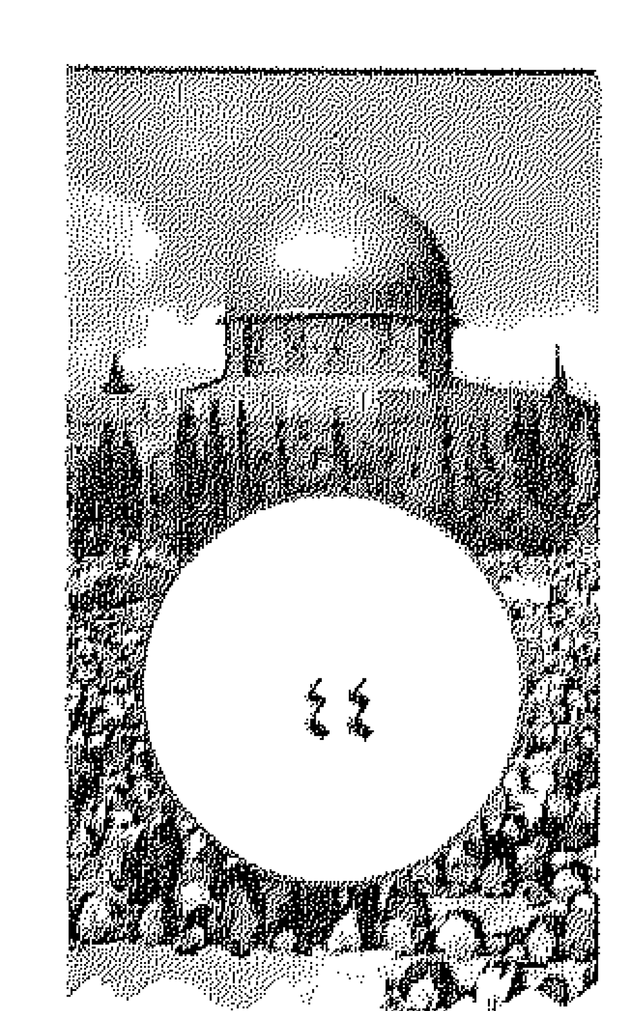
واجهة كنيسة المهد



قسطنطين الأكبر - أول إمبراطور
رومانى يدخل المسيحية

دير (مار سابا) أنشأه القديس ساباس سنة ٤٨٦ - العصر البيزنطى





واستمر أخوه قسطنطيوس من بعده فى تنفيذ سياسته ضد اليهود الذين اعتبرهم قتلة المسيح عليه السلام، وأصبحت أورشليم مقدسة عند النصارى، واتخذوا الحج إليها عادة - كما كان يفعل اليهود - إذ حج إليها المسيح عليها السلام منذ صباه فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى (لوقا ٢/ ٤٢-٥٠).

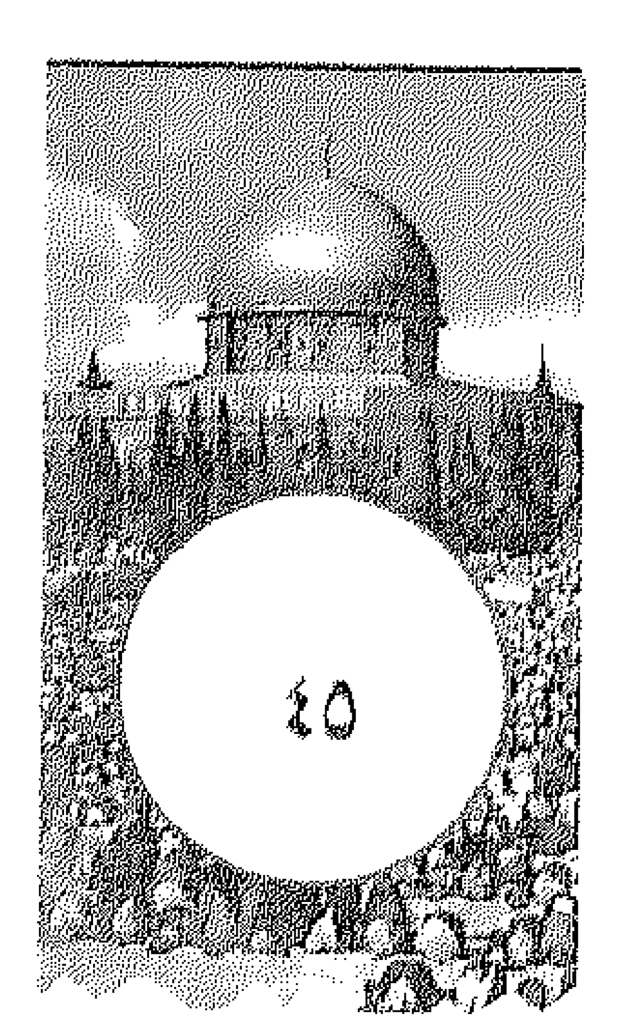
كما اهتمت هيلانة - أم قسطنطين - بدور العبادة النصرانية، وزارت أورشليم عام ٣٢٦م ومعها المال اللازم حيث شيدت كنيسة القيامة، وكانت الديانة النصرانية قد أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية عام ٣١٣ م بعد اعتناق هيلانة للنصرانية.

لكن الإمبراطور جوليان الذى تولى العرش عام ٣٦١م، ارتد عن المسيحية، وألغى جميع الأحكام ضد اليهود، وأرسل إلى جميع الجاليات اليهودية فى مملكته يؤكد فيها عزمه على إعادة بناء الهيكل، بعد أن خصص الأموال اللازمة لذلك وجمع مواد البناء الضرورية للعمل، وجند العدد اللازم من العمال، وكان يقصد من ذلك إبطال النبوة. وقد تعطل هذا المشروع نتيجة وقوع الحرائق والانفجارات التى تم تأويلها على أنها حكم سماوى ضد محاولة إبطال نبوة المسيح.

وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥م وقعت فلسطين فى حصة الإمبراطورية الشرقية : بيزنطة، ولم يكن للبلاد تاريخ خارجى خلال القرنين التاليين وكانت هذه السنوات تمثل حقبة من السلام والأمن فى فلسطين، واصل خلالها الحجاج - اليهود والنصارى - زياراتهم للأماكن المقدسة فيها.

وقد كثرت الكنائس فى أورشليم خلال هذه الفترة، وبخاصة أيام الإمبراطورة أيودكسا (٤٤١ - ٤٦٠م)، واتسعت رقعة أورشليم فى العهد البيزنطى إلى الجنوب من وراء حدود إيليا، وقامت أيودكسا ببناء سور جديد حول المنطقة التى أضيفت إلى المدينة، ويحتمل أن يكون هذا السور قد سار بحذاء السور الجنوبى لهيرود أجريبا.

لقد كانت أورشليم الجديدة مصدر حزن لليهود، وربما حاولت مجموعة منهم وقف إقامة الأبنية النصرانية فى الأرض المقدسة، وبدا لهم من غير المعقول أن تحظى النصرانية - وهى فى رأيهم صورة غير مشروعة من اليهودية - بتأييد الإمبراطورية آنذاك، وأصبح من العسير أن تتم إعادة بناء الهيكل اليهودى، ولا إعادة أورشليم لليهود فى ظل الواقع النصرانى الجديد، بل لقد استولى النصارى على كتب اليهود المقدسة، ونسبوها إلى أنفسهم، وأطلقوا على أنفسهم اسم إسرائيل الجديدة.



وفى عام ٦١١م تعرض أمن فلسطين للخطر مرة أخرى حين أغار الفرس عليها بقيادة خسرو الثانى حيث حارب الإمبراطور فوكاس الذى كان قد اغتصب الإمبراطورية من موريس (صديق خسرو الذى زوج الإمبراطور الفارسى إحدى بناته)، واعتقد اليهود أن خسرو قد جاء من أجل خلاصهم ومن ثم ناصروا الفرس الغزاة، وانضم إليهم بعض الفرق النصرانية - كالنسطورية واليعاقبة - الحاقدة على النظام الجديد فى روما، وحمل اليهود السلاح إلى جوار الغزاة، وانتقموا شر انتقام من نصارى فلسطين.

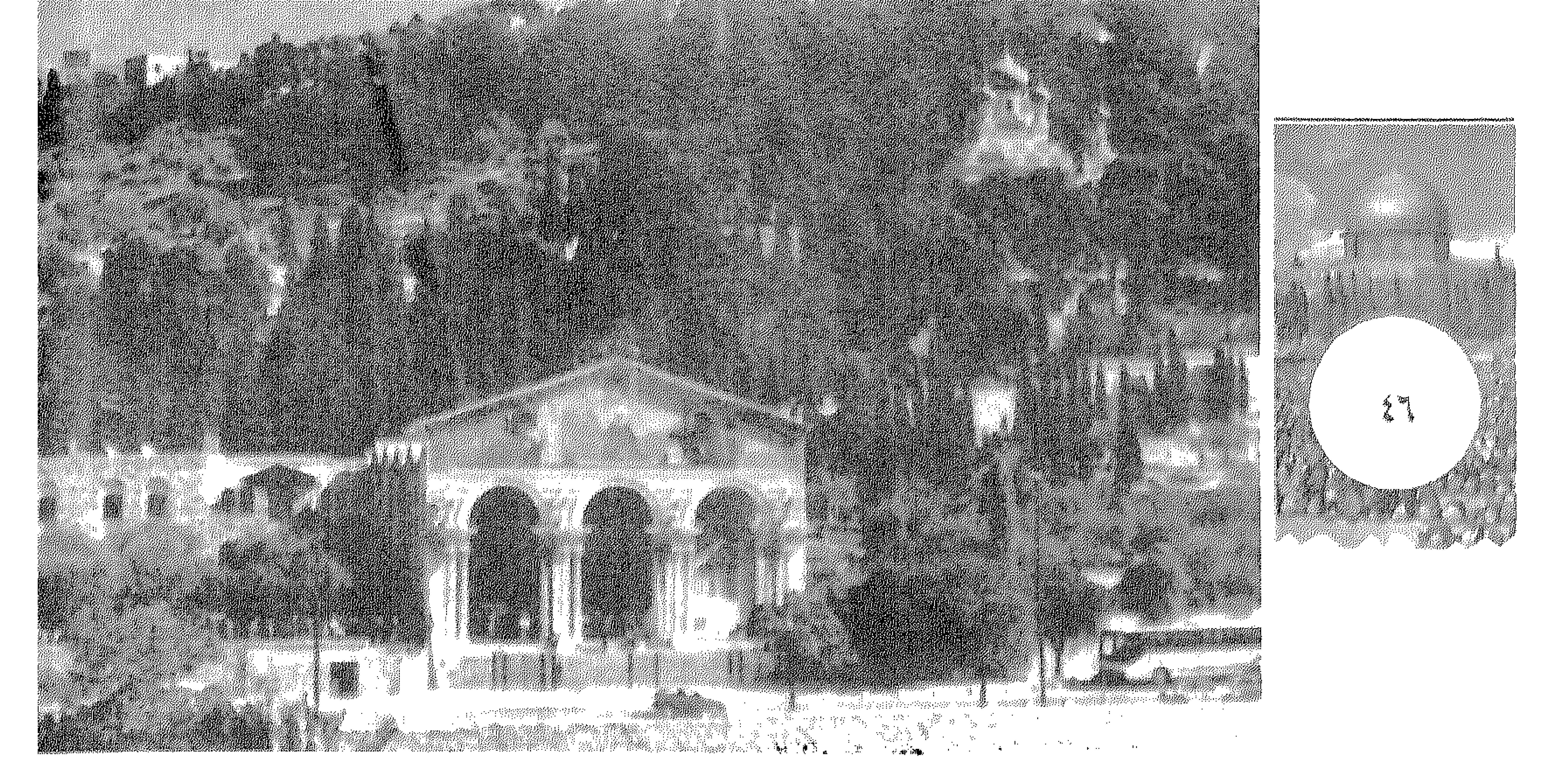
وقد دمر الفرس كنيسة القيامة ونهبوا جميع كنوزها وحطموا كنائس أخرى، واشترك اليهود مع الفرس فى قتل جميع نصارى القدس وتدمير أماكنهم الدينية، على نحو ما يذكر المؤرخ اليهودى هايمسون، وقد رممت الكنيسة بعد ذلك فى عام ٦٢٩م، وبقيت سالمة عند الفتح الإسلامى للمدينة.

أما اليهود فى ظل الفرس، فقد نشب الخلاف فيما بينهم، إذ كان اليهود يحلمون بإقامة مملكتهم، ناهيك عما فرضه الفرس عليهم من ضرائب، الأمر الذى جعل اليهود يميلون مرة أخرى إلى البيزنطيين حين قدم إليهم هرقل وعدًا بالتسامح معهم عام ٦٢٧م، ثم وعداً آخر بالعفو عام ٦٢٨م، لكن **هرقل** لم يف بوعده تحت ضغط رجال الدين، ووقعت مذبحة لليهود، فر الناجون بعدها إلى مصر، وإلى مناطق أخرى فى فلسطين.

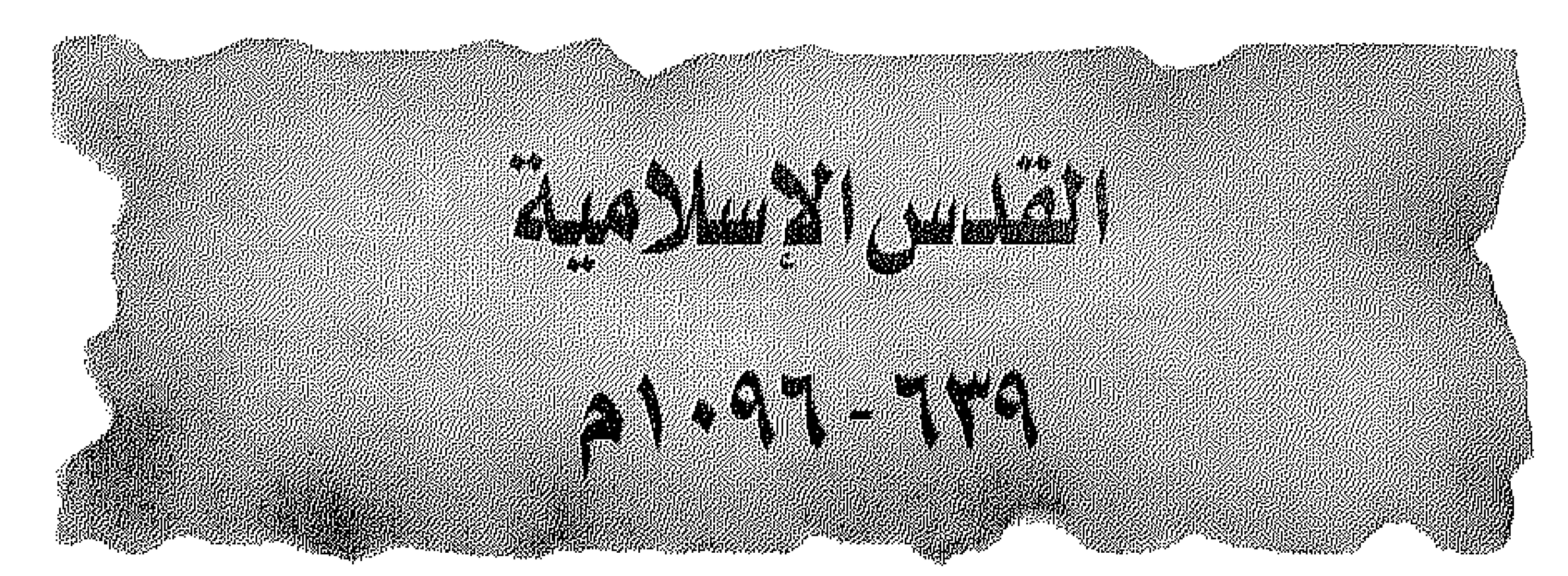
وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أهم الكنائس النصرانية التى أقيمت فى تلك الفترة، إذ بنى قسطنطين - وربما أمه - كنيسة **إيليونا على جبل الزيتون**، فى المكان الذى كان به الكهف الذى أماط فيه السيد المسيح اللثام عن كثير من المعجزات لحوارييه، وتقع هذه الكنيسة على بعد قريب إلى الجنوب من كنيسة الصعود التى يعتقد النصارى أنها فى المكان الذى صعد منه المسيح، وقد بنيت هذه الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى بعد وفاة الإمبراطورة هيلانة بخمسين سنة.

كما أقامت الإمبراطورة أيودكسا فى أورشليم كنيسة سان استيفن، بالإضافة إلى العديد من الكنائس التى أقيمت فى القرن السادس وأهمها : كنيسة سان مارى نوفا بالقرب من حائط البراق (المبكى)، وقد بناها الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م).

وقد تم اكتشاف خريطة مصورة لأورشليم بالفسيفساء ضمن خريطة لأجزاء كبيرة من فلسطين، ثم عملها عام ١٨٨٤م اعتماداً على خريطة رومانية اعتمدت بدورها على خريطة لأسقف قيسارية يوزيبوس (القرن الثالث والقرن الرابع بعد الميلاد) تعكس لنا ما كانت عليه أورشليم فى العصر البيزنطى من انتشار للنصرانية فى أرجائها من خلال الكنائس والأديرة العديدة.



الكنيسة الجثمانية ومجموعة كنائس على جبل الزيتون



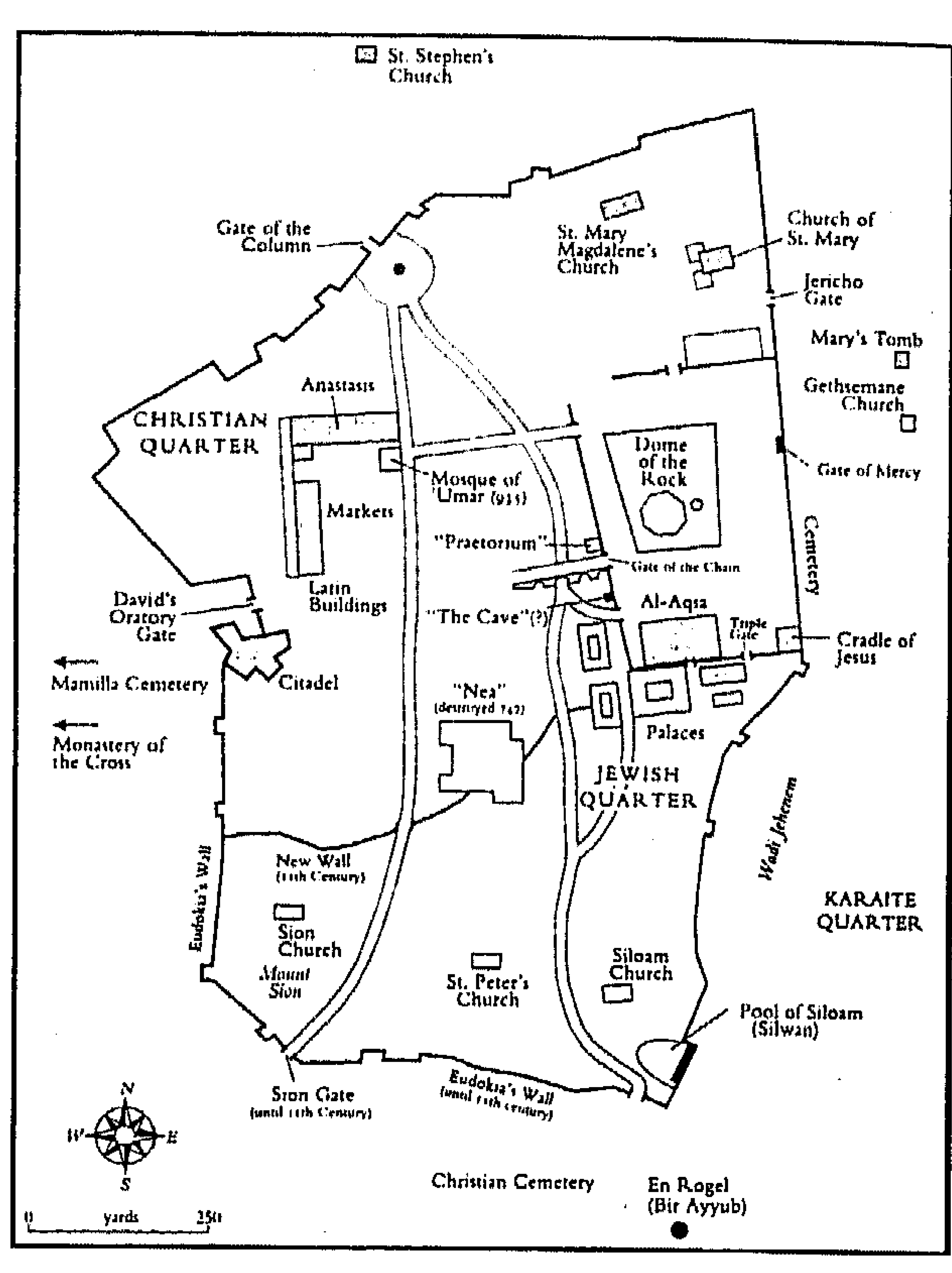
القدس الإسلامية
٦٣٩-١٠٩٦م

بعد أن استولى هرقل على الحكم فى القسطنطينية، كافح كفاحاً مريراً حتى تمكن من هزيمة الفرس واسترد صليب المسيح الذى كان قد وقع غنيمة فى يد جيوش كسرى، وأودع فى كنيسة «صوفيا» بالقسطنطينية، كما أطلق سراح «زكريا» بطريق بيت المقدس.

آيا صوفيا - إستانبول



وفى العام التالى - ٦٢٩م - سـار هرقل إلى أورشـليم لأجل الحج، والتقى فى طبريـة بوفد من اليـهـود مـحـملين بالهدايا استرضاءً له خشية معاقـبتهم من قبله على تعاونهم مع الفرس، ونجحوا - قبل وصوله إلى أورشليم - فى الحصول عـلى عهد منه بعـدم الانتقـام منهم، إلا أنه بعـد أن وصل إلى المدينة تلقـاه أهلها برواياتهم عمـا فعله الفـرس واليهـود بهم، وما أوقعوه من مـذابح بين نصارى المدينة، فكان انتقـام هرقل وأتباعه من اليـهود فى كل مكان خاضع لحكم النصارى، وقد ذكـر المقريزى أن مصارع اليـهود عـمت «حـتى لم يبق منهم أحـد فى دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب واختفى»، وكان ذلك عـام ٦٣٠م، وقد أصدر هرقل مرسوماً بألا يقـترب يهودى من القدس إلى مسافة ثلاثة أميال من أسوارها.

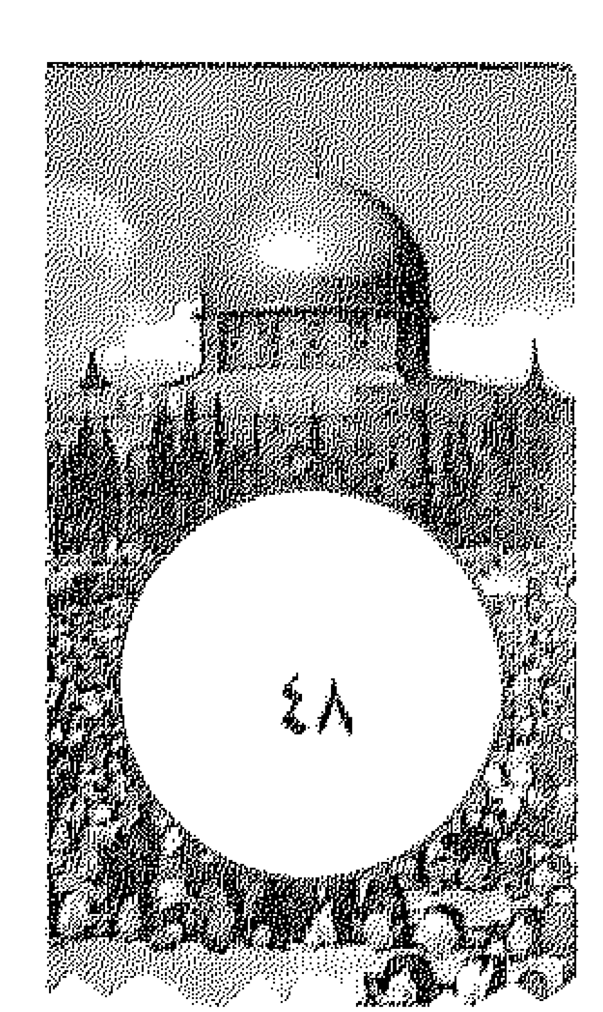


خريطة (١٠)
القدس الإسلامية ٦٣٨ - ١٠٩٩م

وكان المسلمون فى تلك الفترة قد بدأوا فى فـتوحاتهم بالشام، وتمكنوا من هزيمة حاكم جنوبى فلسطين سرجـيوس عام ٦٣٤م، وأقامـوا معسكراتهم الدفـاعية فى هذه المناطق، كمـا تمكنوا عام ٦٣٥م من هزيمة ثيودور - شقيق هرقل - فى وادى السنت، وغزوا دمشق فى السنة ذاتها.

وكان خـالد بن الوليـد قائداً لقـوات المسلمين آنذاك، وكـانت عمليـاته العسكرية تهـدف إلى انسحاب الروم من «درعا» لحماية مؤخرتهم، وهو ما لم يتـحقق، فقام خالد باحتلال مدينة بصرى وهى إحدى المدن الإغريقية العشر التى بناها الإسكندر الأكبر المقدونى قبل عشرة قرون.

فى الوقت نفسه، كان عمرو بن العاص يواصل غـزو سهول فلسطين الجنوبية من القاعدة التى أقامهـا لنفسه فى وادى عربة، بينمـا كان هرقل يقيم فى حـمص ويعد جيشه للتـحرك إلى جنوب فلسطين.



وربما كان هرقل واثقاً من صمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب، وإلا لما غامر بإرسال جيش إلى ذلك المكان النائى عن طريق طبرية، فالناصرة، فقيسارية، لمقاتلة عمرو بن العاص فى منطقة بير سبع، ثم قطع مواصلات المسلمين مع الحجاز باحتلال العقبة، ومن ثم يجبر المسلمين على التراجع من منطقة اليرموك.

وبحركة انسحاب خاطفة من هذا الموقع، وبزحف سريع، استطاع خالد بن الوليد أن يدرك الجيش البيزنطى، والتقى الجيشان عام ٦٣٤م بين الرملة وبيت جبرين، عند أجنادين، وكانت هزيمة الروم ساحقة.

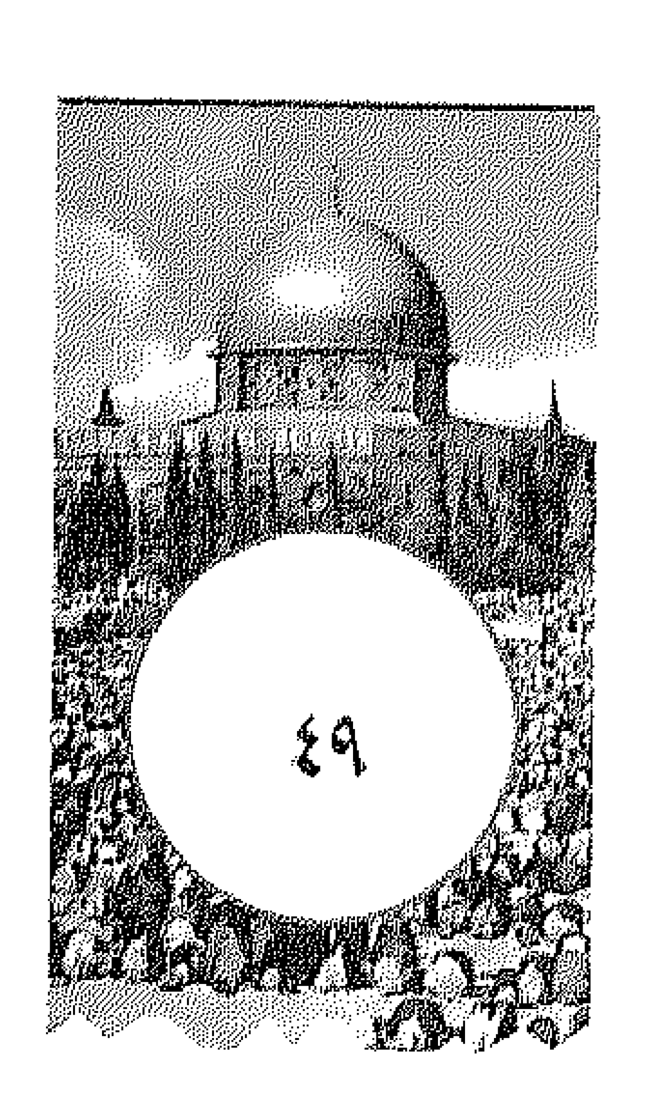
وقد عادت جيوش المسلمين مرة أخرى إلى مواقعها عند اليرموك، وبدأ هرقل فى تجنيد جيش جديد ضم عناصر من النصارى العرب فى سورية ومن الأرمن وتقدم عبر البقاع وبانياس وعبر الأردن جنوبى بحيرة الحولة، وظلت القوتان على ضفتى اليرموك لعدة أسابيع، وجرت محاولات عقيمة لعقد الصلح، وبدأت قوات هرقل فى الهجوم، وكان انتصار المسلمين عليهم ساحقاً، فى الثلث الأخير من شهر أغسطس عام ٦٣٦م، وسمع هرقل بتلك الهزيمة الثقيلة التى نزلت بجيوشه فى اليرموك، فترك سورية وعاد إلى بلاده بغير رجعة.

وبهذه المعركة فتح الطريق إلى دمشق وحمص وبعلبك أمام أبى عبيدة بن الجراح، ووصل المسلمون إلى المواقع التى انسحبوا منها، وكان استقبال الشام لهم حافلاً، إذ كان نصارى الشام يرون أن عدالة المسلمين أحب إليهم من ظلم الكنيسة الرومانية.

وبسقوط مواقع اليرموك، أصبحت القدس هى الهدف الرئيس لقوات عمرو بن العاص، وتم حصار المدينة، وبدأت مفاوضات بين رسل أبى عبيدة بن الجراح وصفرونيوس بطريق القدس، الذى لمس يأس الرومان من مقاومة المسلمين، فوافق البطريق على تسليم المدينة للمسلمين شريطة أن يسلم مفاتيحها لأمير المؤمنين شخصيًّا.

طلب أبو عبيدة بن الجراح من الخليفة عمر بن الخطاب (٥١٥ هـ - ٦٣٨م) الحضور إلى الجابية (فى مرتفعات الجولان) لعقد الصلح مع سكان إيلياء (بيت المقدس - القدس - أورشليم)، وقدم البطريق صفرونيوس لعمر بن الخطاب كتاباً سبق الاتفاق عليه مع أهل المدينة، وهذا نصه:

> **«هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، من نصارى مدينة إيلياء .. إنكم لما قدمتم علينا، سألناكم الأمان لأنفسنا، وذرارينا، وأموالنا، وأهل ملتنا. وشرطنا لكم أن لا نحدث فى مدينتنا، ولا فيما حولها ديراً، ولا كنيسة، ولا قلاية، ولا صومعة راهب (غير ما بها).**



ولا نحبس منها ما كان فى خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل أو نهار. وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل. وأن ننزل من مر من المسلمين ثلاث ليـال نطعمهم. ولا نوارى فى كنائسنا، ولا فى منازلنا جـاسوسـاً، ولا نكتم غـشاً للمـسلمين، ولا نعلـم أولادنا القـرآن. ولا نظـهـر مشركاً، ولا ندعو إليه أحداً. ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أراده. وأن نوقر المسلمين ..

وقال هذا العهد أيضا :

«ولا نتـقلد السيـوف، ولا نتخـذ شيـئاً من السـلاح، ولا نحمله مـعنا» وذلك لكى يأمن المسلمون أية ثورة مسلحة قد تثور فى المدينة.

وقد أملى عمر بن الخطاب عهده على صفرونيوس بطريق المدينة، فيما يعرف بالعهدة العمرية، وهذا هو نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

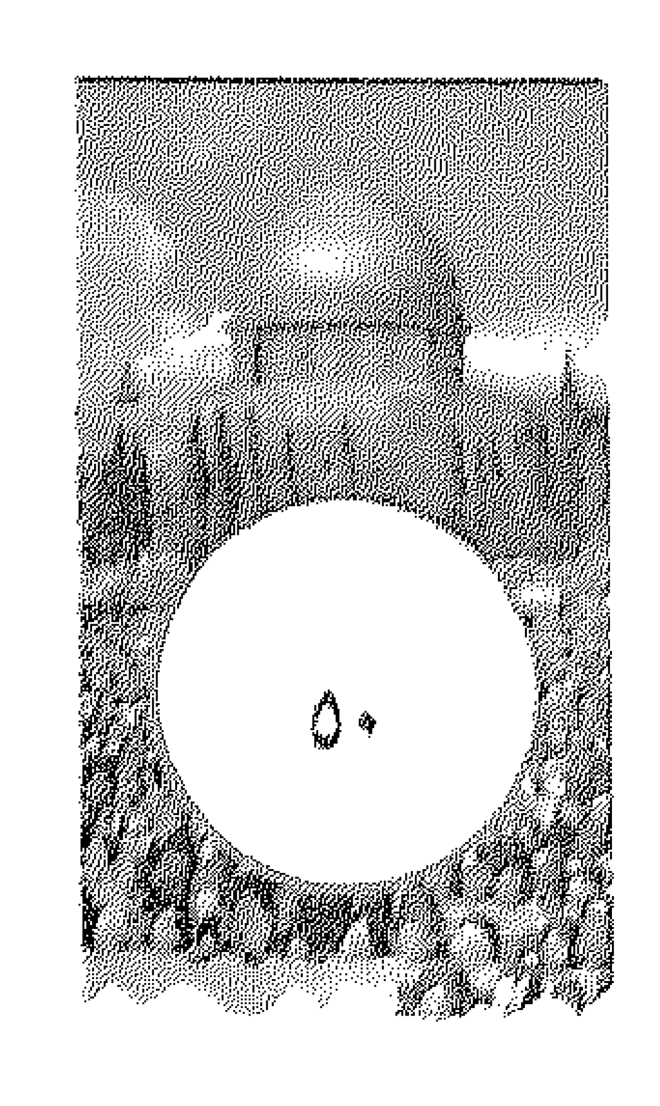
«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان

أعطاهم أمـاناً لأنفسـهم، ولكنائسـهم، وصلبانهم. سـقيـمهـا وبريئهـا وسائر ملتها.

أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتـقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبـهم، ولا من شيء من أموالـهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.

ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كـما تعطى أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم، فهو آمن. وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخـلى بيعهم وصلبـهم، فإنهم آمنون على أنفـسهم، وعلى بيـعهم وصلـبهم، حـتى يبلغـوا مأمنهم. فـمن شـاء منهم قعـد، وعليهم مـثل ما على أهل إيليـاء من الجزية. ومن شـاء سار مع الروم،



ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم حتى يحصدوا حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء والمؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.

كتب سنة ١٥ للهجرة»

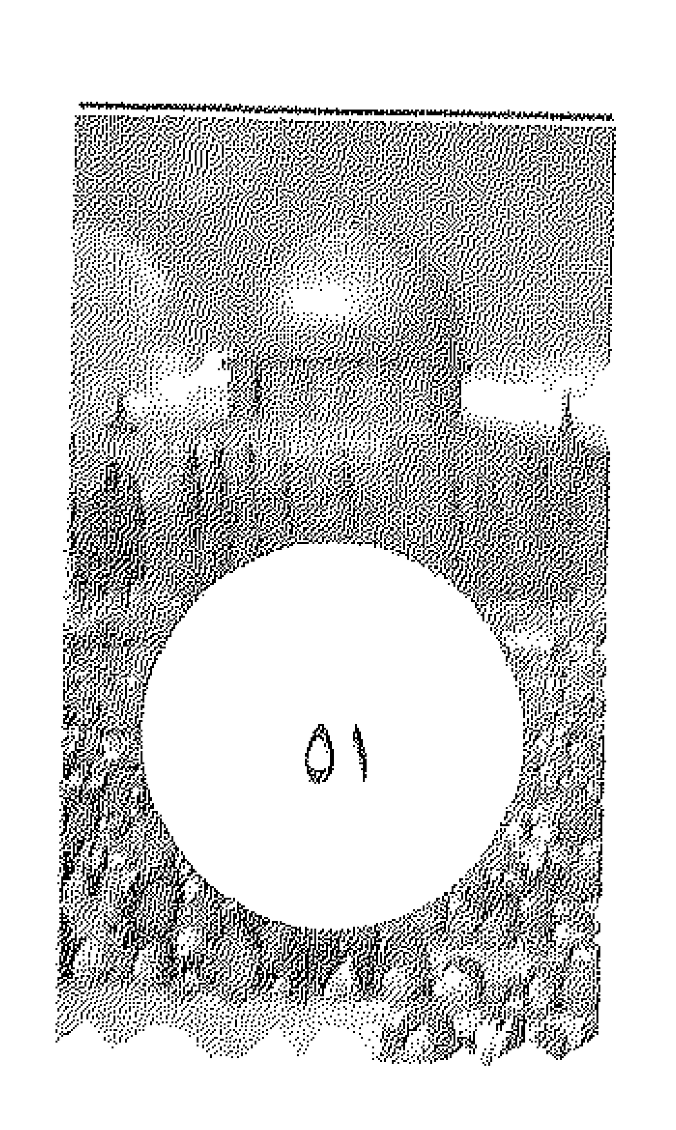
«شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان».

وهذا النص من عمر بن الخطاب أمر ملزم لكل حكام المسلمين وحكوماتهم، وهو شبيه بالنص على ألا يدخل مكة أو المدينة من ليس مسلماً. وقد احترم المسلمون القاعدة الثانية، ولكن الأولى ظلت محترمة، حتى أمكن بطريقة ما تزال غامضة، أن يسحب من خزائن الكنيسة فى القدس العهد الأصلى، وكان مكتوباً على رق من جلد، ويوضع بدلاً منه نص مزيف ورد بعد ذلك فى كتب الكنائس، وقدم إلى السلاطين العثمانيين ورد فيه ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه محمد ﷺ وهدانا من الضلال، وأنقذنا من التهلكة، ووحد قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين، فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة.

أما بعد، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفرونيوس، على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف فى الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان، لأن الذى إذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين، وإلى من يتولى بعدنا. وانقطع عنهم أسباب جوانحهم كحب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع. وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم التى بيدهم داخلاً وخارجاً وهى : القيامة وبيت لحم مولد عيسى (عليه السلام) والكنيسة الكبرى، والمغارة ذات الثلاثة أبواب قبلى وشمالى وغربى، وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك



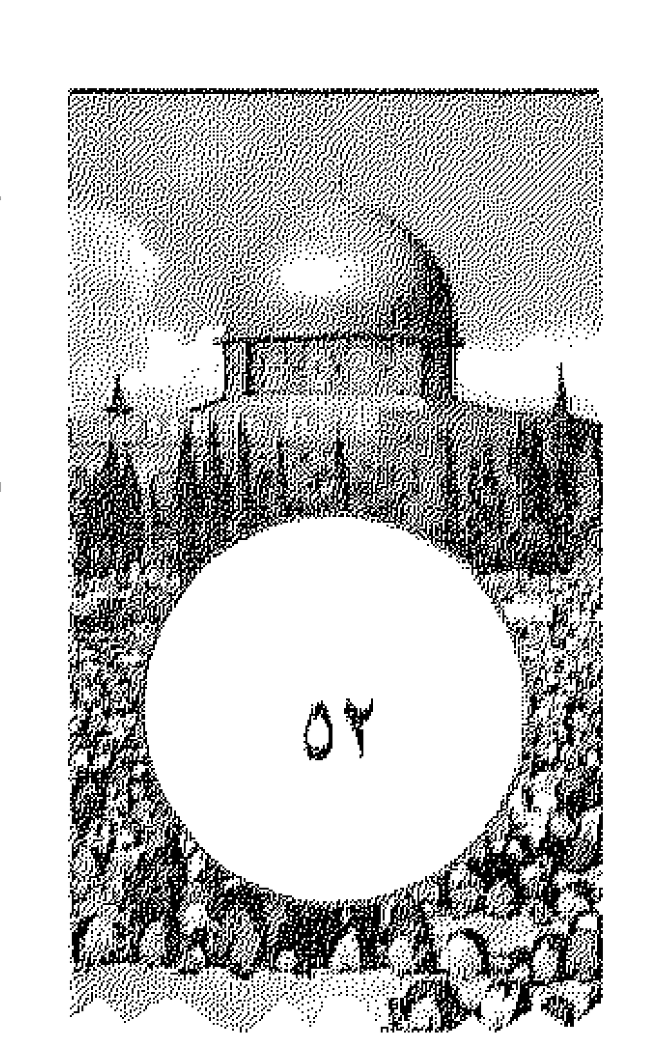
وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الأفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والمواتنة تابعين للبطريرك المذكور، ويكون متقدماً عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبى الكريم والحبيب المرسل من الله، وشرفوا بختم يده الكريم وأمر بالنظر إليهم والأمان عليهم، كذلك نحن المؤمنين نحسن إليهم، ويكونون معافين من الجزية والغفر والمواجب. والمسلمين (كذا!) من كافة البلاد فى البر والبحر، وفى دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم، لا يؤخذ منهم شىء، وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة (كذا!!)، يؤدى النصرانى إلى البطريرك درهم (كذا ...) وثلث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم ولياً يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله، وعثمان بن عفان، وسعد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف! وبقية الأئمة الصحابة الكرام. فليعتمد على ما شرحنا فى كتابنا هذا ويعمل به ويبقى فى أيديهم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية. وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن إلى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً.

وقد ورد النص السابق فى دليل الأرض المقدسة الذى وضعه الأرشمندت بنيامين، وطبع عام ١٨٧٧م، ونقله عنه تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية المطبوع عام ١٩٢٥م.

والمدقق فى النص السابق يلحظ بوضوح أمارات التزييف بما فيه من أخطاء لغوية وأسلوبية، استطاع الكاتب محمد صبيح فى كتابه عن القدس، أن يفندها ويقدم لنا معها مبررات التزوير التاريخى على النحو التالى :

«فمثلاً لم تكن كلمة «بطريرك» معروفة فى الأسلوب العربى القديم، وإنما استعملوا كلمة بطريق بالقاف أو الكاف. ولم يعرف العرب فى صدر الإسلام كلمات :الغفر والمواجب، فهذه ضرائب استحدثت أيام المماليك. وغنى عن البيان أن عمر بن الخطاب كان يعرف أن المبتدأ يرفع، ولا يعقل أن يخطئ ويملى كلمة المسلمين، وهى المسلمون. وتدل كلمة «سلطان» الواردة فى هذا



العهد المزيف على الوقت الذى ابتدعت فيه الوثيقة، وهو عهد السلاطين المتأخر جدا عن صدر الإسلام. ولم يكن عثمان بن عفان من شهود هذه المعارك ولكن لم يجد المزور بأساً من إضافة اسمه كشاهد. ويكفى أن هذه الوثيقة أسميت «مرسوماً» وهى كلمة محدثة فى عهد الأتراك.

وأما لماذا زور هذا العهد، فهناك ثلاثة أسباب:

١- حذف النص بمنع إقامة اليهود فى بيت المقدس.

٢- إضافة بعض امتيازات مالية لرجال الكنائس مثل تحصيل رسوم على زوار الكنائس الأثرية، والإعفاء من الجزية.

٣- تقديم هذه الوثيقة بإمضاءات مزورة للسلطان العثمانى سليم الأول، لكى يقر ما زعموا أن عمر بن الخطاب أقره.

ومنذ ذلك الوقت زالت أو اختفت العقبة الكبرى فى تسرب اليهود إلى بيت المقدس، وهذه العقبة كانت عهد أمير المؤمنين عمر».

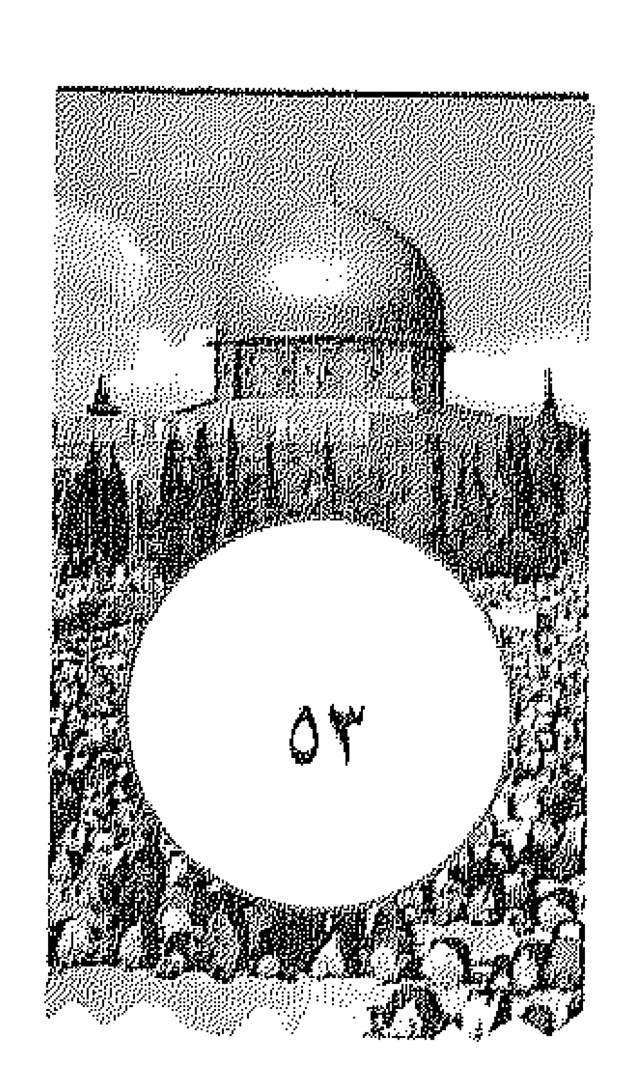
وتعلق كارين آرمستزونج على هذا الفتح الإسلامى للمدينة قائلة :

«عبر عمر أيضاً عن مبدأ التراحم التوحيدى أكثر من أى ممن فتحوا أورشليم قبله، ربما باستثناء الملك داود. فقد أشرف على أكثر غزو للمدينة سلاماً، ودون أى إراقة للدماء، لقد كان فتحاً لم تشهد مثله المدينة فى تاريخها الطويل والمأساوى فى غالب الأحوال. فبمجرد أن استسلم المسيحيون لم يحدث قتل، أو تدمير للمتلكات، أو إحراق للرموز الدينية المنافسة، وأيضاً لم يكن هناك طرد للسكان أو نزع للملكية، أو محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام. ولو أخذنا احترام سكان المدينة السابقين معياراً لسلامة وقوة العقيدة التوحيدية، يمكننا القول هنا إن الإسلام قد بدأ ولايته الطويلة هناك بداية حسنة جداً».

كما علق المؤرخ رابو بورت على الوثيقة العمرية فى مؤلفه «تاريخ فلسطين» وهو يكتب من وجهة نظر يهودية قائلاً :

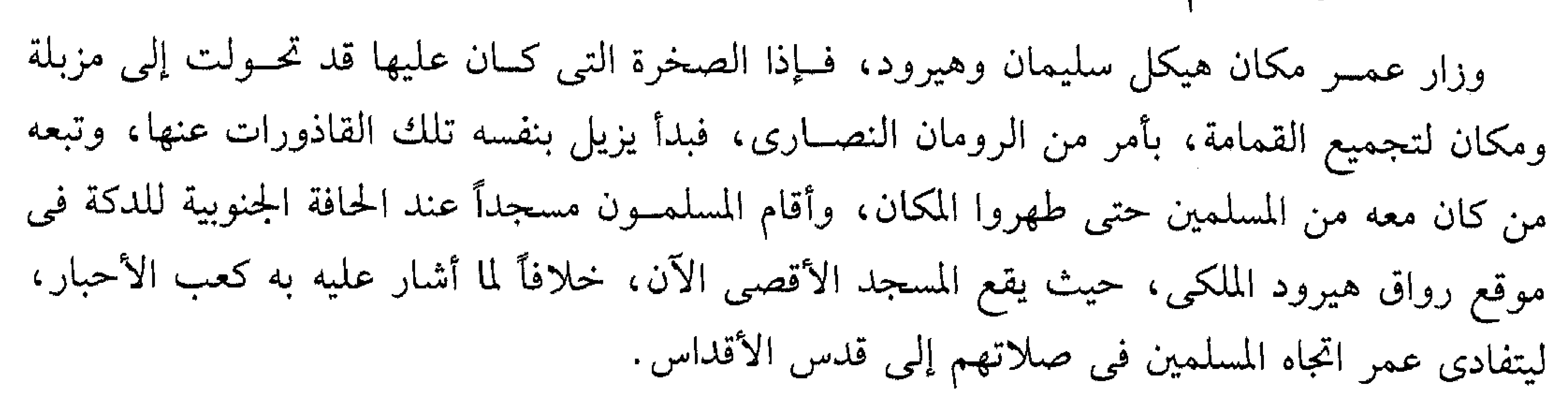
«يجب أن نعترف بأن إعلاناً كهذا فى بداية القرن الوسيط (وقد التزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة) هو إعلان حافل بالإنصاف، فهو يتنفس عدالة وتسامحاً، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يعبروا مطلقاً عن مشاعر من هذا القبيل باسم ذلك الذى دعاهم إلى دين الحب.

إن وثيقة كإعلان الخليفة كانت كفيلة بإحداث تأثير عميق، لا فى روح اليهود فحسب، بل فى روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يعانى من الظلم والطغيان، فى حين كان الآخرون



يعانـــون من اضطهاد الكنيـسة التـابعة للدولة، جـزاء ما يعـتقون من آراء ديـنية مختلفة وكان الجميع يتحملون أغلال الموظفين وأعباء الضرائب الباهظة».

وبعد أن تم تسليم المدينة لعمر بن الخطاب، تحرك موكب المسلمين إلى داخل القدس، وحان وقت الصلاة أثناء وجوده فى كنيسة القيامة، وطلب منه البطريق صفرونيـوس الصلاة فى الكنيسة، إلا أن عـمر رفض خشية أن يتـخذ المسلمون الكنيسة من بعـده مسجدًا لهم وصلى خارجها، فى المكان الـذى أقيم عليه بعد ذلك مسجد عرف **باسم مسجد عمر**.



وزار عمـر مكان هيكل سليمان وهيرود، فـإذا الصخرة التى كـان عليها قد تحـولت إلى مزبلة ومكان لتجميع القمامة، بأمر من الرومان النصـارى، فبدأ يزيل بنفسه تلك القاذورات عنها، وتبعه من كان معه من المسلمين حتى طهروا المكان، وأقام المسلمـون مسجداً عند الحافة الجنوبية للدكة فى موقع رواق هيرود الملكى، حيث يقع المسجد الأقصى الآن، خلافاً لما أشار عليه به كعب الأحبار، ليتفادى عمر اتجاه المسلمين فى صلاتهم إلى قدس الأقداس.

ثم طاف عمر بشوارع المدينة وأزقتها، واطلع على ما خلفته الحروب من تدمير للمدينة وإهمال لها، ووضع أسس إدارتهـا، وعين لها قضاة وعمـال نظافة، وجعل عمـر على حكم بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان على أن يأتمـر بأمر أبى عبيدة بن الجراح، وقسم فلسطين إلى قـسمين: شمالى وعاصمته الرملة، وجنوبى وعاصمته إيلياء (أورشليم - القدس).

وثمة سـؤال مهم للغاية يطرح نفســه على المؤرخ لهذه الأحداث وهو : هل العـرب الساكنون هذه البلاد هم أخـلاف المسلمين الذين خرجـوا من الجزيرة العربيـة عقب الفـتح الإسلامى، أم أن تاريخ وجودهم فى فلسطين وما حولها يرجع إلى ما قبل ذلك؟

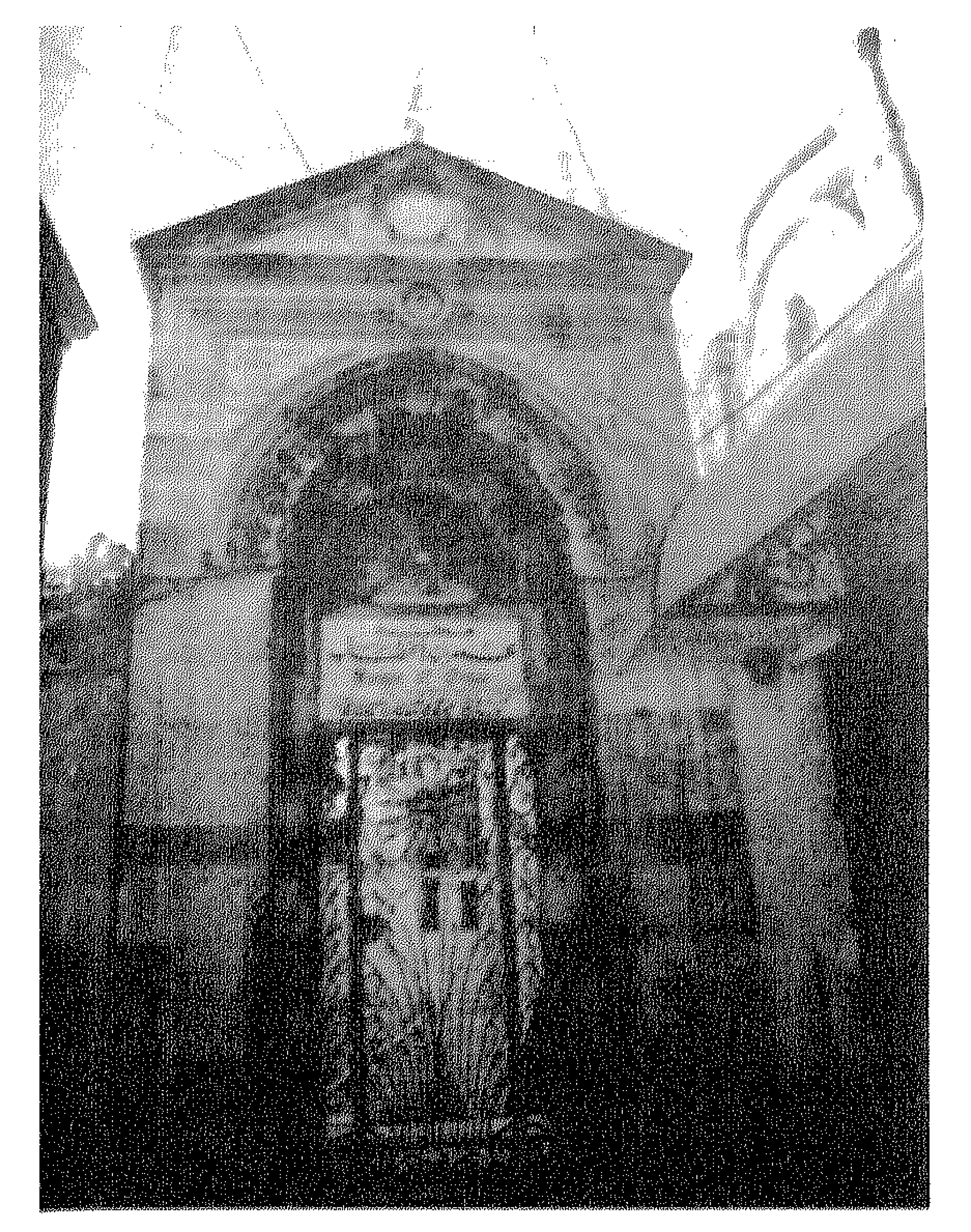
يرى المؤرخـون الصليبـيون واليـهود أن عرب اليـوم ليسـوا سوى أخـلاف هؤلاء الذين دخلوا فلسطين بعـد فتحـها فى عهـد عمر، وهم بذلك يزيفـون الحقائق، ويـخلطون الأمور، فعـمر بن الخطاب قـد أدخل الإسلام إلى البـلاد ولم يدخل العرب، إذ الوجـود العربى سـابق بكثيـر على الوجود الإسلامى، الأمر الذى تؤكده دائرة المعارف اليهودية العامة حيث تقول:

«أصبحت فلسطين بلاداً عربية ، ليس بسبب الفـتح المحمدى وحسب، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت».

إن التواجد العربى فى فلسطين لم يكن مجـرد تعايش كغيرهم من الأجناس والأعراق، وإنما - وعلى نحو ما أشـرنا من قبل - كان الوجود العربى مؤثراً فى مـجريات الأحداث بفلسطين وذلك من خلال الإنباط والإيدوميين والتدمريين ، وكلهم عرب، وهذا لا يمنع حـقيقة توافد الكثيرين من

العرب بعد الفتح الإسلامى للبلاد، وهذا أمر طبيعى.

ويشير جفريز فى كتابه «فلسطين إليكم الحقيقة» إلى هذه القضية قائلاً : «لكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك انصهروا مع سكانها الأقدمين لدرجة أن عرب اليوم فى فلسطين لا يمثلون مجرد جنس فاتح، ولكنهم سلائل تلك الشعوب التى عاشت فيها قبل الإسرائيليين...».



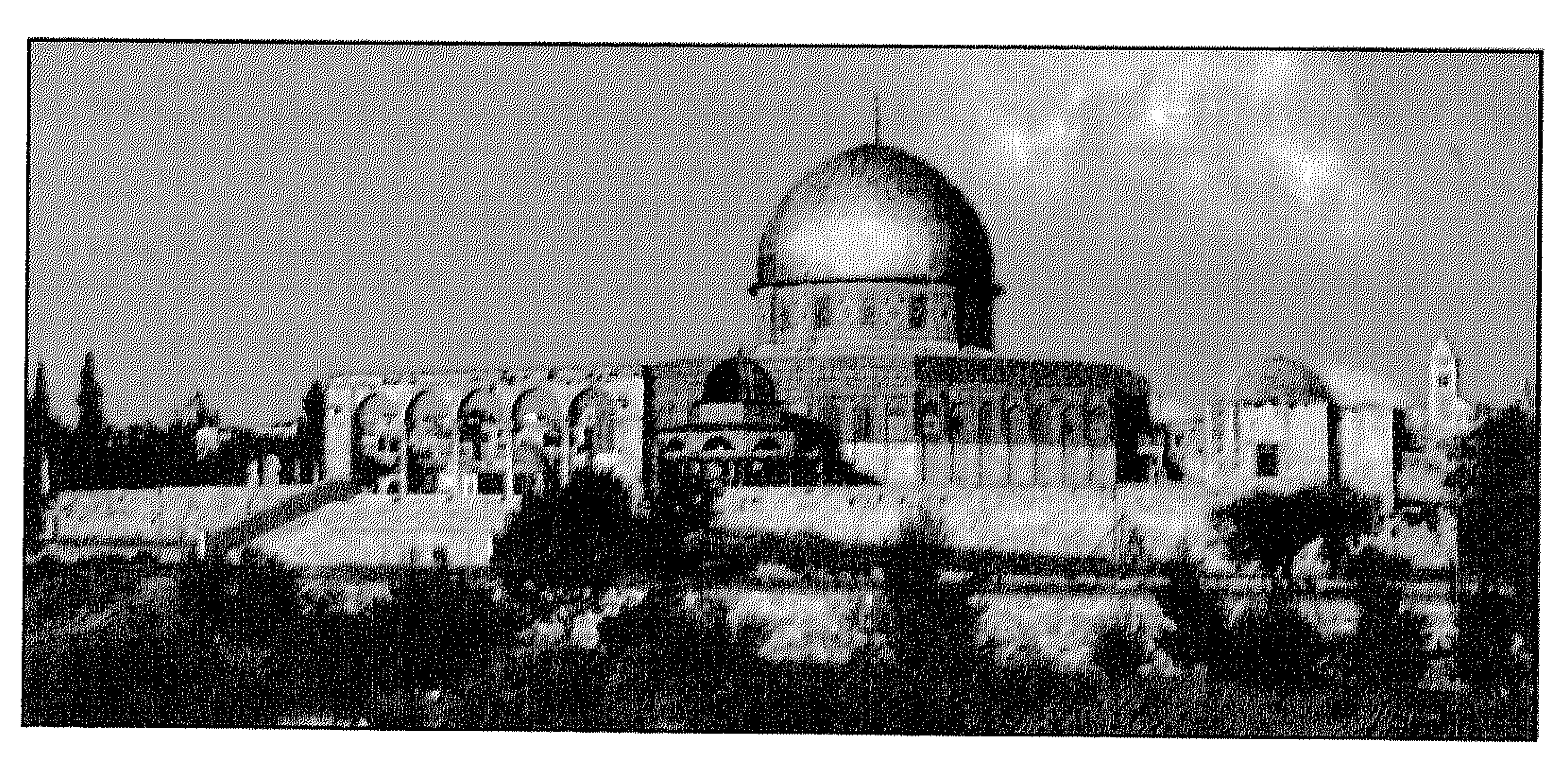
مدخل مسجد عمر بن الخطاب بجوار كنيسة القيامة

صورة نادرة للمسجد الأقصى فى بداية القرن العشرين

ويقول المؤرخ الأمريكى تشارلز مشيوز: «إن الواقع البسيط هو أن الشعب العربى فى فلسطين ليس سليل أولئك القادمين الجدد الذين اقتحموا مع الفتح الإسلامى العربى فى القرن السابع، إن أغلبية السكان المحليين سواء العرب المسيحيين أو المسلمين، هى من جنس مختلط، ترجع صلته بالأرض بعيداً إلى تاريخ قديم جداً».

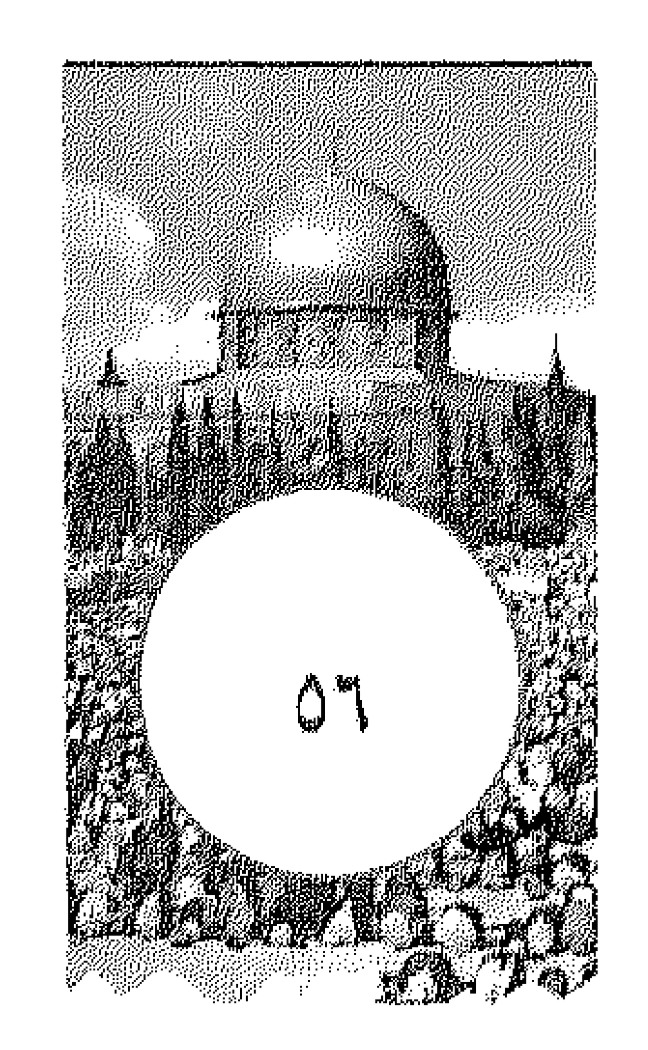
وازدهرت القدس فى عهد الخلفاء الراشدين، فبعد مقتل عمر بن الخطاب، تولى عثمان بن عفان الخلافة، وكان إسهامه الرئيس فى مدينة بيت المقدس هو إقامة الحديقة العامة الشاسعة حول بركة سلوام من أجل فقراء المدينة، ثم بعد مقتل عثمان وعلى ابن أبى طالب نودى بمعاوية بن أبى سفيان خليفة فى بيت المقدس، لتبدأ القدس عصراً جديداً فى ظل الخلافة الأموية.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان بنى فى أورشليم القدس مسجد قبة الصخرة بعد أن خصص لبنائه جميع الجزية الواردة من مصر خلال سبعة أعوام، ويرجح الكثيرون أن موقعه هو ذات الوقع الذى بنى عليه سليمان معبده الذى هدمه بختنصر ثم أعاد بناءه هيرودس، ثم دكه الرومان، ويعد الكثيرون هذا المسجد تحفة رائعة من الفن الإسلامى الأصيل، وأفاضت كتب التاريخ فى وصفه.



قبة الصخرة – صورة من السبعينيات فى بداية القرن العشرين

وشمل اهتمام عبد الملك كافة أرجاء بيت المقدس، فقام بإصلاح أسوار المدينة وبواباتها، وبنى دار الإقامة مقر حاكم إيلياء قرب الحرم القدسى الشريف، بل لقد حظيت أعمال الخليفة - بما فيها بناء المسجد على قبة الصخرة - بمدح اليهود، على نحو ما ذكر مؤلف «أسرار الحاخام سيمون بن يوحاى» اليهودى عام ٧٥٠م.



وفى عام ٧٠٥م خلف الوليد **أباه عبد الملك**، واستمر فى تصعيد قداسة وجلال الحرم القدسى، وأمر فى عام ٧٠٩م **بتشييد مسجد** جديد يحل محل مسجد عمر البدائى، وأقيم على نفس موقع المبنى الحالي للمسجد الأقصى، وقد تعرض هذا المسجد للتدمير عدة مرات، وأعيد بناؤه، وأحدثت به تغييرات.

كما قام الخليفة أيضاً بإصلاح جدران هيرود المساندة وتعلية أطوالها، كما أعيد بناء البوابات التى تقع فى الطرف الجنوبى للرصيف، وشيدت مجمعات من أبنية عامة.

وقد جذبت المدينة اهتمام سليمان بن الوليد (٧١٥ - ٧١٧م) بدرجة كبيرة، ويذكر البعض أنه كان يخطط للعيش فى بيت المقدس وجعلها عاصمة ملكه.

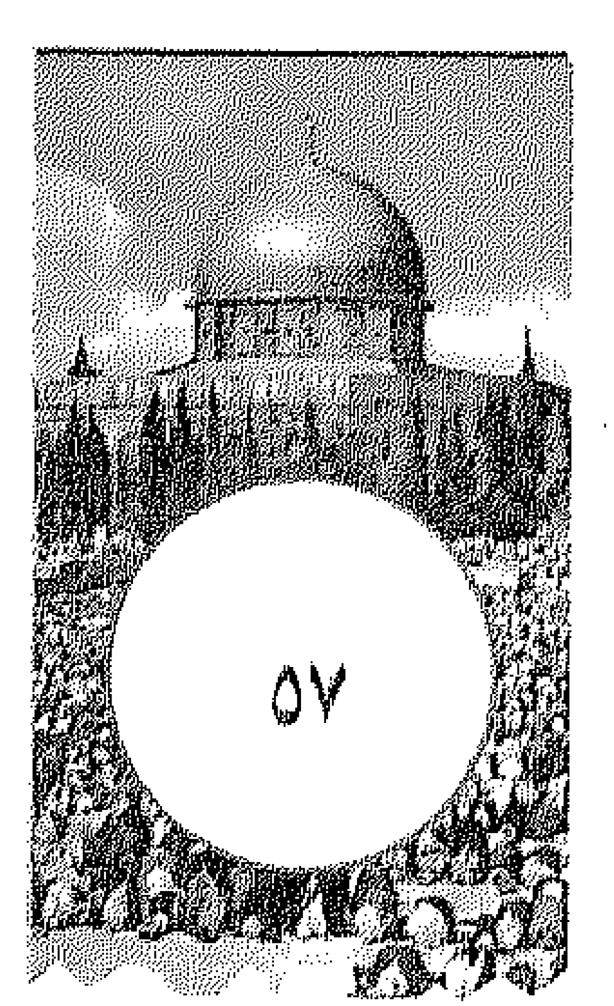
وبدأت الدولة الإسلامية الأموية تعيش حالة اضطراب شديد فى منتصف القرن الثامن الميلادى، واغتيل الخليفة الوليد الثانى عام ٧٤٤م، وتمردت القبائل فى فلسطين والأردن ضد ابنه يزيد، واستمر التمرد فى الشام ضد مروان الثانى خليفة يزيد، وحدث أن دمر الخليفة أسوار بيت المقدس وحمص ودمشق ومدن اخرى كإجراء وقائى، ثم أصاب القدس تدمير أشد إثر زلزال تعرضت له عام ٧٤٧م، وتساقط جدارا قبة الصخرة الشرقى والغربى، كما تهدم مسجد الوليد والقصر الأموى وكنيسة قسطنطين نيا.

ودالت دولة بنى أمية بعد ذلك (١٣٢ هـ - ٧٥٠م) وجاءت الخلافة العباسية، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور منهمكاً فى بناء بغداد لتكون حاضرة الدولة، ولفت نظره ما حدث للمسجد الأقصى من عطب، فأمر بأخذ سبائك الذهب والفضة من أبواب المسجد، وسكب دنانير وأعيد بناء ما تهدم من المسجد.

وقد تكرر حدوث الزلزال بعد ذلك، وحدث تهدم جديد، وقام الخليفة العباسى المهدى بإصلاحه.

فى صدر العهد العباسى، وتحديداً فى أيام هارون الرشيد (٧٨٦م)، نشأت علاقات خارجية تتصل بالقدس، وسمح الخليفة لملك فرنسا شارلمان بترميم كنائس القدس، وأن ينفق على بناء كنيسة جديدة هى كنيسة العذراء.

وتشير كتابات الرحالة إلى حالة الأمن والأمان التى عمت أرجاء القدس، وإلى التفاهم القائم بين سكانها، وإن اضطربت الأحوال قليلاً مع أفول الدولة العباسية، لكن مع قيام الدولة **الطولونية فى مصر** واستيلاء أحمد بن طولون على السلطة عام ٨٦٨م، وإنشاء دولة مستقلة تتبعها سورية وفلسطين، تمكن ابن طولون من إعادة فرض القانون والنظام، وتحسن الاقتصاد وانتعشت التجارة، كما عين ابن طولون حاكماً نصرانياً للقدس وأمر بإعادة بناء وإصلاح ما تهدم من الكنائس، كما سمح لأعضاء أحد المذاهب اليهودية (القرائين) بإرساء قواعدهم فى القدس.



وانتـهى حكم الطولونيين عـام ٩٠٤م حين تمكـن العبـاسيـون من إحكام قبـضتـهم على فلسطين، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ تمكـن محمـد بن طغج الأخشـيدى عـام ٩٣٥م- وهو تركى من آسيـا الوسطى - من الاستـيلاء على الحكم فى مـصر وسـوريا وفلسطين، وحكم تلك المناطق باسم خليـفة بغـداد، وأصبحت القدس ميداناً لتنافس العديد من الأسر على حكمها، الأمر الذى دفع الأباطرة اليـونان فى بيزنطة إلى إعـلان الحرب المقـدسة على الإسـلام، وتمكن البيـزنطيون خلال القـرن العاشر من إعـادة سيطرتهم على كيليكيـة وطرسوس وقبرص، وأعلنوا أن تلك خطوة فى سبيل استعادة أورشليم، الأمر الذى أدى إلى تدهور العلاقات بين مسلمى ونصارى المدينة.

وتم طرد الأخـشيـديين من فلسطين على أيدى القـرامطة الشيـعة فى البـداية، ثم على أيدى الفاطمـيين الشيعـة فى تونس الذين تمكنوا عام ٩٨٣م من إقامـة خلافتـهم، ونقل عاصمـتهم من القيروان إلى القاهرة.

وكان نصارى القـدس فى تلك الفترة - حسب روايات الجـغرافيين والرحالة - أكـثر تميزاً عن المسلمين واليهود فى المدينة.

وقد عين العزيز بن المعز لديـن الله الفاطمى حاكماً قبطياً على فلسـطين هو أبو اليمن قزمان، وتمتعت القدس بخاصة وفلسطين بعامة برعاية كـاملة من قبل الفاطميين حتى تولى الحاكم بأمر الله الخلافة، وتغيرت فى عهده أمور كثيرة، ولم يسلم من قوانينه مسلم أو نصرانى أو يهودى.

وأصبـحت القدس فى عهـد الفاطميين عـاصمة إدارية لليـهودية الفلسطينية، وواصل اليـهود تأييدهم بقوة للفاطميين، وقـام المسلمون بإعادة تشييد أبنيتهم فى القدس، فقـد كانت قبة الصخرة قد انهارت عام ١٠١٧م.

وفى منتصف القرن الحـادى عشر بدت القدس وقد اسـتعادت قوتها وعـافيتها إلى حد كـبير، وتشير كـتابات المؤرخين والرحالة إلى أسواق المدينـة الممتازة ومبانيـها المرتفعة، وكـان لكل حرفة سوق، بالإضافة إلى وجود مستشـفى كبير يدرس به الطب، وانتهى العمل فى بناء **كنيسة القيامة الجديدة** بأموال الإمبراطور قسطنطين التاسع مونورماخوس عام ١٠٤٨م.

وزاد تدفق الحجاج من أوروبا إلى الأمـاكن المقدسة بالمدينة، وواصل اليهـود حجهم وزيارتهم للمدينة أيضاً، حيث كانوا يفدون إليها من أماكن بعيدة.

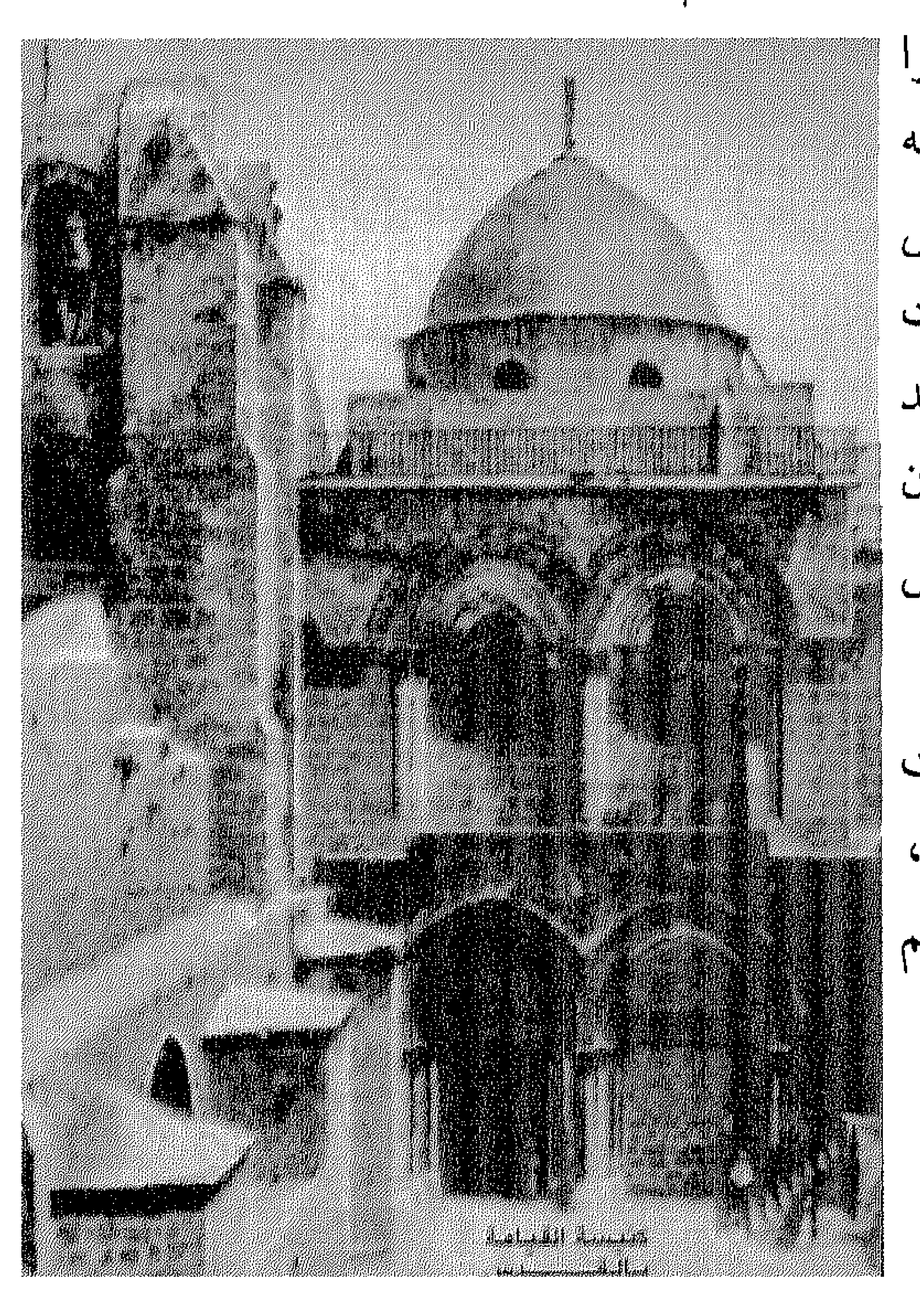
وسرعان ما واجه أهل القدس أعداءً جداً من الشمال، ففى عام ١٠٥٥م تقريباً، تمكنت بعض القوات التركـية التى اعتنقت الإسلام السنى مؤخـراً، من الإمساك بزمام الأمور فى شـمال سورية باسم السنة والخليفـة العباسى، وعرفت هذه الـقوات الماهرة إدارياً باسم السلاجقـة، وتمكن القائد

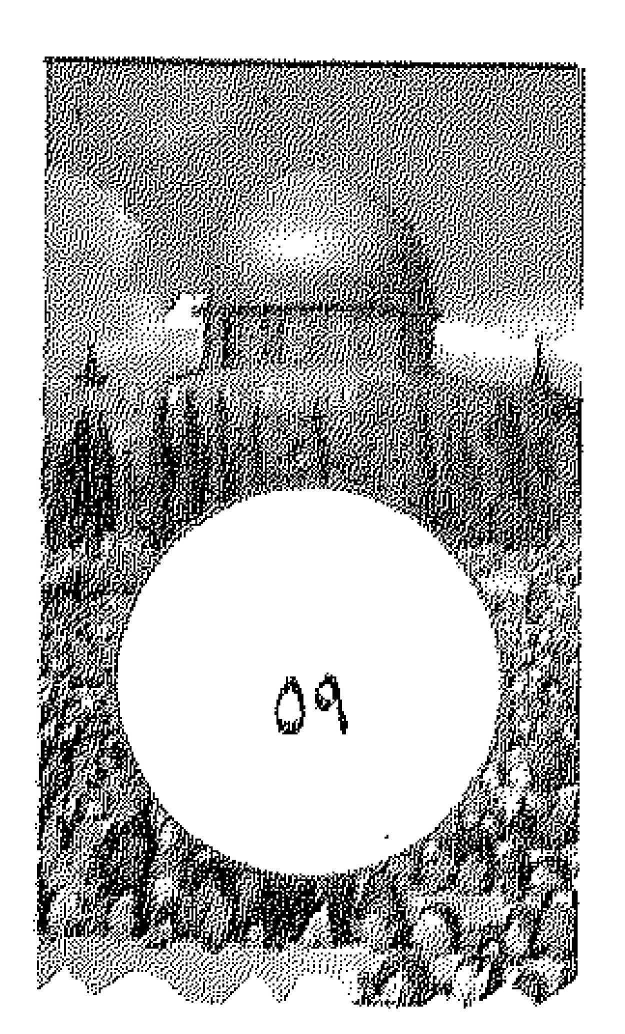
رسم لضريح السيدة العذراء – **يعود للقرن ١٩**

التركى ألب أرسلان من اقتحام خطوط دفاع البيزنطيين عندما تركزت فى أرمينيا، واستولى الأتراك على معظم آسيا الصغرى، وفى نفس الوقت قاد أتسيز بن أوق حرباً مقدسة على الشيعة وغزا فلسطين وهزم رام الله وحاصر القدس، واستسلمت له المدينة عام ١٠٧٣م، وأصدر أتسيز عفواً عاماً عن أهل المدينة وأمر رجاله بعدم سلب أو نهب أى ممتلكات لسكانها، بل وعين حراساً على الكنائس والمساجد وعادت النهضة الفكرية والعلمية إلى القدس بعد أن أطفأها الفاطميون، وأعيد بناء المساجد والكنائس ونشأت المدارس الفقهية المختلفة.

وازدهرت القدس تحت حكم التركمان وأصبحت أهم مدن فلسطين، بل وأصبحت مدينة دولية، واستوطن بها كثير من يهود أوروبا، وازدهرت علومهم الدينية بفضل تسامح المسلمين معهم.

رسم لكنيسة القيامة فى القرن ١٩





وفى أغسطس عام ١٠٩٨م فتح الخليفة الشيعى الفاضل القدس بعد حصار استمر ستة شهور، ولكن بعد عام واحد، أى فى ١٠٩٩م وصل الصليبيون من أوروبا إلى التلال خارج مدينة القدس، ثم استقرت جيوشهم خارج أسوارها، لتبدأ مرحلة جديدة وعصر جديد من عصور القدس.

بيت المقدس والصليبيون:

قبل الحديث عن بيت المقدس والصليبيين، ينبغى أن نشير بإيجاز إلى ما كان عليه حال المسلمين والعرب، وما أصابهم من ضعف ووهن، ، كان عاملاً رئيساً فى حث الصليبيين على القيام بغزو الشرق وتثبيت أقدامهم فى بعض مناطقه.

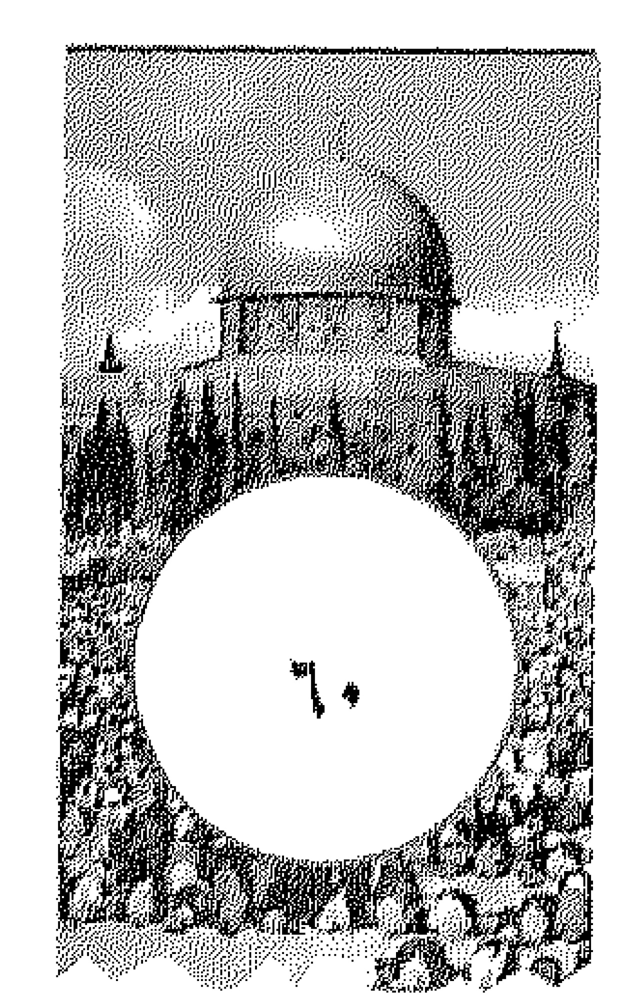
فقد بلغت الدولة العباسية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) شهرة واسعة من المحيط إلى الخليج، لكن سرعان ما بدأ الضعف يدب فى أوصالها حين اعتمد الخليفة العباسى المعتصم على الأتراك، ونقل عاصمة خلافته من بغداد إلى سامراء عام ٨٣٦م.

وفى جانب آخر، كثرت الحركات المذهبية والدينية الخارجة على إجماع الأمة، فكانت الحركة الخرمية والمعتزلة وثورة الزنج فى جنوب العراق (٩٢٨ - ١٠٤٧م) وثورة القرامطة عام ٨٩٠م. كما ظهرت دويلات ذات استقلال سياسى مثل الدولة السامانية (٩٧١ - ٩٩٨م) والدولة الزيادية (٩٢٨ - ١٠٤٧م) والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦م) والدولة الحمدانية (٩٢٩ - ١٠٠٣م) والدولة البويهية وغيرها. وقد سيطر السامانيون والبويهيون - وهم من أصل فارسى - على شؤون الدولة العباسية، وركزوا اهتمامهم على الأقاليم الفارسية فقط، كما استقل الأخشيديون بمصر وبجزء من الشام (٩٣٥ - ٩٦٩م).

واعتلى كرسى الخلافة العباسية خلال القرن التاسع العديد من الخلفاء، أربعة منهم فى ثمانى سنوات (٨٦١ - ٨٦٩ م)، تم اغتيال اثنين منهما وهما : المعتز بالله والمهندى بالله.

فى مقابل تلك الفوضى، كان أباطرة البيزنطيين يزدادون قوة وتماسكاً، وشاء الله تعالى أن تظهر فى تلك الآونة قوة الأتراك السلاجقة الذين حموا الخلافة العباسية من السقوط، وهزموا الروم هزيمة نكراء فى موقعة **ملاذ كرت** عام ١٠٧١م إلا أن قوة السلاجقة قد بدأت فى الاضمحلال، فى الوقت الذى طلب فيه الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس فى مطلع عام ١٠٩٥م الدعم والعون من **البابا أوروبان الثانى** لمواجهة المسلمين، ولم يتوان أوروبان فى توجيه الدعوة إلى رجال الدين وفقراء الناس فى أوروبا فى مجمع كليرمون مبشراً بحرب تحرير مقدسة.

وكان أوروبان يهدف من تلك الدعوة وقف تلك الحروب الإقطاعية التى كانت تمزق أوروبا، وإخراج أوروبا من الضائقة الاقتصادية التى ألمت بها، واستطاع أن يستغل الشعارات الدينية والحماس الدينى لتحقيق أغراضه، حيث طالب الأوروبيين أن يهبوا لمساعدة إخوانهم النصارى فى الأناضول الذين خضعوا للمسلمين.



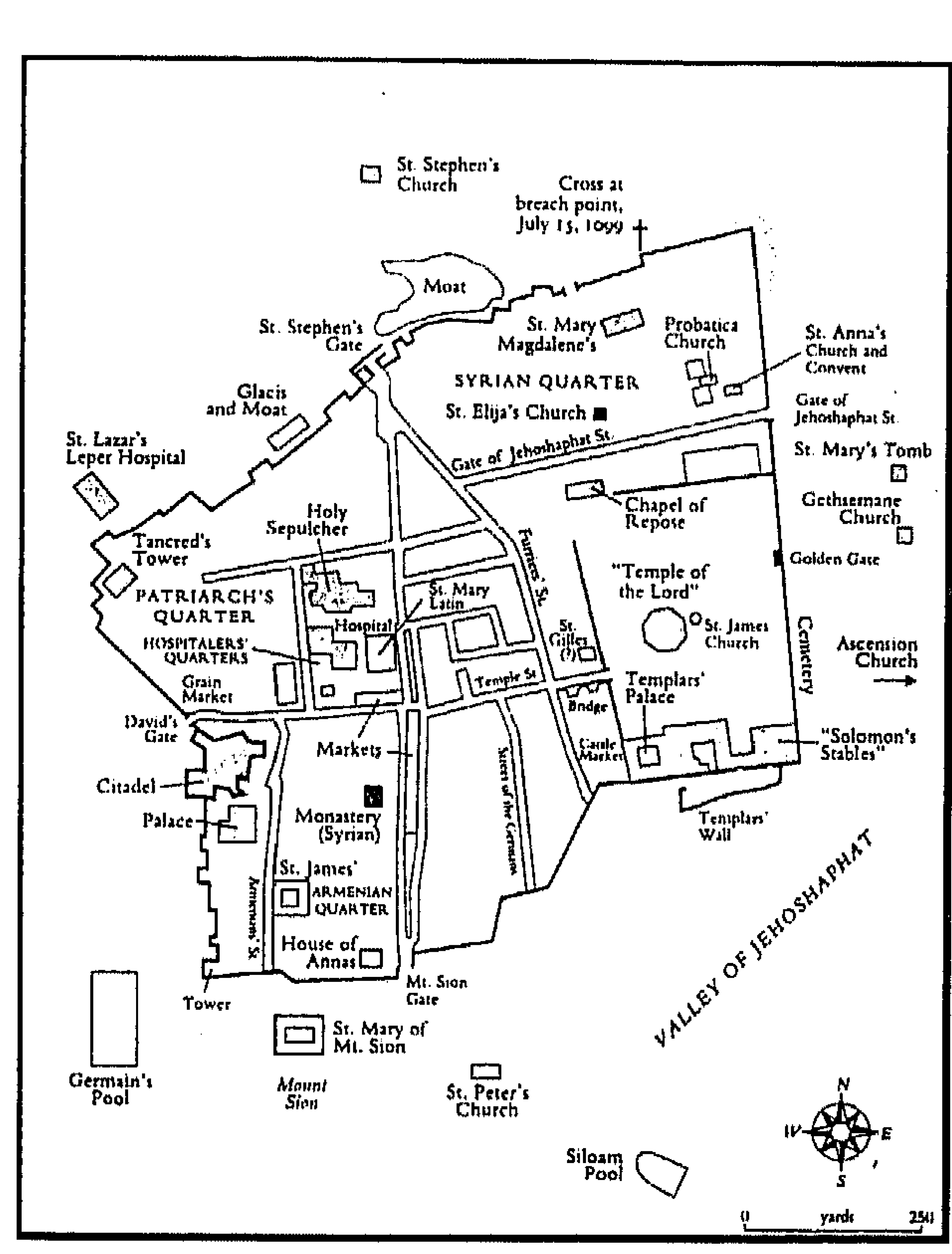
وبمجرد تحرير إخوانهم من عبودية «الكفرة» وجب عليهم السير إلى أورشليم لتحرير مقبرة المسيح من الإسلام، وبهذا يعم السلام والرخاء أوروبا، وتندلع «حرب الرب» فى الشرق الأدنى.

ويمكن القول إن الحملات الصليبية لم ترتبط بداية بغزو فلسطين، وإنما بدأت قبل ذلك بنحو قرن من الزمان، وكانت موجهة إلى الأندلس والممالك الإسلامية الأوروبية، إذ بدأ الأوروبيون يحاربون المسلمين منذ عام ٩٧٠م واحتلوا صقلية وأجزاء من أرمينية واستمرت هذه الحملات حتى انهارت الدولة الأموية فى الأندلس مع بدايات القرن الحادى عشر.

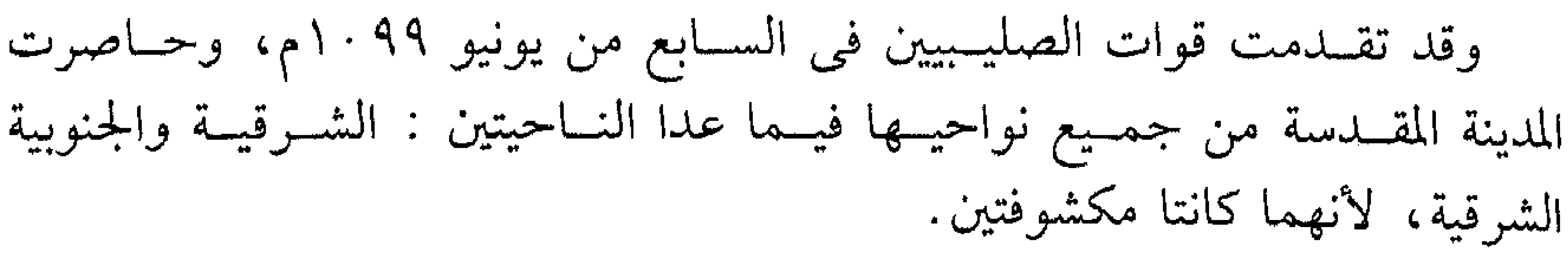
وكان الأسبان الذين يقاتلون المسلمين يتلقون الدعم الوافر من الأمراء الأوروبيين ومن الكنيسة، وبدأ رجال مدينة بيسا غزو سردينية بتحريض من البابا بينيدكت الثامن، كما بدأ النورمان يحاربون عرب صقلية ابتداء من ١٠٦٠م وحتى ١٠٩٠م وكانوا يحاربون كأتباع للبابا.

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٩م):

بعد أن غزا الصليبيون طليطلة عام ١٠٨٥م، وبعد عشر سنوات تقريباً أبحروا إلى الشرق حيث حاصروا أنطاكية فى أواخر عام ١٠٩٧م، وسقطت المدينة نتيجة ما كان فيه المسلمون من شقاق وانقسام، وواصل الصليبيون حملتهم تجاه فلسطين، وكانت تحت أيدى ولدى «أرنق»: سكمان وإيلغازى، وكان الحاكم الحقيقى فى مصر هو **الأفضل شاهنشاه الذى خلف أباه بدر الجمالى الأرمنى الذى أسلم**، وكان الأفضل قد زحف نحو بيت المقدس حيث هدمت أسوار المدينة واحتل المصريون كل فلسطين، وكان على المدينة المقدسة فترة غزو الصليبيين لها «افتخار الدولة»، حاكماً من قبل الفاطميين.



خريطة (١١)
أورشليم فى العصر الصليبى ١٠٩٩ - ١١٨٧م



وقد تقدمت قوات الصليبيين فى السابع من يونيو ١٠٩٩م، وحاصرت المدينة المقدسة من جميع نواحيها فيما عدا الناحيتين : الشرقية والجنوبية الشرقية، لأنهما كانتا مكشوفتين.

واستمر حصار المدينة حوالى أربعين يوماً حتى نفد ما لدى المسلمين المحاصرين من عتاد ومؤن، وتمكن الصليبيون من دخول بيت المقدس فى الخامس عشر من يونيو عام ١٠٩٩م.

واتفقت جميع المصادر التاريخية على دموية القوات الغازية وبشاعتها. فيقول مؤلف أعمال الفرنجة Gesta Francorum الذى أيد الصليبيين، أنهم «قتلوا كل المسلمين والأتراك. لقد قتلوا كل شخص ذكراً كان أم أنثى، وتم بعد ذلك ذبح المسلمين الألف الذين التجأوا إلى سطح المسجد الأقصى، وحوصر اليهود فى معبدهم وقتلوا بالسيوف حتى لم يتبق منهم أى أحياء تقريباً» وسالت الدماء فى الشوارع، وكما يقول شاهد العيان البروفنسالى ريمون الأجويلى: «كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل، وتحولت القدس المزدهرة الآمنة إلى مستودع نتن لجثث القتلى».

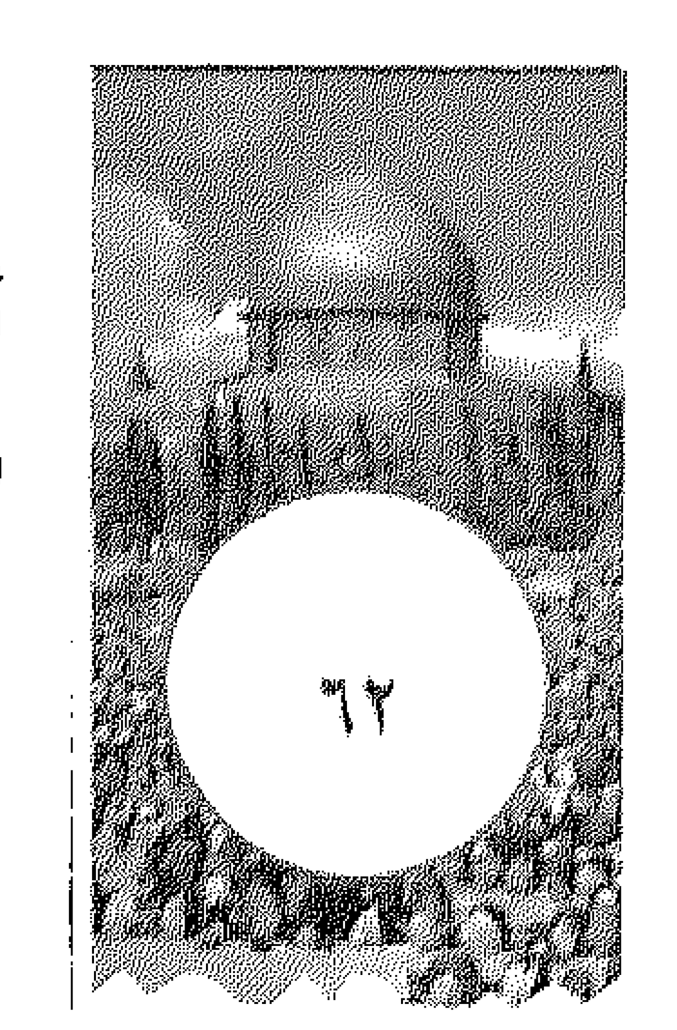
وذكر المؤرخ النصرانى ابن العبرى فى كتابه «تاريخ مختصر الدول» قوله : «ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً».

ودمر الصليبيون ما دمروه، ونهبوا ما نهبوه من كنوز وتحف كانت فى قبة الصخرة، وطاردوا اليهود الذين لجأوا إلى معبدهم وأشعلوا النار فى المعبد فاحترق بمن فيه.

وقد أصدر المحاربون الصليبيون قانوناً يمنع المسلمين واليهود من دخول أورشليم، كما طردوا النصارى المحليين لأنهم شكوا فى تآمرهم مع المسلمين، وحول جودفرى بعد الغزو مباشرة قبة الصخرة إلى كنيسة أطلق عليها اسم «معبد الرب» حيث بدأ الصليبيون يعتقدون أنهم شعب الله المختار الجديد.

وخرجت من مصر حملة بقيادة الوزير الأفضل لمواجهة الصليبيين، إلا أنها هزمت فى عسقلان فى التاسع من أغسطس عام ١٠٩٩م، واستولى الصليبيون على إقليم الجليل وطبرية وحيفا وأرسوف وقيسارية وعكا وغيرها من المدن، وأسس الصليبيون من القدس وما جاورها مملكة لاتينية جعلوا مقرها القدس، وأقاموا عليها جودفرى دوبويون أميراً، ولما مات خلفه أخوه بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م)، حيث أصبحت القدس فى عهده عاصمة لمملكة تمتد من بيروت إلى العقبة.

أما عن شكل القدس فى تلك الفترة فكان كما كان عليه أيام الرومان، إذ يقع جبل صهيون خارج الأسوار، وأقيمت الكنائس والأديرة فى الداخل، **وزاد الاعتناء بكنيسة القيامة** حيث أعيد بناؤها. وقد ازدادت المبانى النصرانية بالقدس فى حى البطاركة والحى الأرمنى، كما قامت مبانى الصليبيين فيما يعرف الآن بحى اليهود فى الناحية الجنوبية الغربية من القدس، وبنيت فى القطاع الشمالى المسمى حالياً بالحى الإسلامى عدة كنائس أهمها : كنيسة «سانت آن»، وكان النصارى السوريون يقيمون فى هذا الحى حيث أحضرهم إليه الملك بلدوين.



وقد حدثت مناوشات بين المسلمين والصليبيين، حيث وقعت موقعة حران أو البالخ عام ١١٠٤م وقتل السلاجقة من الصليبيين حوالى عشرة آلاف مقاتل، وساعد على هزيمة الصليبيين العداء القائم بينهم وبين النصارى البيزنطيين، واستطاع مودود آتابك الموصل أن يوقع بالصليبيين هزيمة أخرى فى موقعة الصنبرة، وتقدم الجيش الفاطمى من عسقلان إلى أن وصل أسوار بيت المقدس، إلا أن عدم وجود خطة شاملة توحد جهود المسلمين فى الشرق الأدنى، وانقسامهم، والعداء بين الفاطميين والسلاجقة، وبين الشيعة والسنة، حال دون القيام بعمل حربى كبير مشترك، وأعطى ذلك الفرصة للعدو الصليبى أن يستولى على المزيد من الأراضى الإسلامية على فترات متلاحقة.

وتتفق مصادر تاريخية عديدة على أن الأسباب الرئيسة وراء تلك الحملة لم تكن ذات صبغة دينية أصيلة، وإنما تمثلت فى رغبة الأوروبيين فى التخلص من الثقافة الإسلامية والعربية فى المنطقة، وجعل تلك البقعة من العالم العربى لاتينية والقضاء على الأرثوذكسية التى كانت منتشرة فيها، ناهيك عن الدوافع الاقتصادية المحمومة، وكذلك الحيلولة دون اصطدام الأمراء الإقطاعيين فى أوروبا وتقاتلهم وشغلهم بقتال أعدائهم المسلمين، أما الزعم بأن هؤلاء الغازين قد أتوا «لتحرير النصارى من الظلم الإسلامى» كما يزعم المؤرخ اليهودى هيامسون، فالتاريخ يكذبه، لأن موقف

صخرة المسرى حولها الأعمدة الإسلامية فى قبة الصخرة

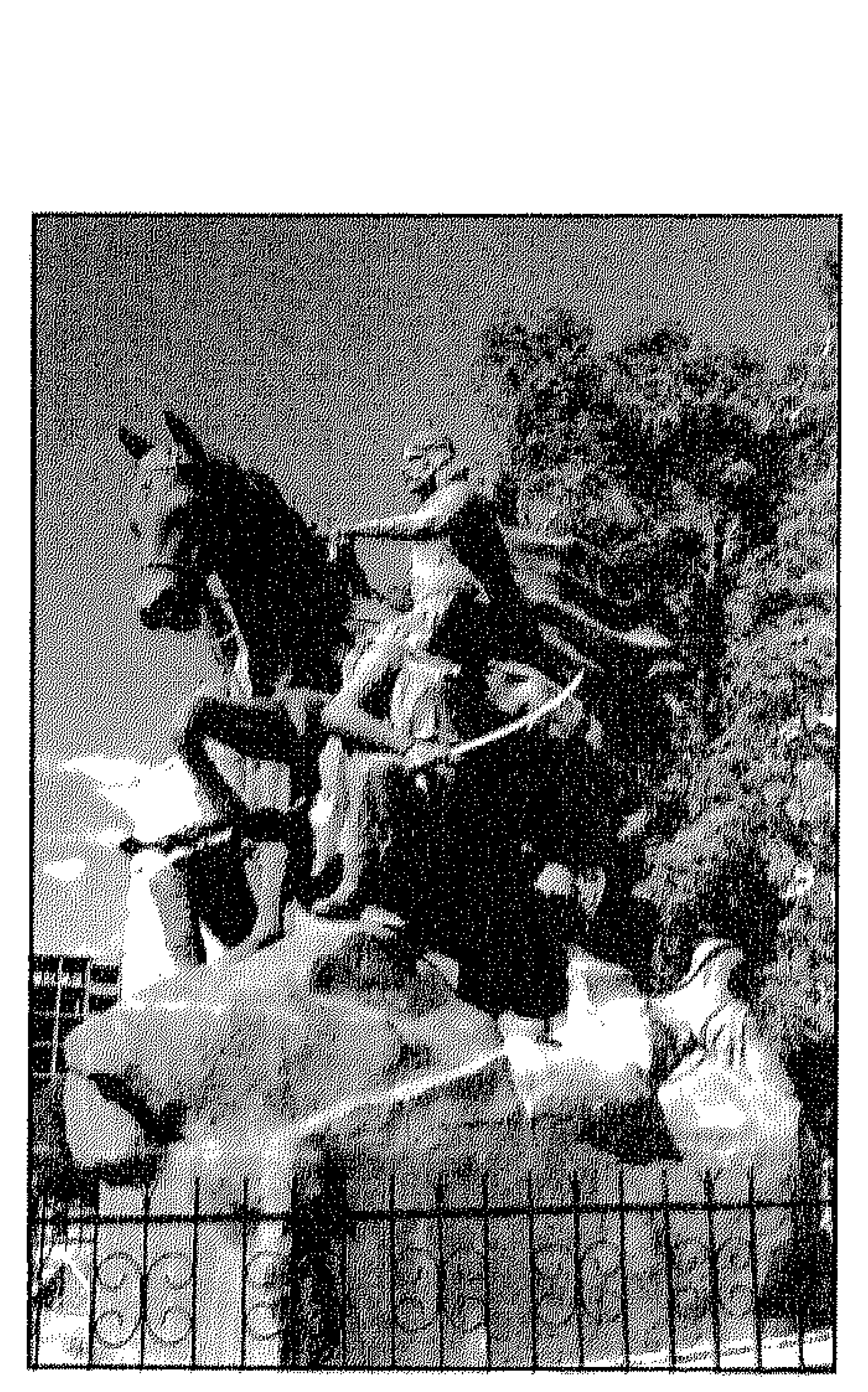
الصليبيين من اليهـود ومن نصارى الشرق، بالإضافة إلى حملاتهم إلى بلاد أخرى كسورية ومصر وشمال افريقيا، يؤكد الطابع الاستعمارى الإقطاعى لهذه الحملات.

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧م):

استطاع الأمير عماد الدين زنكى توحيد المسلمين فى العراق والشام وتمكن من فتح إيديسا (الرها) الصليبية عام ١١٤٤م، كما تمكن من هزيمة الصليبيين فى عسقلان وبعد مقتله تولى ابنه نور الدين الأمر، وعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم، وامتد نفوذه إلى مصر وقام بتولية صلاح الدين على مصر، الأمر الذى أزعج الصليبيين إذ أصبحت قواتهم فى بيت المقدس محاطة من الشمال الشرقى والجنوب الغربى، واستنجد الصليبيون فى الشرق بإخوانهم فى الغرب، وتم شن حملة صليبية ثانية بقيادة ملكى فرنسا وألمانيا إلا أنها فشلت أمام صمود نور الدين.

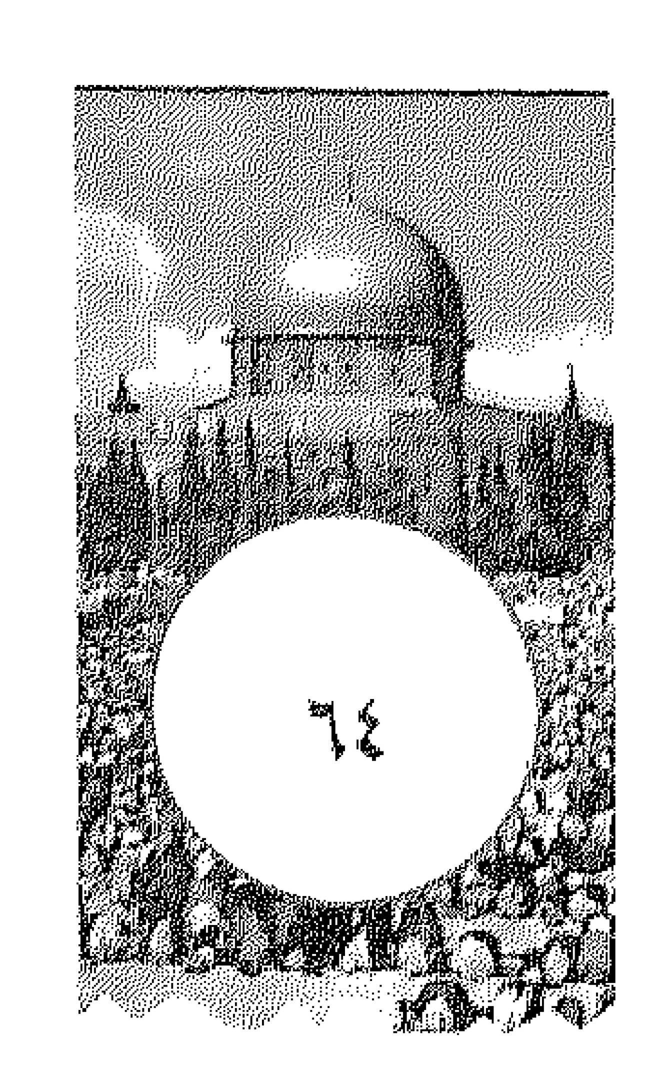
صلاح الدين وتحرير بيت المقدس:

استطاع صلاح الدين أن يوحد سورية ومصر تحت رايته عام ١١٨٣م، وكان ملك القدس الصليبى آنذاك هو بلدوين الرابع، وقد تمكن صلاح الدين من هزيمته فى موقعة بانياس، واضطر الصليبيون إلى عقد صلح مع المسلمين، إلا أنهم سرعان ما نقضوه، وخلف بلدوين الخامس أخاه، ثم دس له الصليبيون السم ليتولى الملك جاى دى لوزيجنان الحكم، الأمر الذى خلق حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار بين الصليبيين وساعد **صلاح الدين** على أن يحقق نصره المؤزر **فى حطين**.



نصب تذكارى للبطل صلاح الدين الأيوبى محرر القدس

وكان قاطع الطرق رينالد دى شاتيلون المعروف عند العرب باسم أرناط الفرنسى، صاحب حصن الكرك، من أشد الناس عداوة للمسلمين، وكان صلاح الدين قد حاصر حصنه عدة مرات وأجبره على الصلح، لكنه عاد فغدر بقافلة كبيرة واستولى عليها ورفض طلب صلاح الدين بإطلاق سراح الأسرى والأموال، بل سعى أرناط إلى اعتراض قوافل الحجاج، وعزم على



السير إلى مكة والمدينة، وقام **الأسطول المصرى** بعمل عظيم ضد الأسطول الصليبى عام ١١٨٢م، حيث قام حسام الدين لؤلؤ الحاجب بفك حصار الصليبيين لحصن العقبة (أيلة) وميناء (عيذاب) المواجه لمدينة جدة، واستطاع صلاح الدين أن يوقف نشاط أرناط المعادى للحرمين الشريفين.

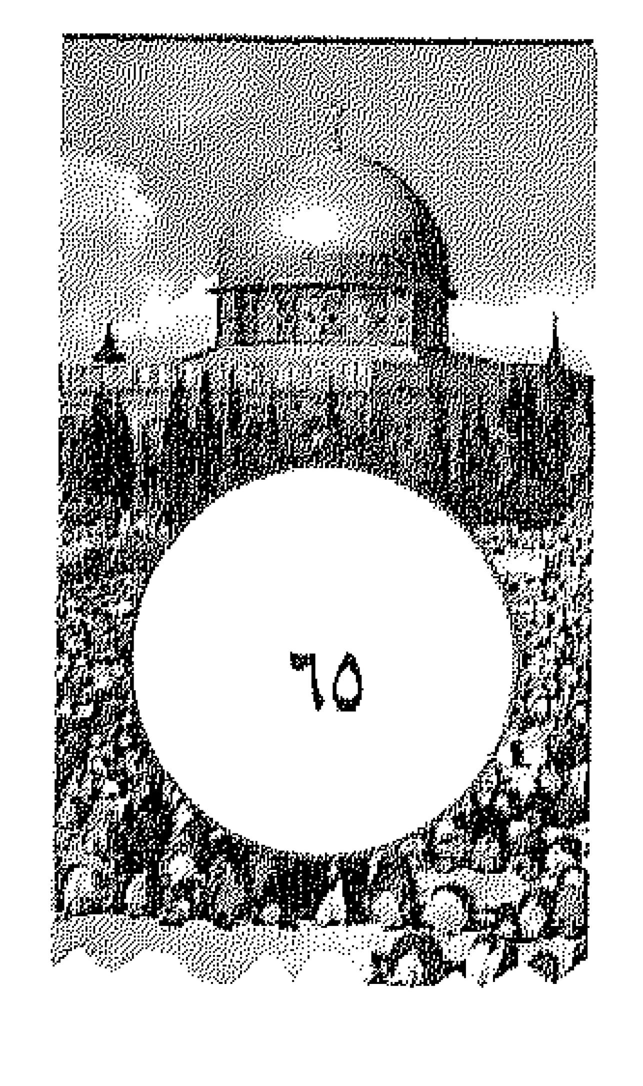
ازداد مركز صلاح الدين قوة مما جعله يخرج لقتال الصليبيين شمالاً عام ١١٨٣م، كما اتجه فرخشاه ابن أخيه ونائبه فى دمشق نحو الجنوب، وانضم الاثنان وهاجما حصن كوكب فى إقليم الغور وتم الانتصار على الصليبيين.

وقد أجرى صلاح الدين حركة تنظيم داخلى مكنته من تعبئة جميع موارد المسلمين وبدأ الاستعداد لمعركة فاصلة حاسمة ضد الصليبيين من أجل تحرير بيت المقدس من احتلالهم. والتقى الفريقان فى موقعة حطين فى يوليو ١١٨٧م، وكان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين حاسماً، واستسلمت قلعة طبرية فى اليوم التالى لمعركة حطين، وكان موقف صلاح الدين من أسرى الصليبيين مشرفاً، إذ وقع فى الأسر ملوك وأمراء العدو وفى مقدمتهم الملك جيفرى والبرنس أرناط.

استقبل صلاح الدين عام ١١٨٧م فى عسقلان وفدًا من سكان بيت المقدس، ورفض الوفد تسليم المدينة، وبدأ الصليبيون فى جمع الأسلحة وتوزيعها على أتباعهم، وجاء جيش صلاح الدين فى ٢٠/٩/١١٨٧م أمام بيت المقدس وبدأ فى مهاجمة المدينة من السور الشمالى والشمالى الغربى، ثم نقل معسكره بعد خمسة أيام إلى جبل الزيتون، وبدأ رجاله ينقبون السور قرب باب العمود. ولما يئس الصليبيون من الانتصار طلبوا الصلح، فجمع صلاح الدين قادته ورجاله واستشارهم فى ذلك، فوافقوا على تسليم المدينة صلحاً ويرحل عنها الصليبيون من النصارى غير العرب خلال أربعة أيام، على أن يحملوا كل ممتلكاتهم معهم نظير فدية يدفعونها بينما استمر النصارى العرب من أهالى سورية فى سكنى القدس.

ودخل صلاح الدين المدينة المقدسة فى يوم الجمعة ١٢/ ١٠/ ١١٨٧م، وفرح النصارى الأرثوذكس بمقدمه، واتخذ صلاح الدين عالماً نصرانياً أرثوذكسياً هو يوسف بابيط مستشاراً له ورفض الانتقام من أعدائه، كما رفض فكرة طرحت عليه تهدف إلى هدم كنيسة القيامة حتى لا تكون هدفاً للزوار.

وإلى جانب النصارى الأرثوذكس، دعا صلاح الدين اليهود للعودة إلى القدس، والتى كانت قد حرمت عليهم من قبل الصليبيين بشكل شبه كلى، ومن ثم تعالت الأصوات اليهودية المرحبة باسمه على أنه قورش (ملك فارس الذى أعاد اليهود من النفى البابلى إلى أورشليم عام ٥٣٨ ق م) الجديد فى أنحاء العالم اليهودى.



بينما رحل المحتلون الغازون، وأمر صلاح الدين **بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه ومحا** الرسوم والتماثيل، وزين القبة بنقوش جميلة.

وسقطت بعد ذلك مدن فلسطين، واحدة تلو الأخرى، فى أيدى المسلمين، ولم يبق - بعد سنتين - فى أيدى الصليبيين إلا مرافئ أنطاكية وطرابلس وصور. ويقول المؤرخ اليهودى هيامسون: «أدى سقوط القدس إلى هجرة يهودية تستحق الاعتبار إلى فلسطين، لأنه حيثما حكم صلاح الدين كانت هناك حرية لليهود، وكذلك للأجناس والأديان الأخرى، وكان الطبيب اليهودى موسى ابن ميمون طبيباً خاصاً لصلاح الدين».

وقد فتح صلاح الدين عسقلان فى سبتمبر ١١٨٧م، وتم توطين يهودها فى القدس، وسمح لهم صلاح الدين ببناء معبد فيها، كما خصص لهم مكاناً غربى حى المغاربة الجديد، وفى حوالى عام ١٢١٠م قامت ثلاثمائة عائلة يهودية بالحج إلى القدس فى مجموعتين قدمتا من فرنسا.

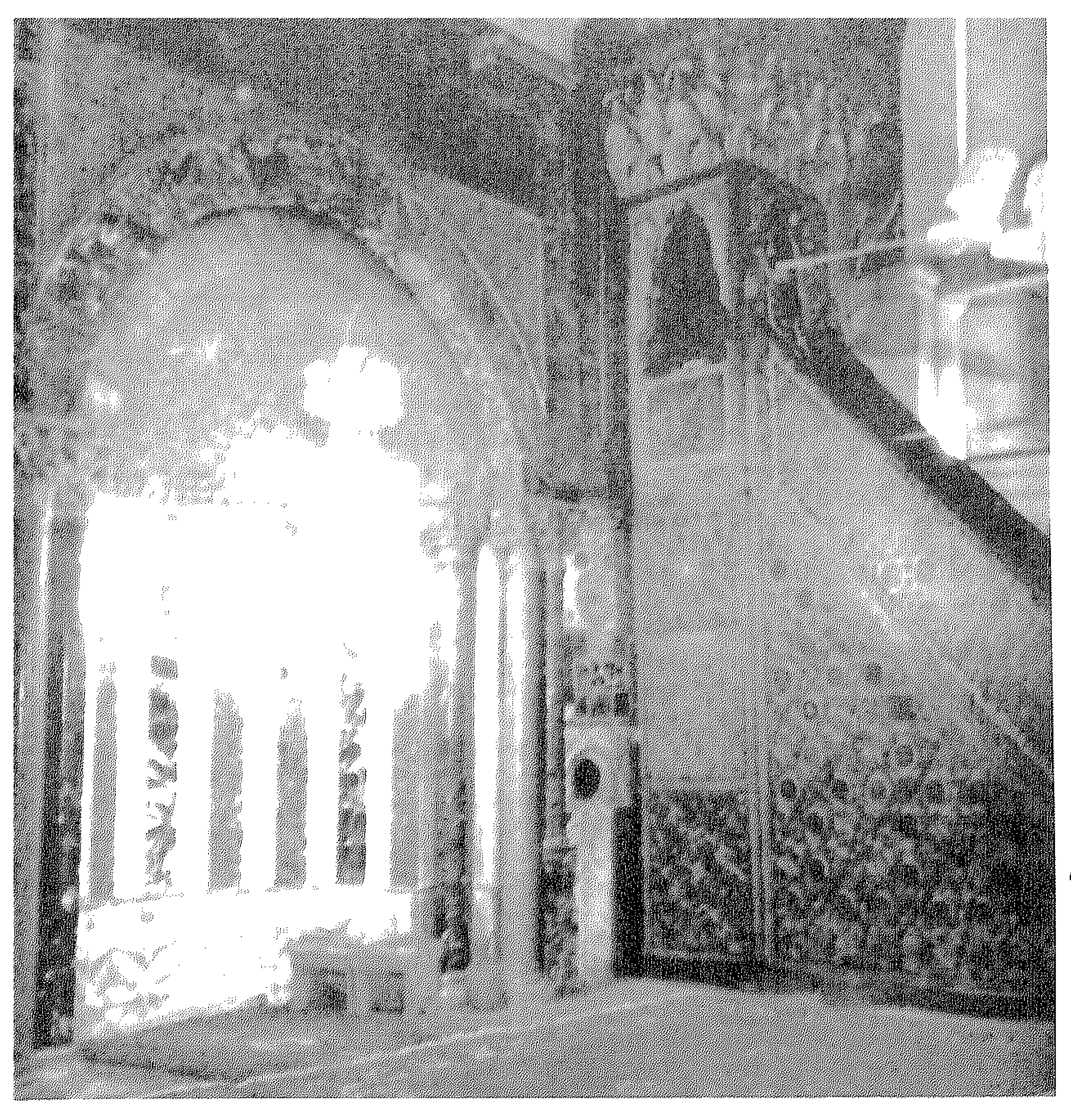
الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩م:

بدلاً من سعى بابا النصارى وملوك الغرب إلى التفاهم مع صلاح الدين الأيوبى بشأن مبادلة الأسرى - كما سبق وأن طلبوا - وتنظيم شئون الحجاج النصارى إلى بيت المقدس وحماية رعايا الكنيسة الشرقية، نجد البابوية تقوم بإرسال الرسائل إلى سائر ملوك أوروبا حيث تعلن هدنة عامة بينهم لسبع سنوات، سميت «هدنة الرب»، ينسون خلالها خلافاتهم وصراعاتهم وأحقادهم، وينشرون السلام بين الكاثوليك، من أجل تجنيد حملة شرسة لتخليص بيت المقدس من المسلمين، بقيادة الإمبراطور **فردريك بربروسا الألمانى، وفيليب أغسطس الفرنسى، وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى**، حيث حشد الغرب قواته ورجاله، ودخلوا عكا فى يوليو ١١٩١م وغدروا بأهلها المسلمين خلافاً لما بينهم من اتفاق، وقتلوا ثلاثة آلاف مسلم.

واختلف القادة الصليبيون الثلاثة، ولم يصل منهم إلى فلسطين سوى ريتشارد قلب الأسد الذى سعى لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية، فاستولى على قيسارية فى أواخر أغسطس ١١٩١م **وانتصر فى موقعه أرسوف** فى ٧/٩/١١٩١م، وأخلى المسلمون عسقلان، وفتح الصليبيون عكا.

وكان صلاح الدين قد أخلى سبيل ريتشارد بعد أن أسره فى حطين، بعد أن وعده ألا يعود للقتال، فاتجه صلاح الدين فى أواخر عام ١٩٩١م للدفاع بنفسه عن مدينة القدس التى حصنها تحصيناً قوياً أسهم فيه بنفسه هو وأولاده.

وجرت محاولات للصلح بين الطرفين، وساد الانقسام بين الصليبيين، وفى الوقت نفسه زاد تحصين المسلمين للمدينة المقدسة، وانتهى الأمر بعقد معاهدة «الرملة» بين المسلمين والصليبيين فى ٢/٩/١١٩٢م لثلاث سنوات تنازل فيها ريتشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس،



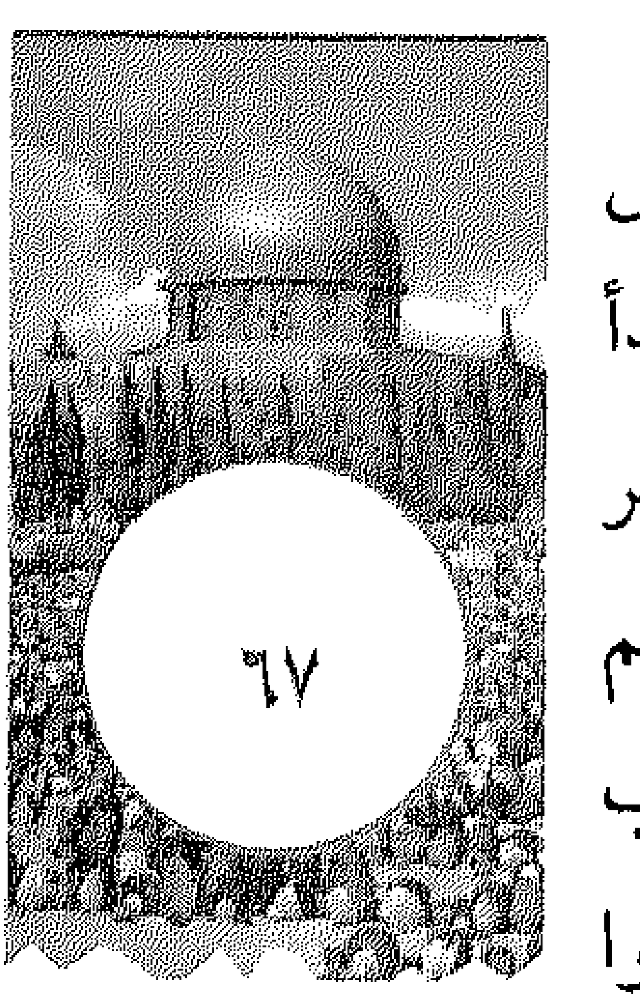


صورة المنبر والمحراب الذى بناهما صلاح الدين فى المسجد الأقصى قبل حريقه سنة ٦٩

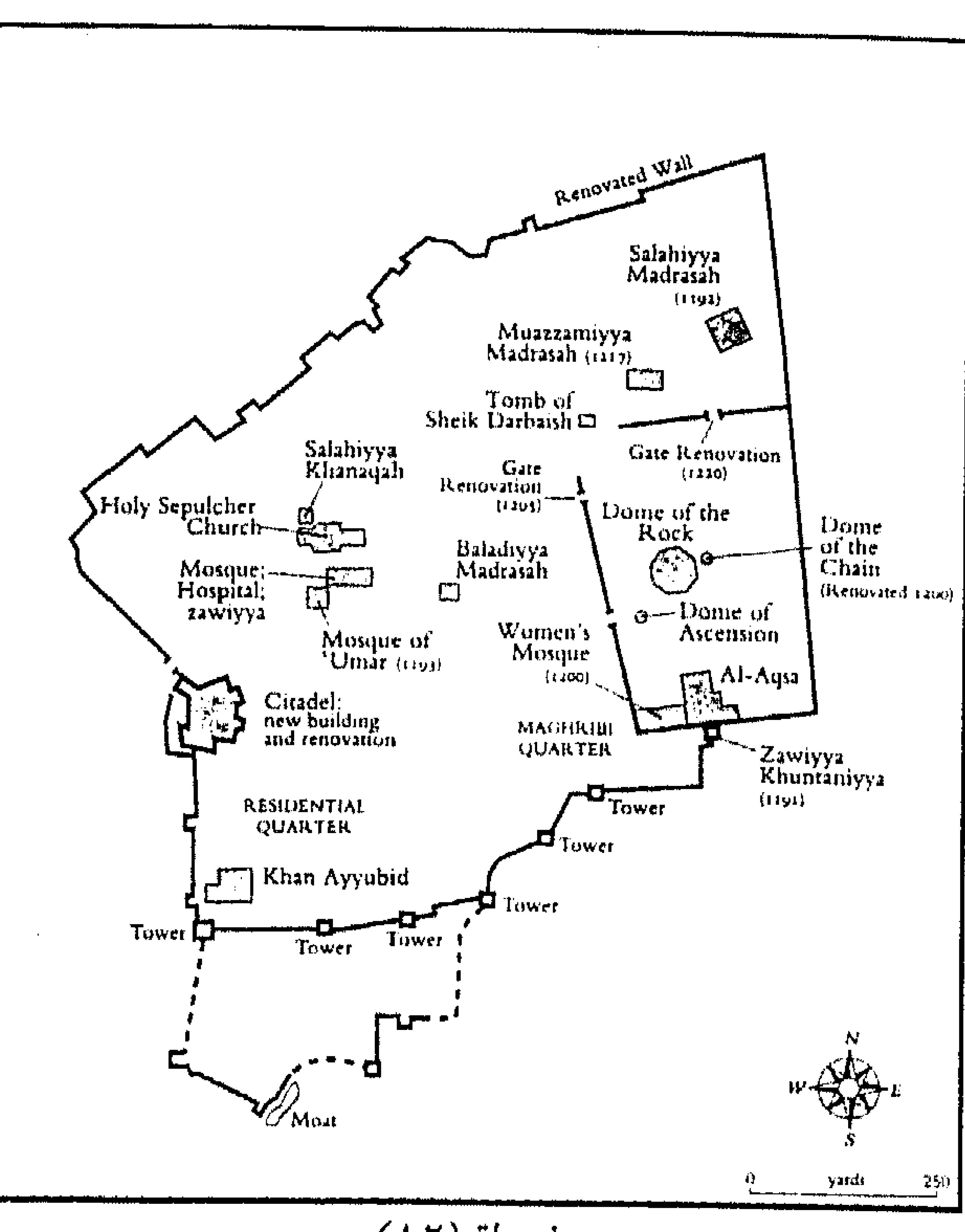
وظلت الأماكن المقدسة فى أيدى المسلمين، وحصل فردريك على شريط ساحلى ضيق بين صور ويافا، وعلى حق اللاتين فى زيارة القدس دون دفع أية ضرائب.

وفى مستهل عام ١١٩٥م، أى بعد انتهاء المدة التى حددتها معاهدة الرملة (ثلاث سنوات)، مضى البابا إكلستيان الثالث فى تعبئة نصارى أوروبا ضد مسلمى الشرق، والدعوة إلى القيام بحملة مقدسة لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين، ولم يستجب له إلا هنرى السادس إمبراطور ألمانيا، صاحب الأطماع التوسعية وسياسة السيطرة العلمانية والعدوانية ضد الشرق الإسلامى والنصرانى البيزنطى، وقد وصلت حملته إلى عكا فى سبتمبر عام ١١٩٧م ولم تجد ترحيباً من النصارى الشرقيين، ولم تحقق أية انتصارات عسكرية حاسمة على الأيوبيين، فأسرعت إلى عقد صلح مع السلطان العادل عام ١١٩٨م ولمدة ثلاث سنوات، وعادت إلى أوروبا خاسرة.

وكان صلاح الدين الأيوبى قد توفى قبل هذه الحملة متأثرًا بحمى التيفود عام ١١٩٤م، وانقسمت مملكته التى حكم مدنها المختلفة أعضاء من الأسرة الأيوبية، كل بجيشه الخاص ونظامه الإدارى الخاص، وبدأ ورثته القتال فيما بينهم، وعانت القدس من ذلك الصراع الداخلى، وإن لم يقل الحماس الإسلامى لها، ومن ثم استمر جهادهم الإعمارى للمدينة ومقدساتها الإسلامية



وافتتحت المدارس الدينية بها، وبدأ نظام الوقف ينتشر فى ربوعها، ولم يكن نصارى الغرب آنذاك قد نفضوا أيديهم عن المدينة، إذ ظل حلم إحتلالها يراود ملوكهم وكنيستهم، وبدأت قواتهم تتجه إلى الشرق، الأمر الذى خلق حالة من الرعب فى بيت المقدس، حيث لم تغب عن أذهان أهلها تلك المذابح الرهيبة التى قام بها الغازون الصليبيون.



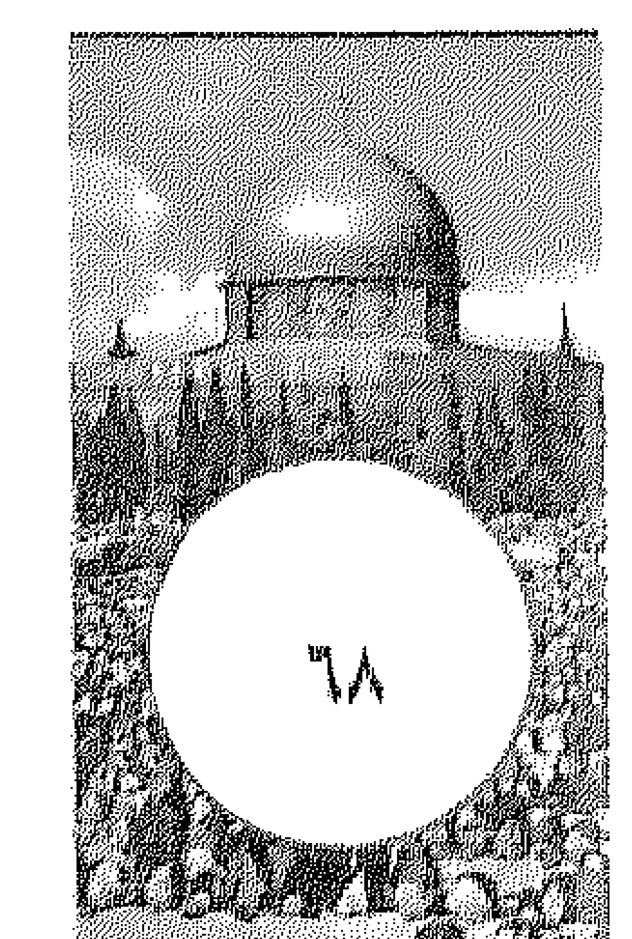
خريطة (١٢)
أسلمة القدس تحت الحكم الأيوبى ١١٨٧ - ١٢٥٠م

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢م):

استمرت هذه الحملة من ١٢٠٢ إلى ١٢٠٤م وكانت موجهة فى حقيقة الأمر إلى الإمبراطورية الشرقية، وكان الملك العادل - أخو صلاح الدين وخليفته - يحكم الشام وفلسطين ومصر. وقد ضمت هذه الحملة جيشاً من الشبان والفتيات بلغ عدده خمسين ألفاً، غرق معظمهم فى البحر المتوسط، ووصل قليل منهم إلى فلسطين، ثم لم يلبثوا أن عادوا مخفقين، بعد أن تمكنت القوات المصرية والسورية من وقف تقدمهم نحو بيت المقدس، وعقد الملك العادل صلحاً معهم فى سبتمبر عام ١٢٠٤م استرد بمقتضاه يافا ورام الله والرملة.

وإزاء هذا الفشل المتكرر للصليبيين فى استرداد بيت المقدس، تجلت للعدو حقيقة تاريخية جغرافية مهمة، وهى أن مصر هى مفتاح الشرق وقاعدته الحصينة التى تمد جيوشه بالمؤن والإمدادات البشرية والمعنوية، وأنه لا فائدة من محاولاتهم لاسترداد بيت المقدس ما دامت مصر خارج نطاق النفوذ الصليبى.

كما أثبت التاريخ ووقائعه مدى ما تمثله الوحدة المصرية - السورية من قوة فى صد أى اعتداء خارجى على قلب العالم الإسلامى، بيت المقدس، وهو ما أدركه صلاح الدين ومن قبله من الحكام.



وتحولت ميادين القتال الفعلى بين الشرق والغرب من الشام ومدنه إلى وادى النيل مع بدايات القرن الثالث عشر الميلادى، واستمرت حتى نهاية الحروب الصليبية فى منتصف القرن الخامس عشر.

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٥م):

اجتمع بعض أمراء الصليبيين فى روما - مقر البابا أنوسنت - وتعاقدوا على انتزاع بيت المقدس من المسلمين، وتم إعداد حملة صليبية خامسة عام ١٢١٥م توجهت لاحتلال مصر أولاً، وتمكنت بالفعل من احتلال ميناء دمياط، وطالبت من الملك العادل - ملك مصر - التنازل عن جزء من مملكة القدس، ودفع التعويضات لهم، إلا أن السلطان العادل رفض وتمكن من هزيمتهم فى دمياط، وتم أسر الملك لويس التاسع فى المنصورة.

الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٩م):

تمكن الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى من استغلال حالة الوهن التى سادت بين المسلمين، وجاء على رأس حملة إلى فلسطين، فى الوقت الذى قرر البابا فيه تجريد حملة صليبية ضد مملكة فريدريك الأوروبية نفسها لمماطلته فى تجهيز الحملة ضد المسلمين.

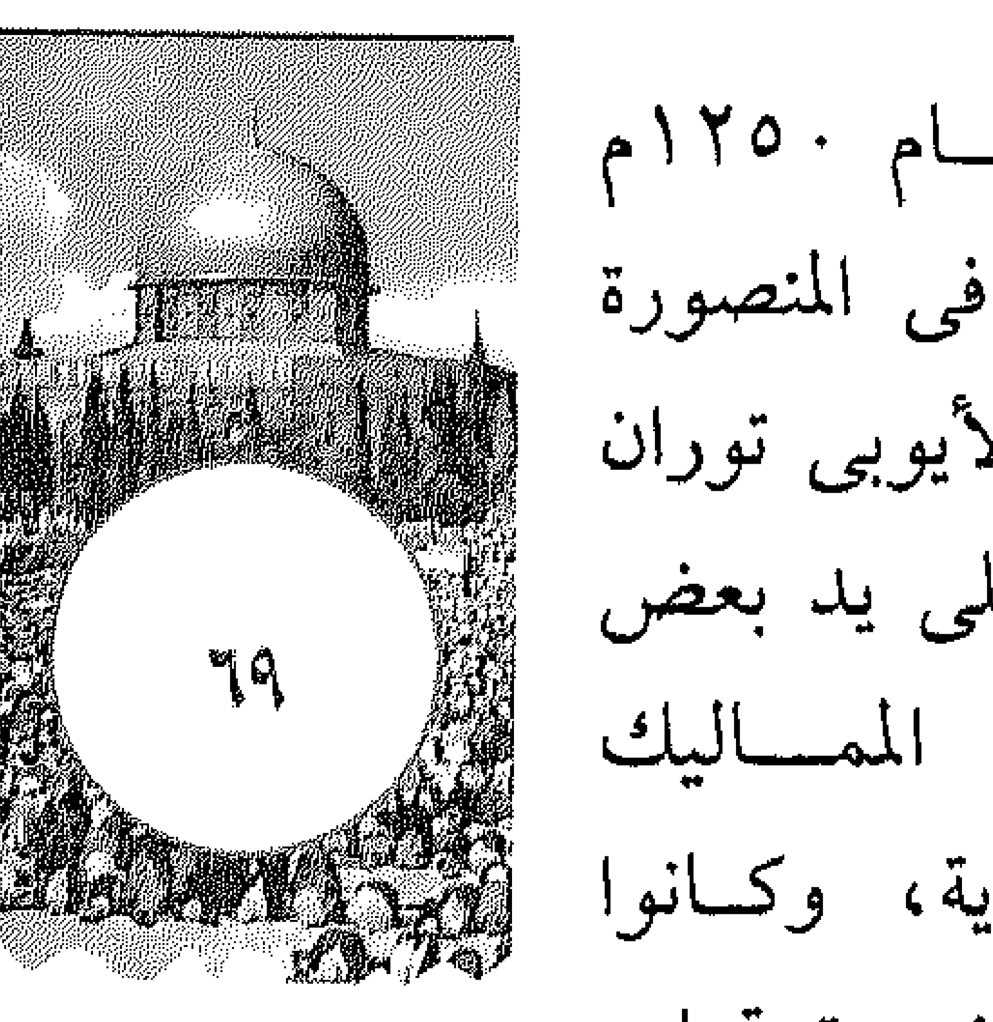
واستطاع فريدريك استغلال تناحر الجماعات الإسلامية، وأن يفرض شروطه على السلطان المصرى الذى تنازل له عن القدس والناصرة وبيت لحم مع شريط ساحلى لمدة عشر سنوات، مع احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية الأخرى التى كانت فى أيديهم بالفعل، حتى غزا الخوارزميون القادمون من آسيا الوسطى شمالى سورية - بعد اتحادهم مع المصريين - وتمكنوا من الاستيلاء على القدس عام ١١٤٤م، وأغاروا على سورية واحتلوها، واضطر الخوارزميون - نتيجة الخلافات فيما بينهم - إلى ترك فلسطين تحت حكم مماليك مصر الذين خلفوا الدولة الأيوبية، حيث استعاد المماليك القدس.

الحملة الصليبية السابعة (١٢٣٩م):

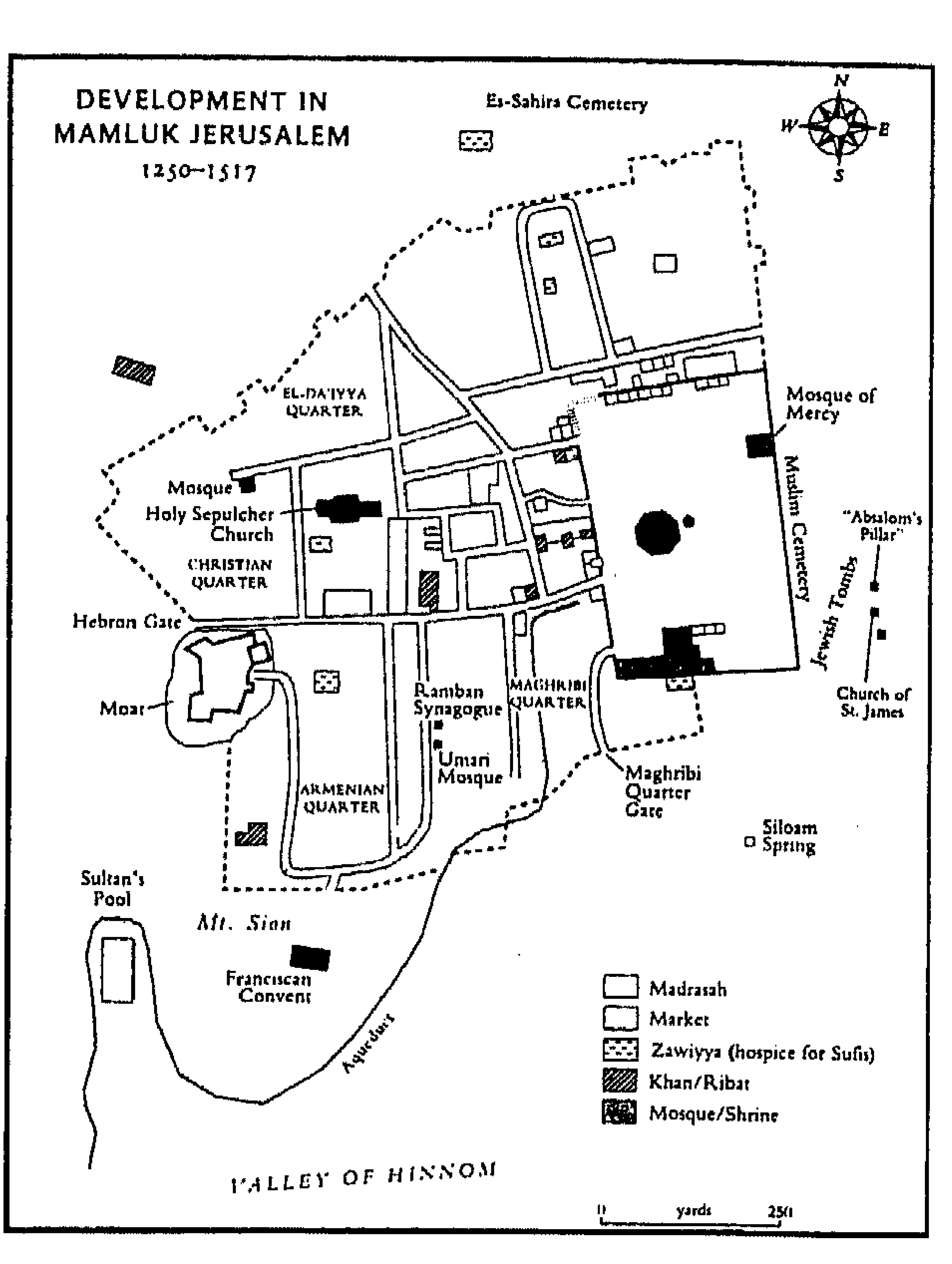
مع نهاية سنوات الهدنة بين فردريك والمسلمين، كانت الحملة الصليبية السابعة قد جاءت بقيادة ثيوبالد، ونزلت فى عكا، إلا أنها هزمت شر هزيمة على أيدى المسلمين فى عسقلان وتم أسر الكثيرين منهم.

القدس المملوكية (١٢٥٠ - ١٥١٧م):

بعد وفاة صلاح الدين والعادل الأيوبيين، حكم ورثتهما مصر والمدن السورية وما بين النهرين، وقد استغل أعداء الشرق الإسلامى ما بين هؤلاء الورثة من عداوات أججت نيران الحروب بينهم.



وفى عـــام ١٢٥٠م اغتـيل فى المنصورة الأمير الأيوبى توران شـاه على يد بعض الأمـراء المـمـــاليك البـحـرية، وكـانوا يمثلون خيـرة قوات الحكم الأسبق، ولم يـكن هناك مرشح شـرعى ذو مكانة يخلفـه، ناهيك عن تعاظم دور المماليك وبروزهم كقوة فى الدفاع عـن مصالح مـصر إبان حـملة لويس التـاسـع، مما أدى إلى حـدوث انقلاب فى السلطة، حيث تم استبعاد أبناء العائلة الأيوبية تدريجياً عن مراكز السلطة، بل حرموا - فـيما بعد - من ألقـابهم الرسـميـة، وأمـسك ضبـاط المماليك بزمام الأمور.



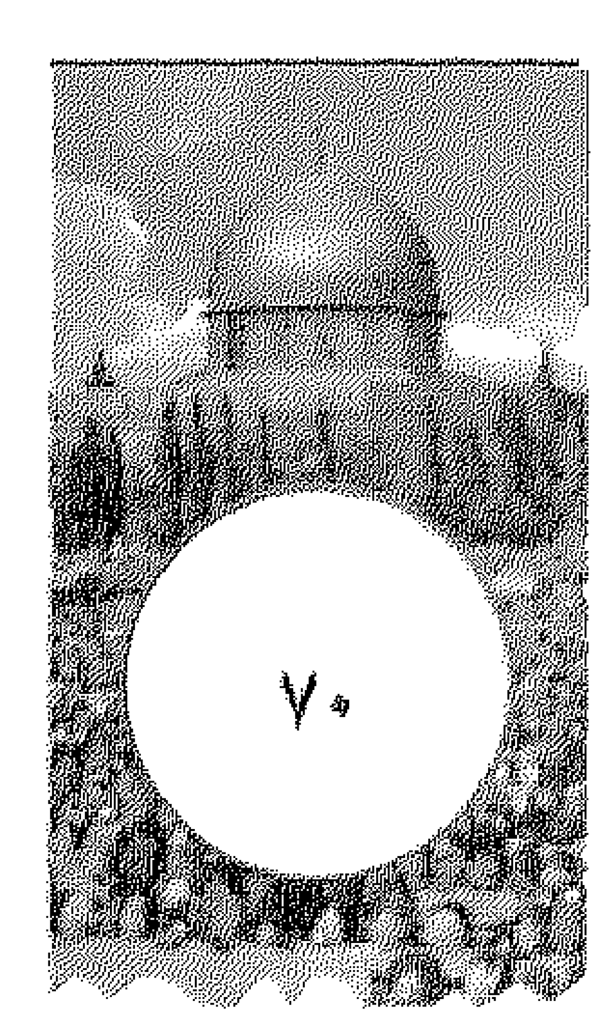
خريطة (١٣)

وبعد عقد من الزمـان، استطاع سلطان مصر من خلال استغـلاله الضعف العسكرى والفوضى السياســية التى أصابت سورية مع قدوم المغول، أن يطيح بـحكام دمشق وحلب، وأن يسيطر على الشام كله.

وقد واجهت دولة المماليك منذ البداية بعض التـحديات العسكرية أخطرها المغول القادمون من صحارى آسـيا فى القرن الثالث عشر، الذيـن تمكنوا من احتلال بغداد مقر الخـلافة عام ١٢٥٨م، ومن ثم لم يوجه المماليك اهتماماً أمنياً كافياً للقدس ولباقى المدن الفلسطينية وذلك لسيطرتهم على مناطق شاسعة، ولمخاوفهم من هجمات المغول من شمال سورية.

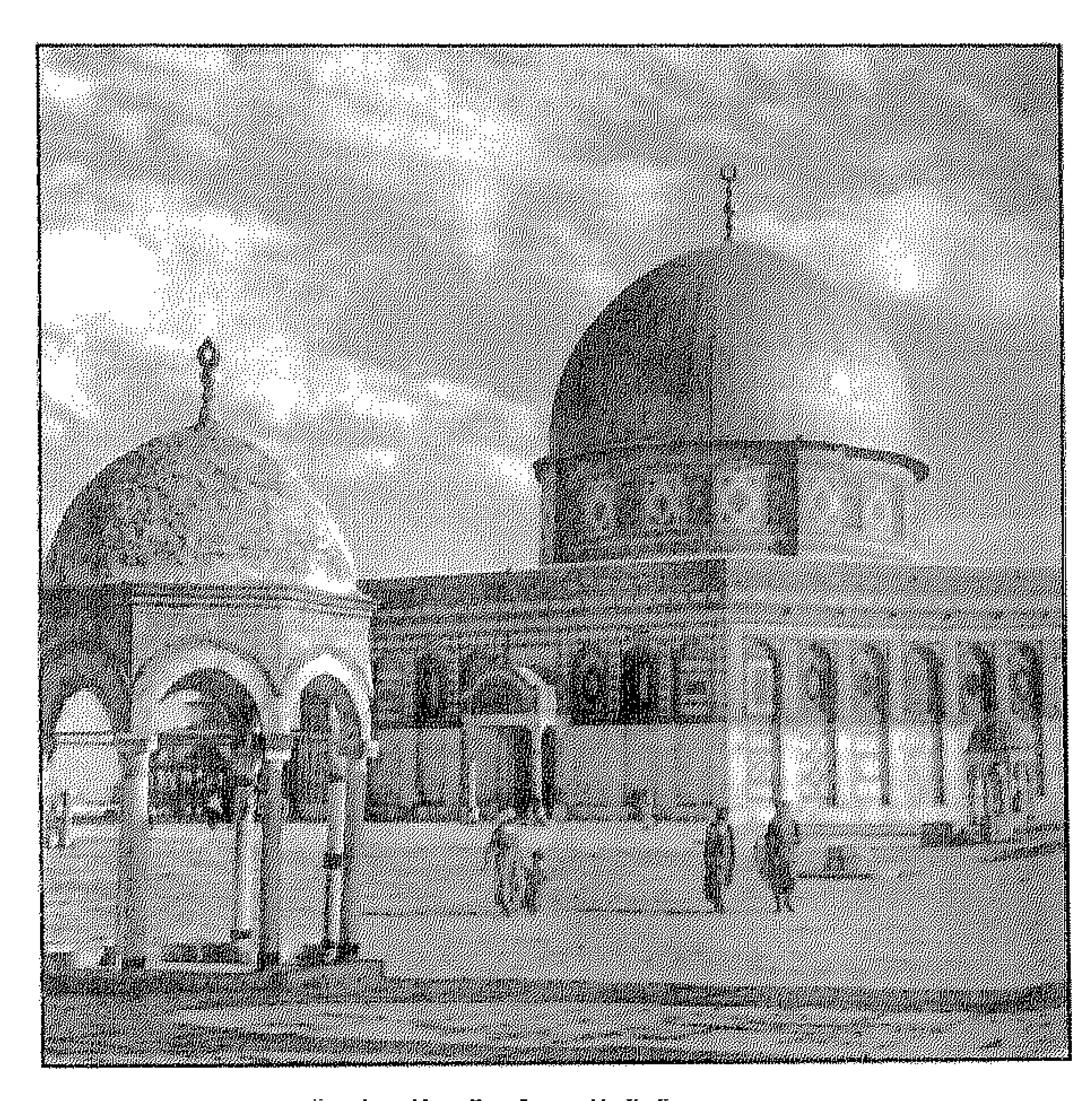
وواجه المماليك أيضاً فى بداية حكمهم المملكة الصليبيـة فى القدس، والتى كانت عاصمتها ما زالت فى عكا، وكانت قدراتهم البحرية مؤرقة للمماليك.

وفيما يتعلق بالقـدس لم يبذل المماليك جهداً لتحصينهـا وإعادة بناء أسوارها التى قام السلطان الأيوبى حاكم دمشق بهدمها عام ١٢١٩م خوفاً من خيانة شقيقه حاكم مصر، أما السور الذى كان قائماً قبل السور الذى بناه سليمان القانونى فى القرن السادس عشر فهو السور الصليبى أو الأيوبى، وهذا ما تؤكده الحفريات التى أجريت مؤخراً فى السور الغربى والجنوبى.

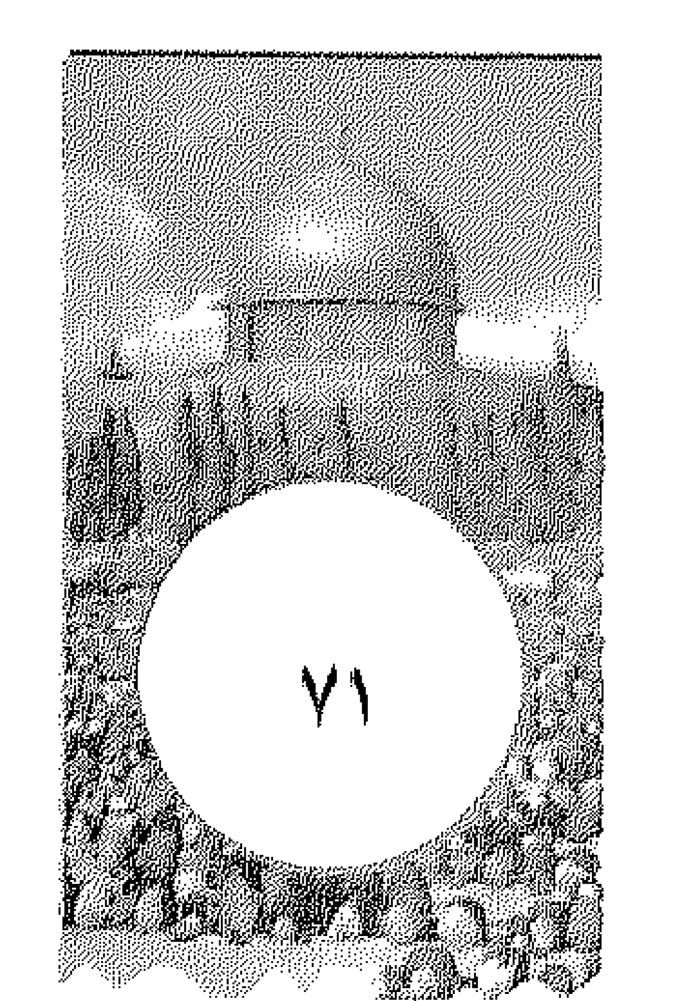


ولم تكن للقدس فى تلك الفترة أهمية سياسية أو عسكرية بالنسبة للمماليك، فكان مقر السلطان وحصن جنوده والمركز الإدارى والقضائى وخزانة الدولة والمؤسسات التدريسية فى مصر، وقد بدأ السلطان بيبرس - أبرز سلاطين المماليك - فى الستينيات من القرن الثالث عشر بشق الطرق وبناء المحطات والجسور بهدف تأمين الاتصال السريع بين المدن السورية والقلاع المصرية، كما واصل ورثته ذلك النشاط.

ولقد تمت إقامة بعض المبانى ذات النقوش الجميلة فى الشوارع الرئيسة للقدس بمبادرة من الأمراء المماليك المستبعدين من قبل السلطان، الأمر الذى يكرس عدم اهتمام سلاطين المماليك بالقدس من الناحية السياسية، ومن ثم لم يتحسن وضعها الاقتصادى.


مسجد قبة الصخرة والساحة

لكن المكانة الدينية للمدينة كرمز إسلامى كانت بارزة وذات تأثير كبير على الأوساط الشعبية بشكل عام والطبقة الحاكمة بشكل خاص، وعمل المماليك على إعلاء شأن القدس كمدينة إسلامية واتضح اهتمامهم من خلال ما أقاموه من منشآت فى منطقة الحرم، وقام بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بتجديد الفسيفساء الخارجية حول الأضلاع الثمانية لقبة الصخرة، كما قام ببناء محراب فى قبة السلسلة وأصلح قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) سقف المسجد الأقصى فى الجهة الجنوبية الغربية، ورمم ابنه الناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٩ - ١٣٤٠م) السور الجنوبى للحرم، كما غطى حائط قبلة المسجد الأقصى بالرخام، وسبك الذهب من جديد فى قبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبنى القناطر فى الجزء المرتفع من الدرج الشمالى الذى يوصل من المنطقة السفلى للحرم إلى المنطقة المرتفعة التى تقوم عليها قبة الصخرة، وبنى الأشرف شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٧م) مئذنة باب الأسباط، كما أمر برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨م) بإدخال نسخة فريدة من القرآن الكريم مزينة ومنقوشة من أجل حراستها فى المسجد الأقصى، كما بادر قايتباى إلى بناء أفخم مدرسة مملوكية فى القدس وهى المدرسة الأشرفية، وقام آخر سلاطين المماليك قنصوة الغورى (١٥٠٠ - ١٥١٦م) بتغطية قبة



المسجد الأقصى وقاعدة قبة الصخرة مرة ثانية بالرصاص، كما مسح الحيطان ودهن أبواب المسجد الأقصى بالألوان الزيتية.

وقد أسهمت الحملات الصليبية فى إلهاب مشاعر الزهاد المسلمين فى الشرق كله، وسارعوا إلى الحياة فى القدس أو زيارتها، ووفدوا إليها من كل فج عميق، وأقاموا أحياءهم ومساجدهم ومدارسهم، وتزايد عدد الصوفيين فى القدس، منهم من أتى عابراً، ومنهم من استقر فى القدس، وازدهرت الأعمال الخيرية فى المدينة، وكثرت الأوقاف الإسلامية، وتعددت المدارس الدينية بمبادرات من السلاطين والأمراء والضباط وحكام المدن، وبذلت الأموال من العامة والخاصة، واحتل الحرم الشريف مكان الصدارة فى الحياة الروحية والدينية لمدينة القدس، وحظى الحرم القدسى باهتمام المسلمين فى المدينة.

وتم تزويد القدس بالمياه من عدة مصادر، وأحاطت البساتين المثمرة بالقدس من كل جانب، ويصفها الحاخام اليهودى مئير لطيف قائلاً : «إن القدس تزينها الثمار التى لم أر أجود منها كما لم أعرف أسماءها».

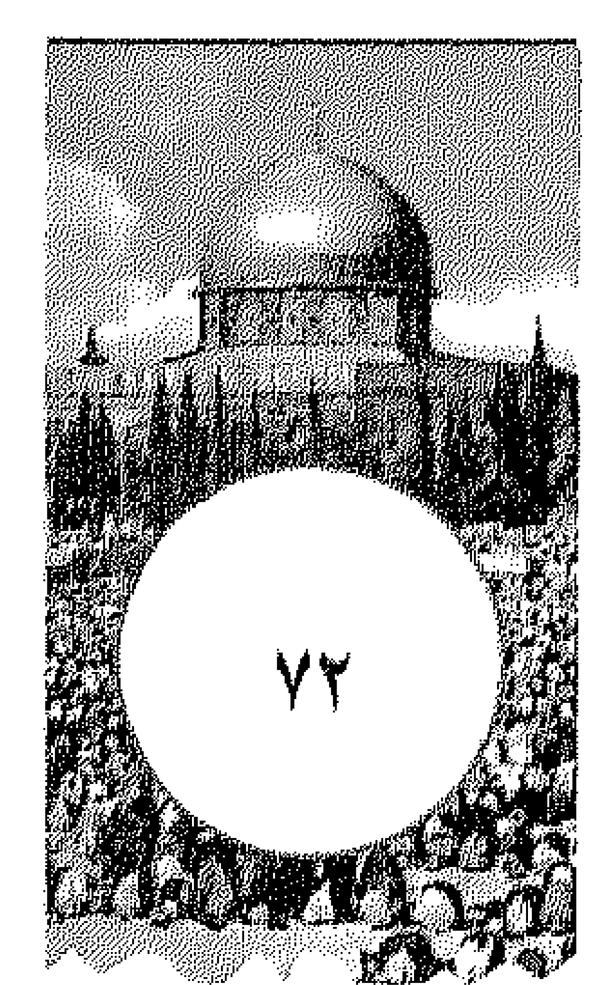
أما فيما يتعلق بأبناء الطوائف الأخرى، فقد عاشت فى القدس فى أواخر القرون الوسطى أقلية نصرانية تركزت فى الأساس حول كنيسة القيامة، ونشب نزاع بينهم وبين اليهود حول بعض الأماكن المقدسة فى المدينة.

ويمكن القول بأن نصارى الشرق لم يتعرضوا لأى اضطهاد من قبل المماليك، إذ كانوا أقرب فى طباعهم وعاداتهم إلى المسلمين منهم إلى النصارى الكاثوليك الأوروبيين، كما حصل النصارى الأرمن على مرسوم بحماية ممتلكاتهم من قبل السلطان المملوكى «جقمق» ما زال مرسوماً حتى الآن على لوح فى المدخل الجنوبى لحارة الأرمن.

أما عن اليهود فى القدس فى زمن المماليك فليست هناك معلومات وفيرة عنهم، وقد كان مكان تواجدهم فى حارة اليهود وتقع فى الجزء الجنوبى من الطريق التى توصل بين باب العمود وباب النبى داود، وقد وصف أحد الحجاج اليهود العلاقات بينهم وبين جيرانهم بقوله : «إن العرب يعيشون بسلام معنا لا يقومون عموماً بالاعتداء أو بالسلب».

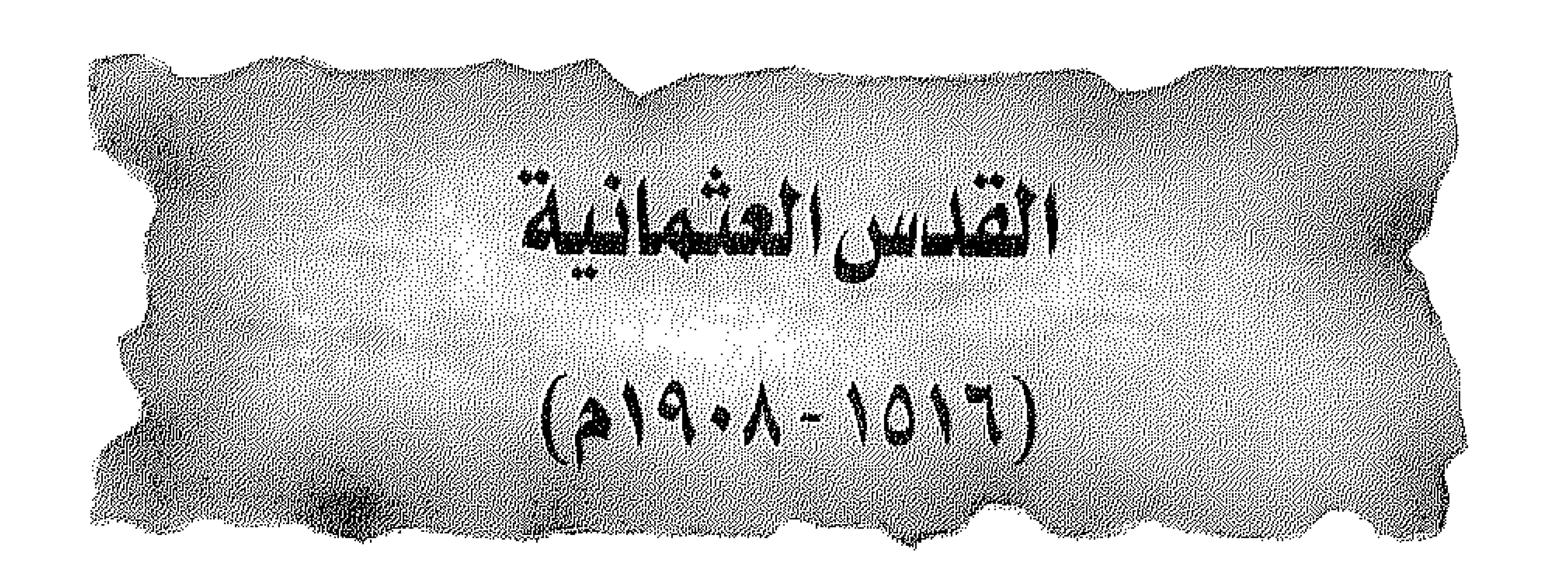
لقد كان اليهود أقلية فى القدس لا تشكل أى خطر على الطابع الإسلامى للمدينة، ولم تكن لهم طموحات سياسية، ومن ثم كانوا فى ذمة السلطان شرعاً، ولم يكن من السهل وقوع حوادث معادية لهم من قبل عامة الناس.

أما فيما يتعلق بالنشاط الصليبى المعادى للمسلمين فى عصر المماليك فإن المحاولات الصليبية لاحتلال القدس، قد باءت كلها بالفشل، وكانت آخر محاولة هى التى قام بها بيتر ملك قبرص

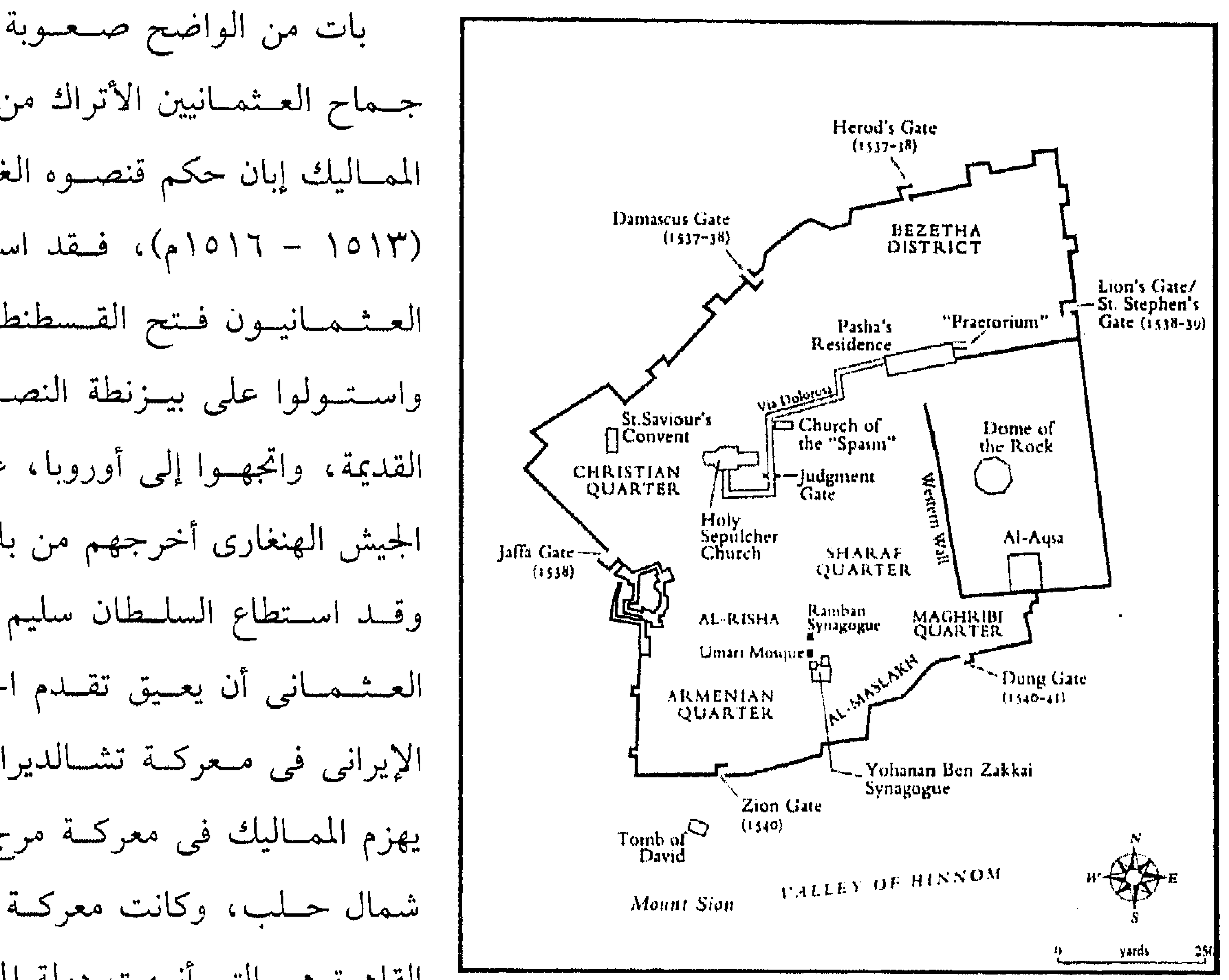


عام ١٣٥٩م، حيث أغار على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م ونهبها ثم رحل إلى سورية بعد سنتين، وقتل عام ١٣٦٩م لتنتهى معه أسطورة الحروب الصليبية، وإن لم تنته - حتى الآن - الدوافع والأطماع التى حركت هذه الحملات لعدة قرون.

وفى عام ١٢٩١م تمكن السلطان المملوكى خليل من تدمير مملكة عكا الصليبية تماماً، وطرد الصليبيين منها، لتعود فلسطين لأول مرة إلى أيدى المسلمين منذ ما يقرب من قرنين.



بات من الواضح صعوبة كبح جماح العثمانيين الأتراك من قبل المماليك إبان حكم قنصوه الغورى (١٥١٣ - ١٥١٦م)، فقد استطاع العثمانيون فتح القسطنطينية، واستولوا على بيزنطة النصرانية القديمة، واتجهوا إلى أوروبا، غير أن الجيش الهنغارى أخرجهم من بلغراد. وقد استطاع السلطان سليم الأول العثمانى أن يعيق تقدم الجيش الإيرانى فى معركة تشالديران وأن يهزم المماليك فى معركة مرج دابق شمال حلب، وكانت معركة شمال القاهرة هى التى أنهت دولة المماليك بالفعل.



خريطة (١٤)
قدس العثمانيين ١٥١٧ - ١٩١٧م

وفى أول ديسمبر عام ١٥١٦م وصل سليم الأول إلى القدس، حيث لم يجابه بأية مقاومة، بل خرج العلماء للقائه وأهدوه مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة.

وكانت القدس قد عاشت حالة من الإهمال مع أفول نجم المماليك، إلا أن العثمانيين، بما لهم من خبرات عسكرية وإدارية، تمكنوا من إعادة النظام والقانون مرة أخرى إلى فلسطين كلها، وتحسنت أحوالها، واستقرت أوضاعها، وقسمت فلسطين إلى ثلاث مناطق (سناجق) تشمل القدس ونابلس وغزة، ولم يسكن الأتراك القدس، وإنما أرسل العثمانيون إليها حكاماً (باشوات) فقط ومسئولين مدنيين وقوة صغيرة كان مركزها فى القلعة.

وبعد استقرار الفتوحات العثمانية فى أوروبا، اتجه العثمانيون إلى التنمية الداخلية، حيث شهدت الإمبراطورية العثمانية صحوة حضارية، استفادت القدس منها وبخاصة إبان حكم السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦م)، الذى أمر بإعادة بناء أسوار المدينة، وبلغ طول الحائط الذى ما زال قائماً حتى اليوم ميلين، وارتفاعه نحو أربعين قدماً، وأحاط بالمدينة تماماً، وكان به أربعة وثلاثون برجاً وسبع بوابات.

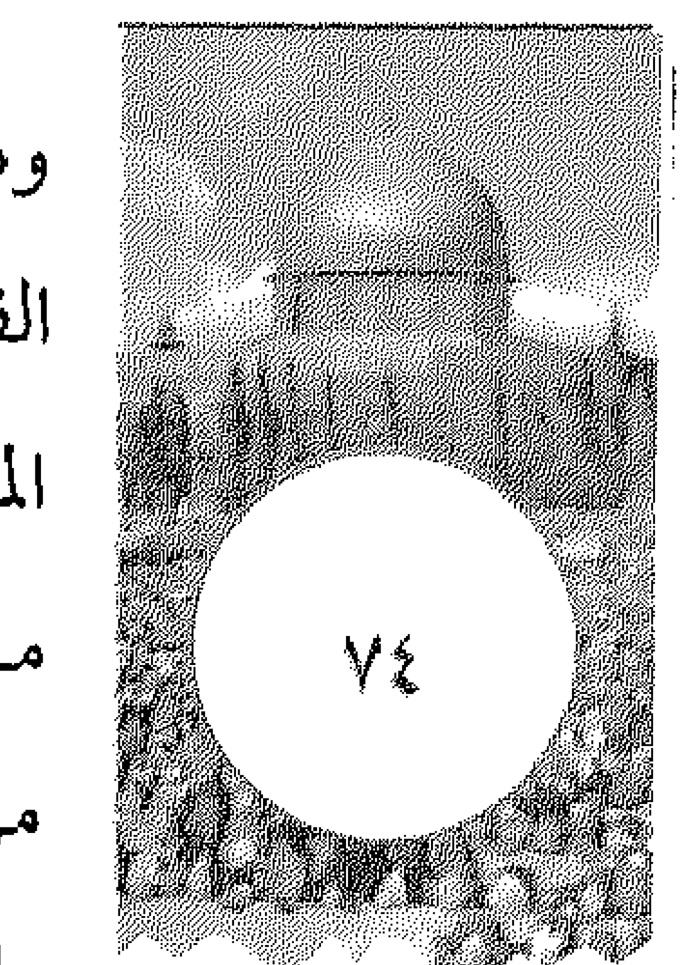
ووجه السلطان سليمان اهتمامه لنظام المياه بالمدينة، فبنى النافورات، وشق القنوات والبحيرات، وجددت «بحيرة السلطان» جنوب غربى المدينة وأصلحت قنواتها، وحاول السلطان حث رعاياه على سكنى المدينة بما فى ذلك اليهود الذين استقروا فى الإمبراطورية العثمانية بعد طردهم من أسبانيا النصرانية عام ١٤٩٢م.

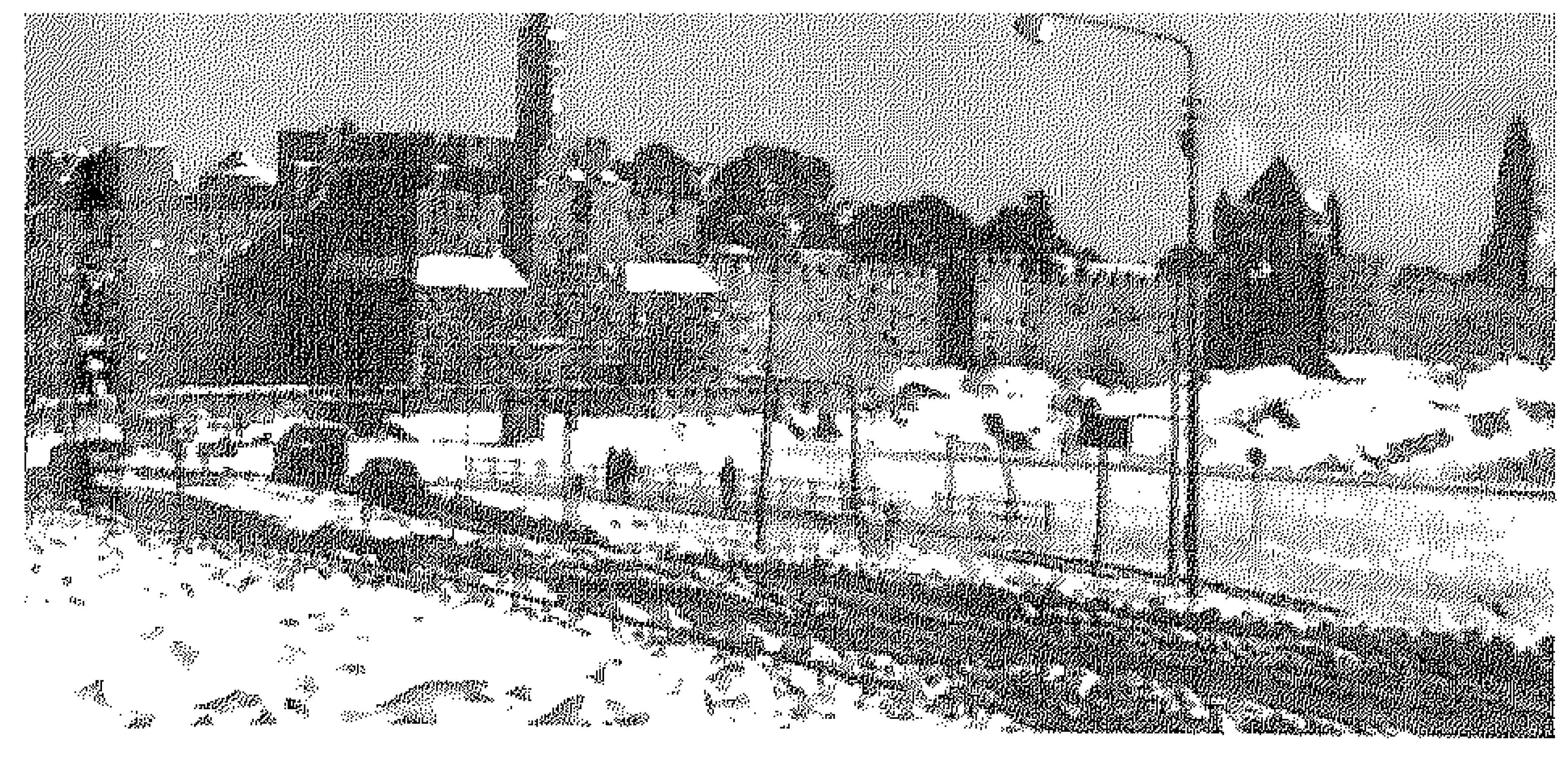
وقد ساعدت تلك الفعاليات على ظهور اتجاهين أساسيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر، تمثلا فى : تزايد كبير فى عدد السكان المحليين، وتعاظم الأحوال الاقتصادية.

ففيما يتعلق بسكان القدس، تشير الإحصاءات إلى وجود ما يقرب من ١٣٣٨٤ نسمة، وبلغ عدد السكان اليهود والنصارى حوالى ١٦٥٠ نسمة من كل طائفة، وكان معظم المسلمين عرباً محليين من أهل السنة، بالإضافة إلى مسلمين من شمال أفريقيا ومصر وفارس والعراق والبوسنة والهند وآسيا الصغرى، وكانت القدس أكثر مدن فلسطين ازدحاماً بالسكان.

أما فيما يتعلق باقتصاد المدينة، فإن قوائم تحرير سناجق الإمبراطورية وسجل المحكمة الشرعية فى القدس يشير إلى حالة الأمن التى سادت المدينة **بعد تشييد الأسوار وبناء البوابات والأبراج،** ومشاريع المياه التى أقامها السلطان العثمانى سليمان القانونى، والتى أدت إلى زراعة الخضروات والكروم والبساتين داخل وخارج الأسوار.

وقد تم تطوير أسواق المدينة، وارتفعت أسعار البضائع، وازدهرت أربع صناعات مهمة هى: صناعة الأغذية، والنسيج، والصابون، والجلود، وكان الصابون المقدسى يصدر إلى مصر ورودس



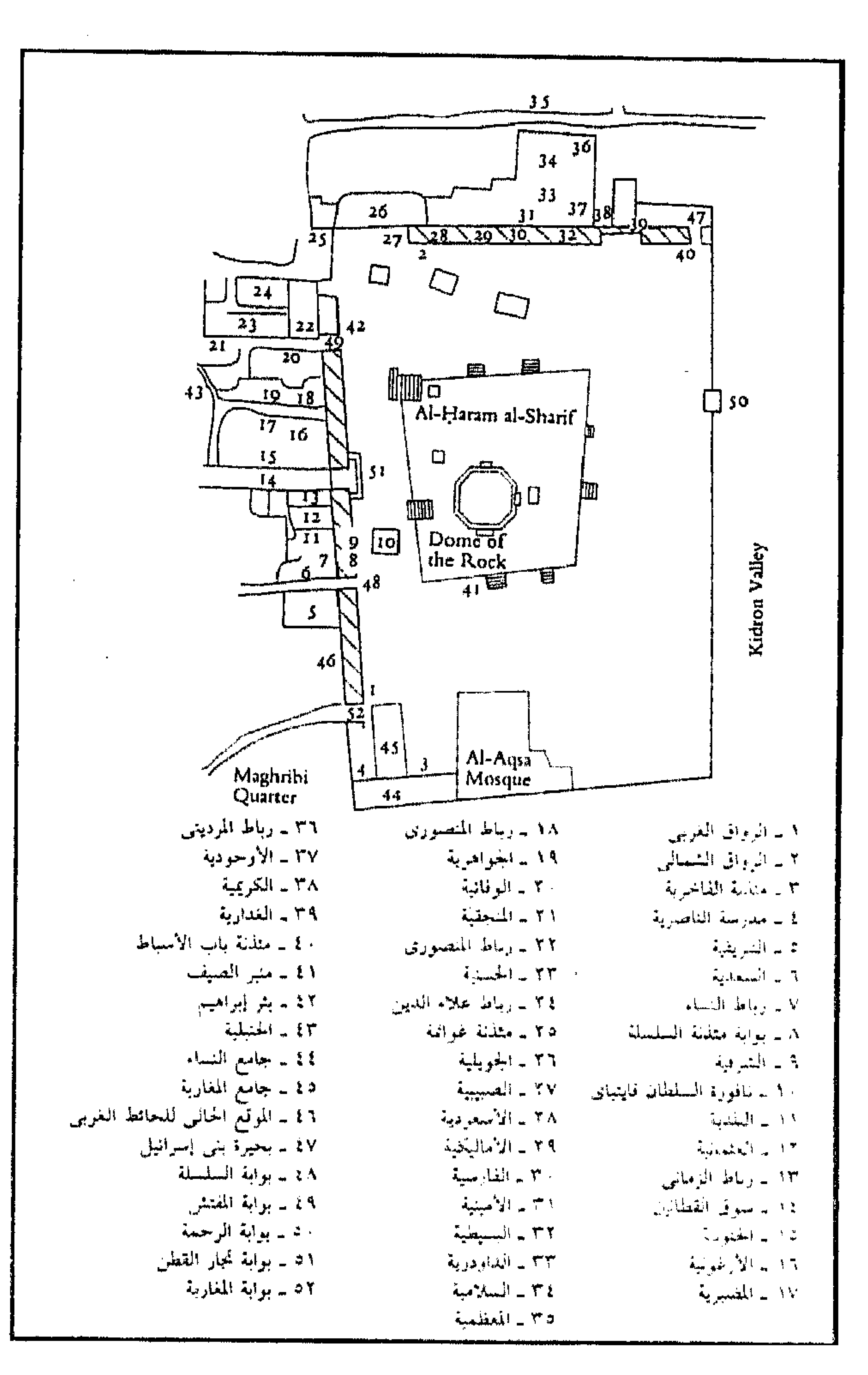




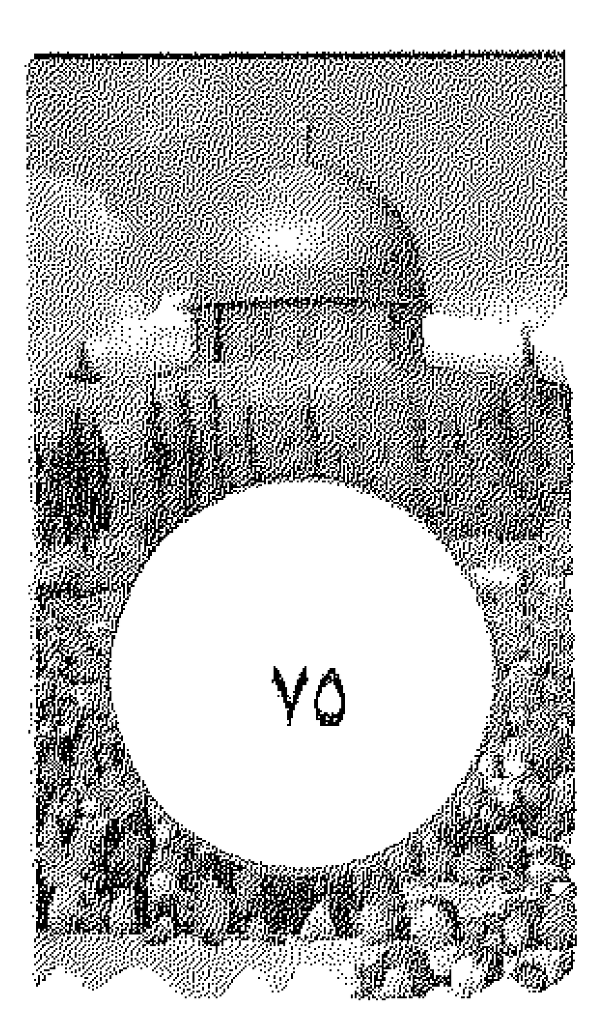
ودبروفنيك، بينما كانت القدس تستورد المنسوجات والأرز من مصر، والملابس والبن من دمشق، والسجاد والملابس من أسطنبول والصين والحجاز، وانتظمت الحرف والصناعات فى القدس فى أربعين طائفة لكل طائفة شيخها ونائبه، وازدادت الحوانيت وارتفعت أسعارها، مما يعكس الازدهار التجارى فى المدينة.

أسوار وبوابات القدس العثمانية

ونتيجة لهذا كله، تم ترفيع منزلة القدس إدارياً فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، وأصبحت «متصرفية» وهى وحدة إدارية كبرى تحوى سناجق نابلس وغزة، وحمل الباشا الذى يحكمها لقب «المتصرف» وكانت سلطة قاضى القدس متسعة لتشمل من غزة إلى حيفا.



خريطة (١٥)
تطوير الحرم فى ظل المماليك
١٢٥٠ - ١٥١٧م



ولم يغب عن اهتمام السلطان سليمان القانونى أمر الحرم القدسى، فقد قام بترميم فسيفساء الجزء الأعلى من الحائط الخارجى لقبة الصخرة، كما غطى الجزء الأسفل بالرخام، وتمت تغطية قبة السلسلة بزخارف جميلة. وبنى سليمان كذلك نافورة رائعة للوضوء فى الفناء الأمامى للمسجد الأقصى، وأعاد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس، وتنازل عن حقه فى رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل تلاوة القرآن فى قبة الصخرة لمدة عام، وقامت زوجه «رولكسانه» - وهى روسية الأصل - بإنشاء تكية فى القدس عام ١٥٥١م، ومجمع كبير ضم مسجداً ورباطاً.

ومع أن معظم اليهود آنذاك قد فضلوا الإقامة فى طبرية وصفد، إلا أن مجتمعهم فى القدس قد تزايد فى عهد السلطان سليمان القانونى، ولم يكن لهم حى يهودى رسمى، وإنما عاشوا فى ثلاث مناطق سكنية فى جنوب المدينة وهى : الريشة وشرف والمسلخ، حيث عاشوا مع المسلمين، وتمتعوا بحرية أدهشت الزوار الأوروبيين، إذ تقلدوا المناصب الحكومية ولم تفرض عليهم ضريبة خاصة، وكانوا يحظون بحماية المحاكم، وتقبل شهادتهم.

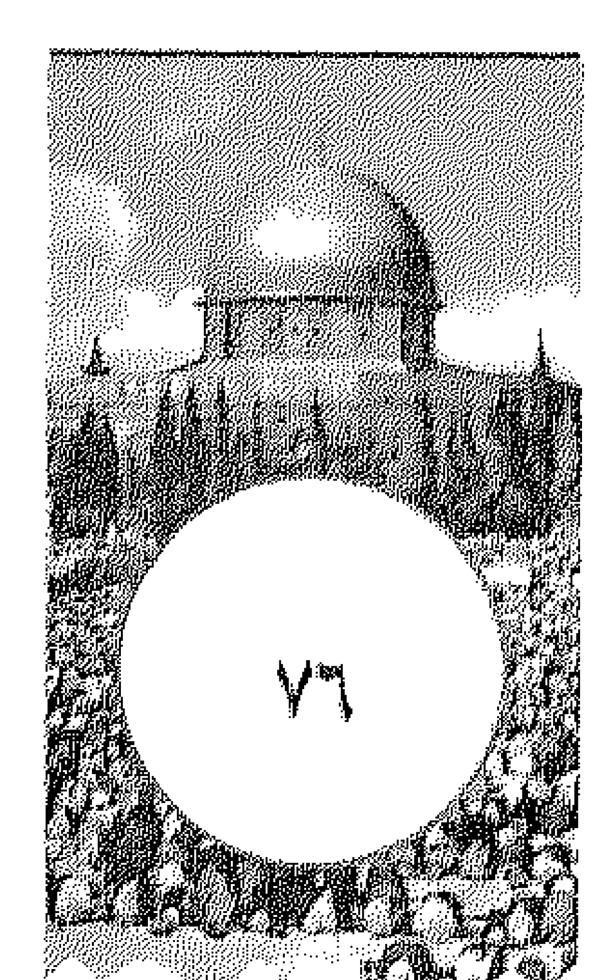
وقد وصل إلى القدس عام ١٥٢٣م شاب يهودى ادعى أنه المسيح المنتظر، حيث زعم أنه أمير مملكة يهودية، وأن اليهود سيعودون إلى أورشليم، وقد رفض يهود القدس تلك المزاعم، وإن كان يهود البلدان الأخرى قد تأثروا بتلك الدعوة وأخذوا يبيعون أملاكهم استعداداً للرحيل إلى مهبط «المسيح المنتظر».

وتركزت نشاطات داود الرأوبينى - المسيح المزعوم - فى منطقة الحائط المساند الغربى للحرم، وهو ما تبقى من آثار مغبد هيرود، وقد بنيت المدارس على طول هذا الحائط فى عصر المماليك باستثناء حوالى اثنين وعشرين متراً بين طريق السلسلة وباب المغاربة، ولم يكن اليهود يبدون أى اهتمام بذلك الجزء من الحائط، كما كان المكان فى عهد هيرود جزءاً من مركز تجارى ولم يكن له أهمية دينية على الإطلاق.

وكان اليهود يتجمعون للصلاة على جبل الزيتون وعند بوابات الحرم، ولما منعهم الصليبيون من ذلك كانوا يصلون عند الحائط الشرقى جبل المعبد.

ونظراً لهجمات البدو على اليهود فى العصر المملوكى أثناء صلاتهم على جبل الزيتون خارج المدينة، تحول اليهود إلى ساحة الامتداد الخالية من الحائط الغربى للحرم حيث تشبثوا بآخر صلة لهم بالماضى.

وحينما كان سنان باشا يقيم بالمدينة أثناء بناء **حائط القدس**، أصدر سليمان القانونى فرماناً **يسمح بمكان لليهود للصلاة عند الحائط الغربى**، ويروى أن سنان هو الذى قام بتخطيط الموقع



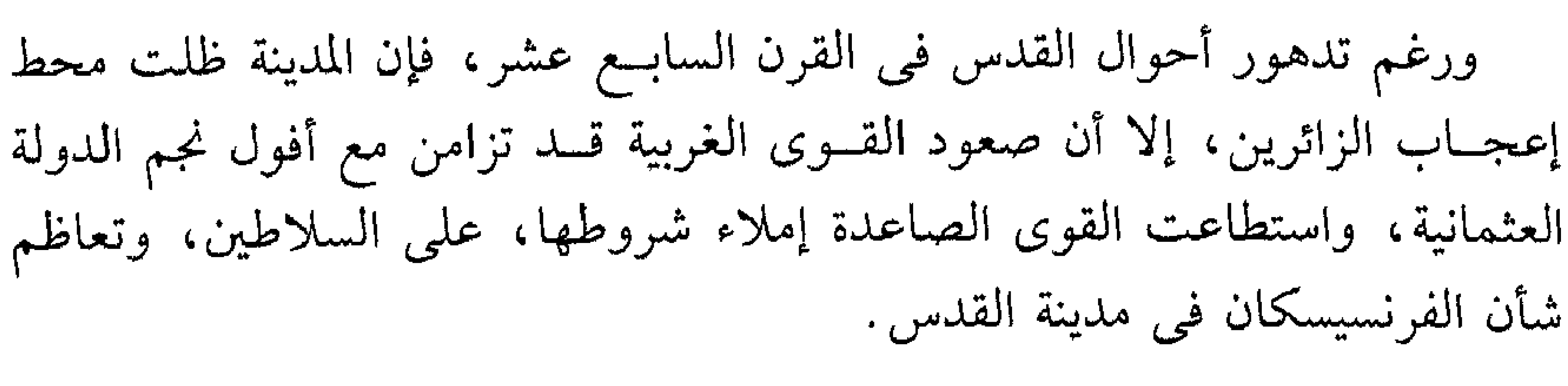
وبالحفر كى يتيح للحائط ارتفاعاً أكبر، وقام ببناء حائط مواز له كى يفصل مصلى اليهود عن حى المغاربة، ولم يتعد عرض هذه المنطقة آنذاك ثمانية أقدام، وسرعان ما أصبحت هذه المنطقة المحاطة عند **الحائط الغربى** مركز الحياة الدينية ليهود القدس، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن لليهود وجود دينى ملحوظ فى هذه المنطقة قبل ذلك.

ولم تكن لليهود فى هذه المنطقة شعائر دينية، واقتصر وجودهم على تلاوة المزامير وتقبيل الأحجار، إلا أن الأساطير اليهودية - التى تميز العقلية اليهودية على مر تاريخها - قد نسجت حول الحائط، وتم ربطه بمقولات تلمودية، وساد الاعتقاد «بالحضور الإلهى» فى هذا المكان، وتبع ذلك ممارسات وسلوكيات يهودية لم تكن معروفة بينهم من قبل، الأمر الذى أدى إلى حالة من التوتر بينهم وبين المسلمين، لتجاوزهم الحد المسموح لهم بعد تزايد أعداد القادمين إلى المكان.

بدأت حالة من التوتر تسود بين المسلمين واليهود فى القدس، كما نشأت حالة توتر أخرى بين المسلمين والنصارى الغربيين فى القدس نتيجة الفتوحات العثمانية فى الغرب والتى نتج عنها تغير المكانة النسبية للطوائف النصرانية المختلفة. فاليونانيون الأرثوذكس والسوريون من الأرمن رعايا عثمانيون، أى أعضاء طوائف دينية معترف بها، أما الفرنسيسكان فكانوا أجانب مقيمين، وإن تزايد عددهم وقويت شوكتهم فى آخر أيام المماليك، الأمر الذى نتج عنه توتر الأوضاع بينهم وبين اليونانيين الأرثوذكس كذلك.

وبدأت الإمبراطورية العثمانية فى التدهور بعد وفاة سليمان القانونى عام ١٥٦٦م، فقد تدهور الاقتصاد بسبب النقص الحاد فى الإنتاج الزراعى، كما ازدادت الخسائر التجارية نتيجة فتح طرق تجارية بحرية إلى الهند، وبدأ تذمر الانكشارية والفلاحين فى تركيا والأقاليم، وفقدت الإمبراطورية سيادتها العسكرية بعد هزيمة العثمانيين فى معركة لوبانتو عام ١٥٧١م، وانعكست آثار ذلك كله على القدس، إذ بدأ الباشوات يضطهدون سكانها المسلمين واليهود والنصارى، وغادر كثير منهم المدينة فيما بين عامى ١٥٧٥ - ١٥٨٤م، كما تدهور الأمن فيها، وبدأ البدو فى مهاجمة الحجاج والزائرين، مما دفع الحكومة إلى إنشاء المستوطنات الريفية للبدو فى المناطق الزراعية، وتم بناء القلاع وإقامة حاميات. وفى عام ١٦٣٠م بنى السلطان مراد الرابع قلاعاً كبيرة بالقرب من بيت لحم وبحيرة السلطان غير أن انشغال تركيا بحروبها فى أوروبا وروسيا لم يحقق الأمن المنشود للمدينة.

وفى خضم ذلك كله، لم يهمل السلاطين الحرم، فقد أعيد ترميم قبة الصخرة على أيدى السلطان محمد الثالث عام ١٥٩٧م والسلطان أحمد الأول عام ١٦٠٣م والسلطان مصطفى الأول عام ١٦١٧م، وأصدر السلاطين العديد من الفرمانات الخاصة بالأماكن المقدسة.



ورغم تدهور أحوال القدس فى القرن السابـع عشر، فإن المدينة ظلت محط إعجـاب الزائرين، إلا أن صعود القـوى الغربية قـد تزامن مع أفول نجم الدولة العثمانية، واستطاعت القوى الصاعدة إملاء شروطها، على السلاطين، وتعاظم شأن الفرنسيسكان فى مدينة القدس.

واشتـعل التنافس بين اليهـود والنصارى فـيما يتـعلق بالطقوس والشـعائر، ونادى «شبتـاى» اليهودى بنفسه «مـسيحاً منتظراً» عـام ١٦٦٥م، وإن كان يهود القدس قد توجسوا من ذلك خشية انتقام المسلمين منهم لانتهاك قداسة الحرم من قبل شـبتاى وأتـباعه، وازداد عـدد مؤيديه، وذهب شبـتاى إلى السلطان فى إسطنبـول يطلب منه تنصيبـه ملكاً لليهود وإعـادة أورشليم له، لكن السلطان خيره بين الموت أو اعتنـاق الإسلام فأعلن إسلامه، ومات بعد عـشر سنوات من ذلك وإن بقى أتباعه كما بقيت خيبـة أمل الأكثرية اليهودية فى المسيح الكاذب.

ومع تطور الغرب الأوروبى والاكتـشافات العلمية الحديثـة، تغيرت الجغرافيا المـقدسة القديمة، ولم يعـد الغربيـون ينظرون إلى الأمـاكن المقدسـة فى القـدس نفس نظرة السـابقين، بل لم تكن زياراتهم للمدينة كحجاج، وإنما كسائحين وحسب.

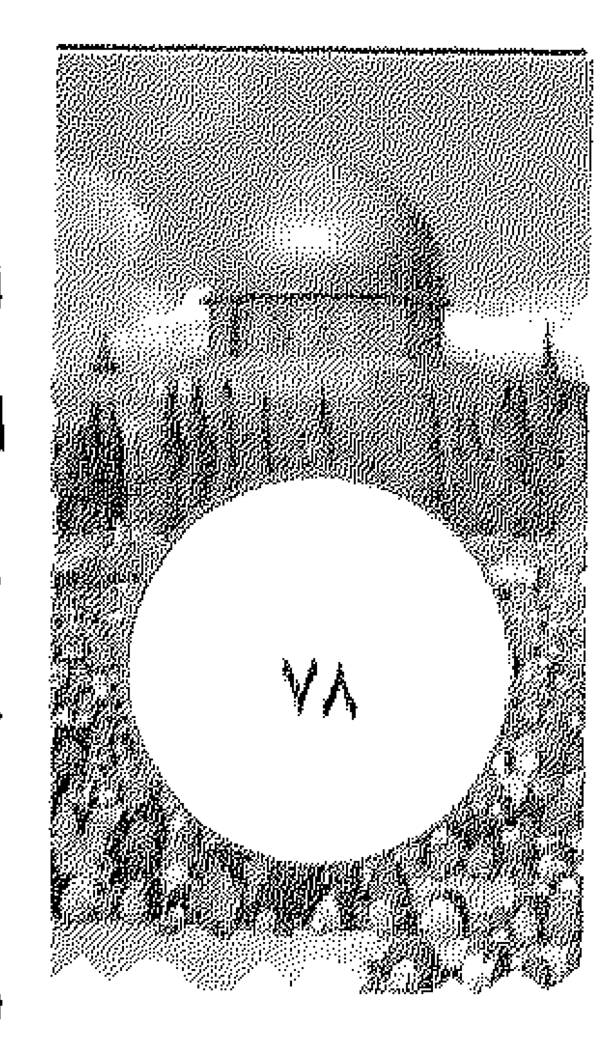
وانهـزم العثـمانيـون فى معـركـة بلغراد عـام ١٦٨٨م من النمسـا وبولندا وفـينسيـا، وبدأت الإمبـراطورية العثمـانية بحلول القرن الثـامن عشر فى التـداعى بشكل نهائى، إذ دب الفـساد فى أوصالها، وانغمس السلاطين فى ملذاتهم، وبدأ الرعايا يضيقون ذرعاً بسياساتهم الظالمة، وفى عام ١٧٠٢م قام سكان القدس بثـورة ضد حاكم المدينة جورجى محمـد باشا نتيجة الضرائب الـقاسية التى فرضـها عليهم، وأجـبروا خلالهـا الباشا على الفـرار، ولم يسيطر الأتراك على القـدس مرة أخرى إلا بعد عامين.

ونتيـجة ضعف الولاة الأتراك، قامـت العائلات المقدسيـة الكبرى بإدارة شئـون المدينة، وكان رجالاتها حلقة وصل بين السكان والحكام.

وفى الوقت الذى ظلت فيه القدس مـركز جذب للمتصوفين والعلماء، بدأت أحـوالها العلمية والاقتصادية فى التدهور، ولم يكن حال الذميين فيها أقل سوءاً من حال المسلمين.

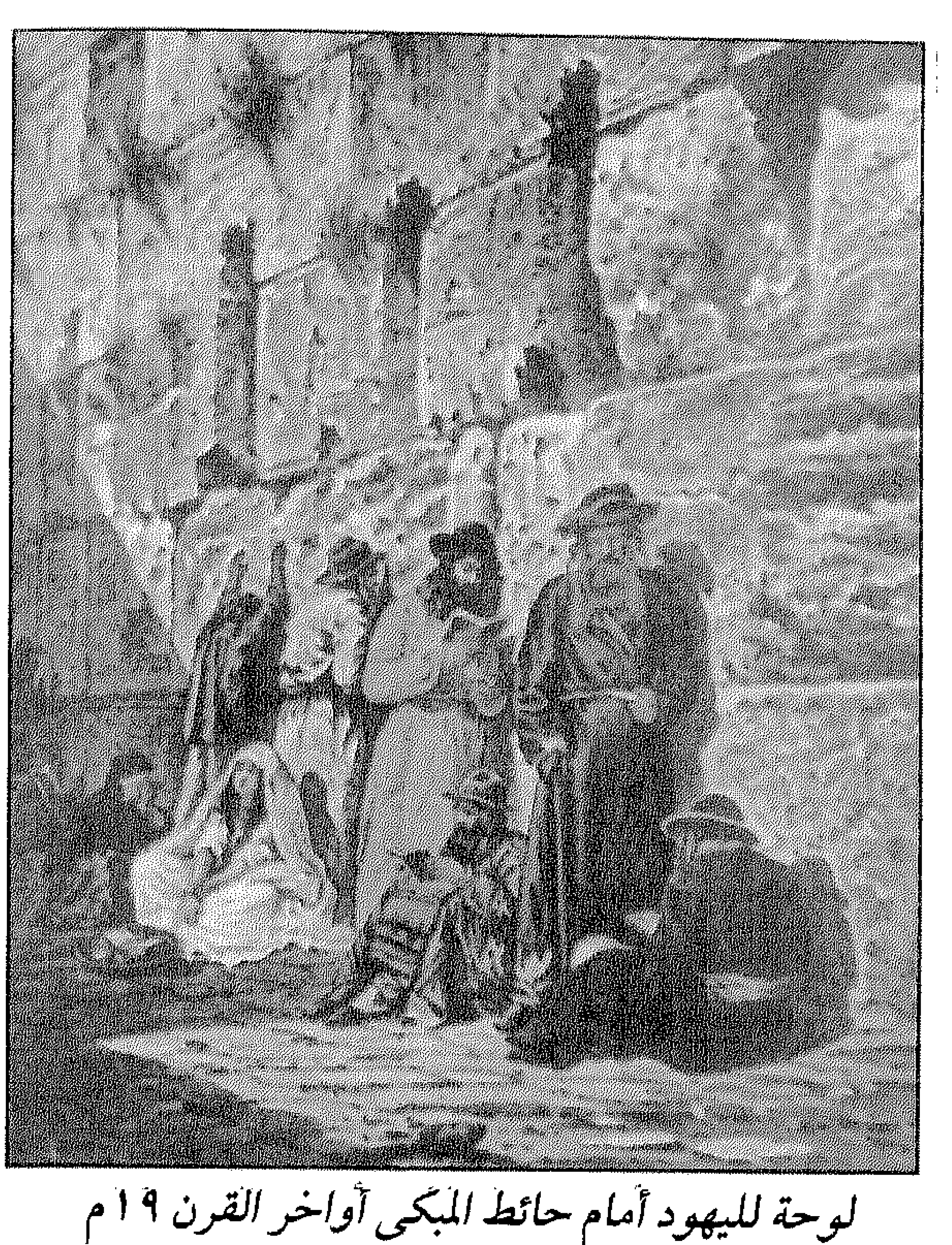
ومع بداية القرن الثامن عشر تزايد عدد اليهـود الإشكناز (الغربيين) فى القدس، وقاموا - بعد رشوة الولاة - ببناء المعابد والمساكن والمدارس.

وكان حـال النصارى اللاتين أفـضل من سائر إخوانهم، إذ كـان الغربيـون يمدونهم بالأموال، وتمكنوا من ترميم كنائـسهم وتوسيع أماكنهـم المقدسة، وزاد الضغط الغـربى على السلطان، وبلغ ذروته عام ١٧٣٢م حيث منحهم امتيازات دائمة، الأمر الذى دفع اليونانيين إلى التمرد والثورة عام ١٧٥٧م، مما أدى إلى صدور فرمان فى صالحهم، أصبحوا بموجبه رعاة للقبر المقدس حتى الآن.



وبنهاية القرن الثامن عشر أصبحت القدس مدينة يعمها الفقر، تهدمت حوائطها وأسوارها، وامتلأت بالقاذورات، وتحولت مبانيها إلى أطلال تشهد بما آلت إليه أحوال المدينة من سوء.

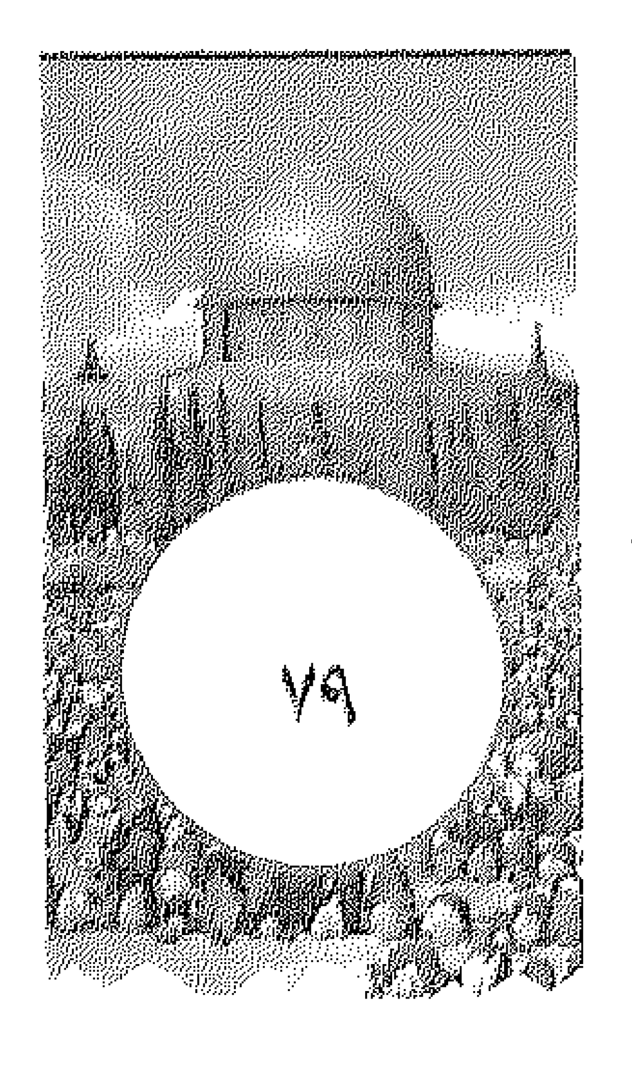
وفى عام ١٧٩٨م بدأت حملة نابليون على مصر بهدف إرساء وجود فرنسى فى الشرق، وفى يناير عام ١٧٩٩م، أرسل نابليون ١٣٠٠ جندى فرنسى إلى فلسطين، وهزم العثمانيين فى العريش وغزة ثم تقدم نحو عكا، ووجه نابليون خطابه من رام الله إلى اليهود والنصارى



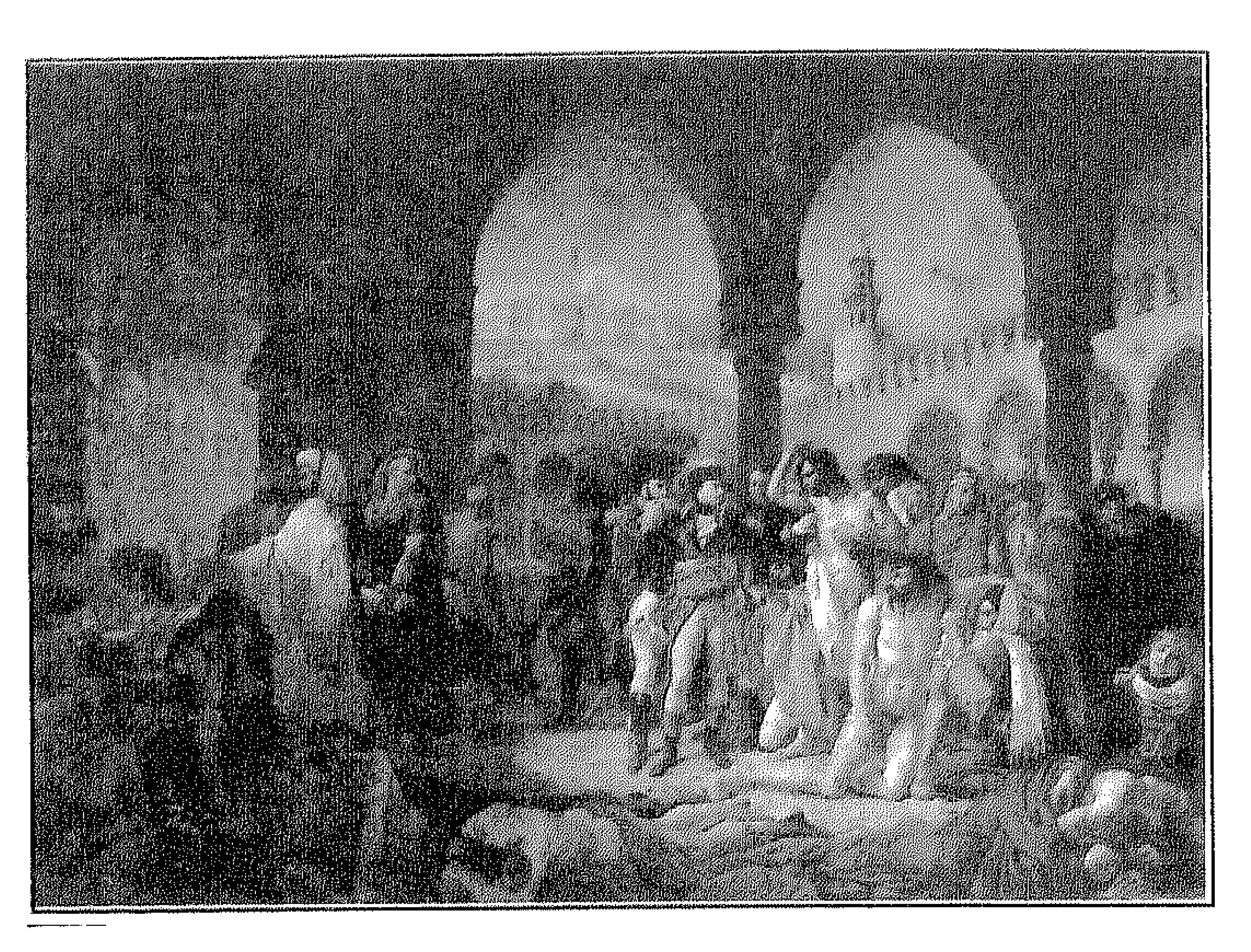

لوحة لليهود أمام حائط المبكى أواخر القرن ١٩م

لوحة شبتاى اليهودى الذى ادعى أنه المسيح المنتظر

والمسلمين كى يتخلصوا من أسر العثمانيين، ويقبلوا «حرية» الثورة الفرنسية، وهى نفس مزاعم المستعمرين فى كل عصر وحين.



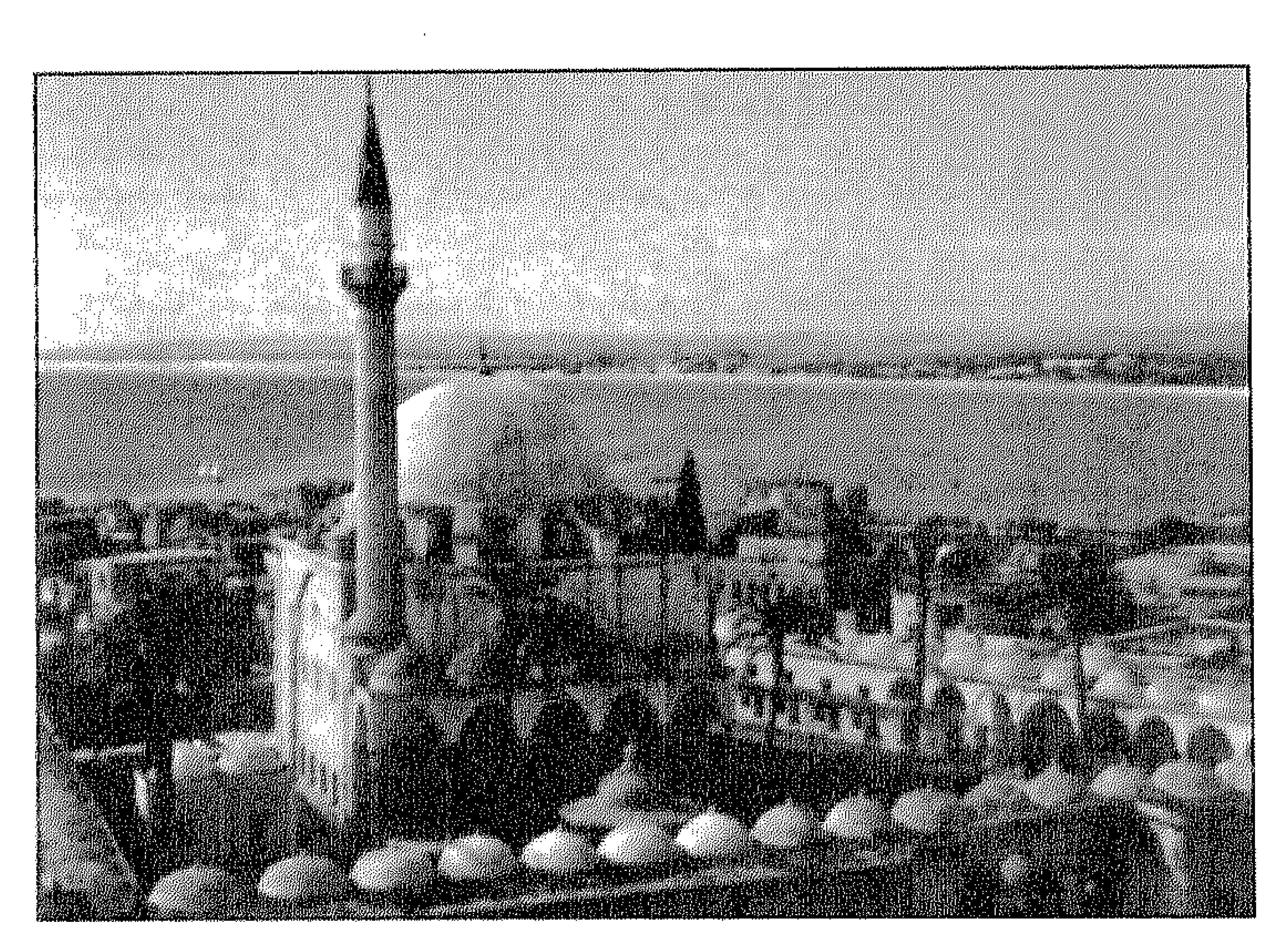
لكن مسلمى القدس لم ينخدعوا بتلك الدعوة، وأدركوا حقيقة الدوافع الاستعمارية النصرانية الغربية فهاجموا كنيسة المخلص وأسروا عملاء الفرنسيين من الفرنسيسكان كرهائن، بينما أصر السلطان العثمانى على توفير الحماية لكنائسهم وممتلكاتهم.



جيش نابليون بونابرت يعانى من الطاعون فى عكا

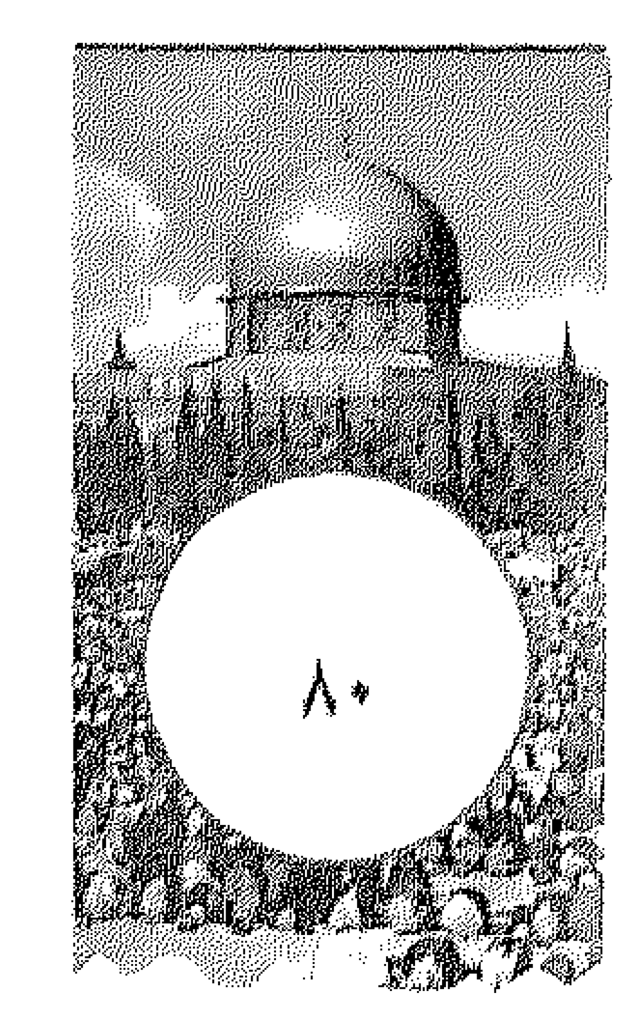
وفى الوقت الذى أصاب فيه الطاعون جيش نابليون تمكن الأسطول البريطانى، وأحمد باشا الجزار والى عكا من صد القوات الغازية، وتحطيم حلم نابليون فى إقامة إمبراطورية فى الشرق، وأجبروه على العودة إلى أوروبا.

وقد أسهمت هذه الحملة الفرنسية فى تحديث فلسطين ونقل العلوم إليها، حيث أسهم المستشرقون فى نقل القدس إلى العصر الحديث.



جامع الوالى العثمانى أحمد باشا الجزار

ولم يكن القرن التاسع عشر يحمل للقدس من المبشرات ما تتحول به أحوالها إلى الأفضل، وإنما عانت المدينة خلال هذا القرن من الفقر والتوتر والفوضى من جراء سوء الحكم، حيث أصبح والى صيدا هو الحاكم الفعلى



للقدس خلال بدايات ذلك القرن، مع أن القدس كانت تتبع رسمياً متصرفية دمشق، وكثر عدد الولاة العرب على القدس، وبلغ عدد سكان المدينة مع مطلع القرن التاسع عشر حوالى ٨٧٥٠ نسمة منهم ٤٠٠٠ من المسلمين، ٨٥٠ من النصارى ٢٠٠٠ من اليهود، وكانوا جميعاً يقتسمون نفس السوق ويسكنون فى تجمعات حول المبانى الدينية الرئيسة، وتميزت العلاقات بين المسلمين واليهود بالود، حيث سمح المسلمون لليهود بالسير فى حى المغاربة للوصول إلى الحائط الغربى، فى الوقت الذى حرم عليهم فيه الدخول إلى منطقة القبر المقدس النصرانية. لقد وجدت حالة من العداء المسموم بين الطوائف النصرانية ذاتها، كما ساءت علاقاتهم مع اليهود. وتوترت العلاقات داخل الحى اليهودى بين اليهود السفارديم (الشرقيين) والإشكنازيم (الغربيين) الذين عادوا إلى المدينة فيما بين ١٨١٠ و١٨٢٠م.

وفى عام ١٨٠٨م اشتعلت النيران فى كنيسة القبر المقدس، وبدأت فى سرداب القديسة هيلانة الذى كان تحت رعاية الأرمن، وأتلفت أجزاء من المبنى، وتم تبادل الاتهامات بين الجماعات النصرانية المتصارعة على الكنيسة.

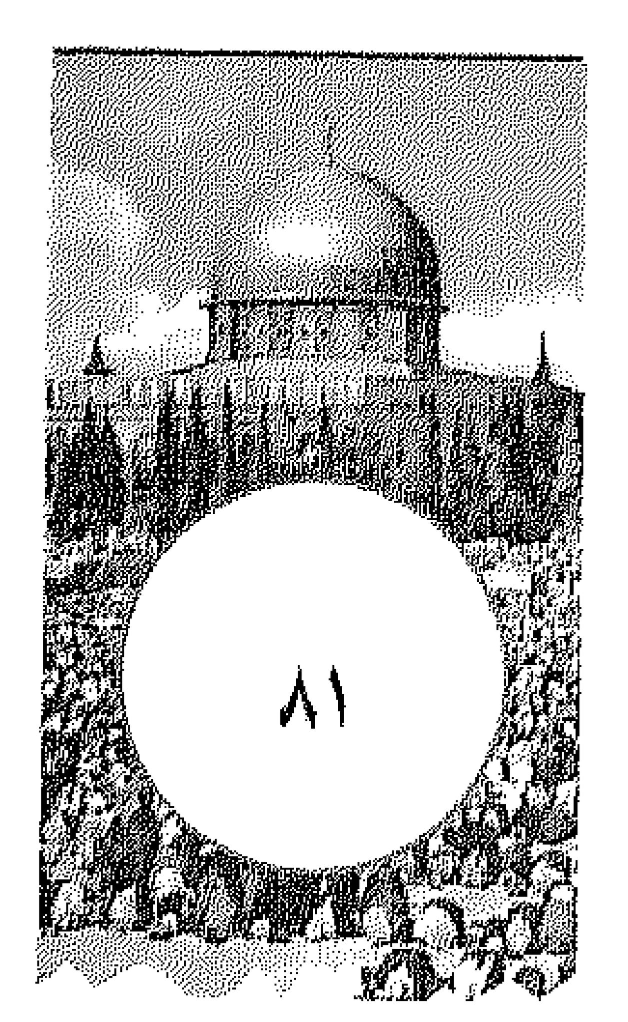
وساءت العلاقة بين سكان المدينة العرب وقادة الحكم العثمانى نتيجة سياسة الضرائب الظالمة، وتمكن المقدسيون من طرد الأتراك من مدينتهم عام ١٨٢٤م، لكن العثمانيين أخضعوها مرة أخرى عام ١٨٣١م وشددوا عليها قبضتهم.

فى تلك الأثناء تمكن محمد على من محاربة نابليون فى مصر، والاستقلال التام بها بعد خروج الفرنسيين، واستطاع أن يبسط نفوذه بجيشه القوى على فلسطين وسورية، واستمر حكمه لهما حتى عام ١٨٤٠م، حيث شهدت المدينة محاولات التحديث من جانب حكم محمد على، وتم تقليص قوة البدو وإرساء نظام قضائى علمانى على يدى ابنه إبراهيم باشا، وأصبح الذميون يتمتعون بمساواة كاملة وأمان شخصى لحياتهم وممتلكاتهم.

كما تم تمثيل اليهود والنصارى فى مجلس القدس الذى كان بمثابة «مجلس شورى» لوالى المدينة.

إلا أن المعارضين لهذه الإصلاحات قد تمردوا لعدة أيام حتى تمكن إبراهيم باشا من وأد هذا التمرد، واستغل الذميون مالهم من امتيازات، وقاموا بترميم معابدهم وكنائسهم، وأصدر محمد على عام ١٨٣٤م أمراً يسمح للسفارديم بإعادة معبد بن زكاى المهدم، وحصل اليهود الإشكنازيم عام ١٨٣٦م على تصريح لبناء معبد جديد ويشيفا (مدرسة دينية) لهم.

وفى إطار كسب ود الغرب سعى محمد على باشا إلى حث الغربيين وتشجيعهم على استيطان المدينة، وتأسست أول قنصلية أوروبية فى القدس عام ١٨٣٩م عندما وصل الدبلوماسى



الإنجليزى ويليام ثيرنر يونج كقنصل مساعد لبريطانيا، تلاه قناصل دول أوروبية أخرى منها فرنسا وبروسيا وروسيا والنمسا، وقد أسهم هؤلاء جميعاً فى دفع عجلة التحديث فى مدينة القدس، وبدأت طلائع المبشرين البروتستانت فى الوصول إلى القدس، حيث اصطدموا بكل الطوائف النصرانية القديمة وباليهود كذلك.

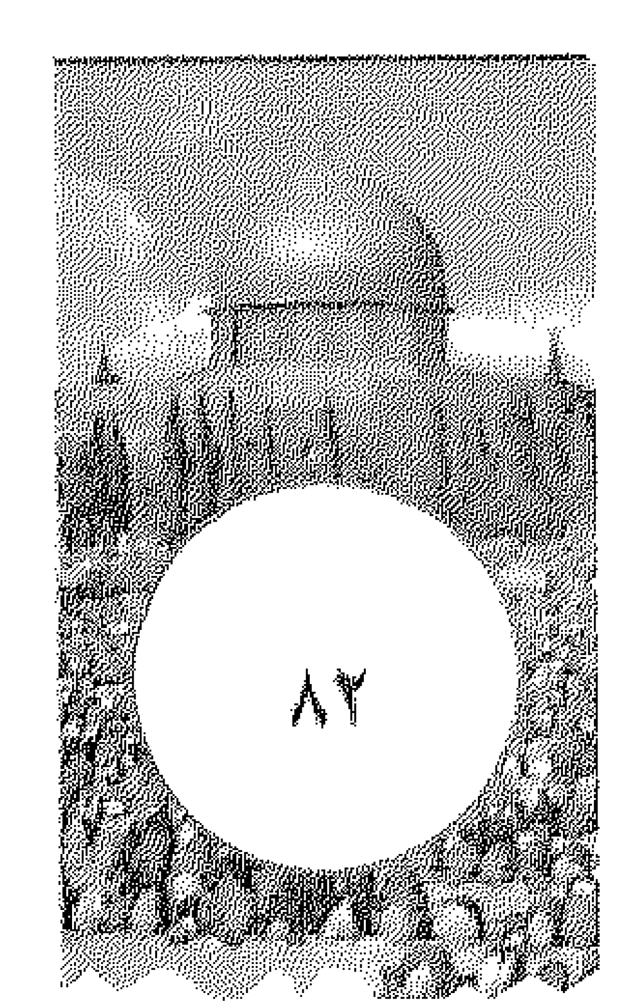
وعندما أجبرت القوى الأوروبية المصريين عام ١٨٤٩م على إعادة فلسطين للسيطرة العثمانية، واستعاد الأتراك السلطة بالفعل، لم يكن من السهل وقف تلك التغييرات التى حدثت فى عصر محمد على باشا، وأكد السلطان العثمانى محمود الثانى امتيازات الذميين التى منحت لهم من قبل، وأصبحت القدس عام ١٨٧٢م مستقلة، يخضع واليها لاسطنبول مباشرة، وتزايد عدد سكانها من ١٠٧٥٠ نسمة عام ١٨٤٠م إلى نحو ٢٢٠٠٠ نسمة عام ١٨٧٠م، ولأول مرة منذ هدم الهيكل فى المدينة أخذ نجم اليهود فى الصعود، وسارعت شتى الطوائف للتنافس فى أعمال البر لجذب الأتباع إليها، مما أذكى روح العداوة بين طوائف القدس النصرانية واليهودية المختلفة، ووصل الأمر فى كثير من الأحيان إلى إسالة الدماء داخليا، والصدام بين فرنسا وروسيا حاميتى اللاتين واليونان، وقد انتهى ذلك الصدام بحرب القرم التى نشبت عام ١٨٥٤م بين بريطانيا وفرنسا من جانب وروسيا من جانب آخر، وكان هدفها الرئيس هو وقف التقدم الروسى داخل الأراضى العثمانية.

واستمرت عمليات التحديث فى القدس، فاشترت الكنائس النصرانية بعض المطابع، كما كان لليهود مطبعتان عبريتان عام ١٨٦٢م، وأنشئت المدارس اليهودية الحديثة مما أشعل الصراع بين الإشكنازيم والسفارديم.

وأبرز أحداث هذا القرن هو حصول المليونير اليهودى موسى حاييم مونتيفور على قطعة أرض اشتراها خارج أسوار المدينة فى مواجهة جبل صهيون، حيث أقام بها منازل صدقة للعائلات اليهودية الفقيرة، وتتابعت بعده عمليات مماثلة، وأصبح بحلول عام ١٨٨٠م تسع من الضواحى اليهودية خارج الأسوار، كما سعى الرهبان اليونانيون والمبشرون البروتستانت إلى زراعة الأراضى وإقامة المبانى خارج الأسوار، وقد اتسعت المبانى اليهودية فى هذه المناطق حيث بلغ عدد الأحياء والحارات اليهودية التى أقيمت فى الفترة ١٨٩١ - ١٨٩٧م حوالى ٢٣ حارة يهودية، بالإضافة إلى عدد مماثل سبق وأن أقيم فى الفترة ١٨٦٠ - ١٨٩٠م.

وفى نفس الوقت، أخذت القدس العربية فى التطور، وتم تأسيس أول بلدية للمدينة عام ١٨٦٣م، وكانت القدس بذلك أول مدينة عثمانية بعد إسطنبول تنشأ فيها هيئة كتلك.

وواصل الأوروبيون عمليات التحديث فى القدس، وجعلوها وسيلة لتملك المدينة، فقامت الدراسات والأبحاث المختلفة، وتم الإفصاح عن الرغبة فى التملك المتأصلة فى تلك «الحملة



الصليبية السلميـة» على لسان أسقف يورك الذى أعلن فى خطاب له قائلاً : «إن بلدة فلسطين هى ملكى وملكك. وإنها ملكنا بشكل جوهرى. إنها الأرض التى خرجت منها أنباء خلاصنا، وإنها الأرض التى نتـوجه إليها كأساس لكل آمالنا، وإنها الأرض التى ننظر إليها بوطنية خالصة كما ننظر إلى إنجلترا الحبيبة العتيقة».

وتزايدت الحفريات فى المدينة، وظل مسلمـو القدس ينظرون إليها على أنها نشاط يسعى إلى اختراق المقدسات الإسلامية بأساليب عدوانية.

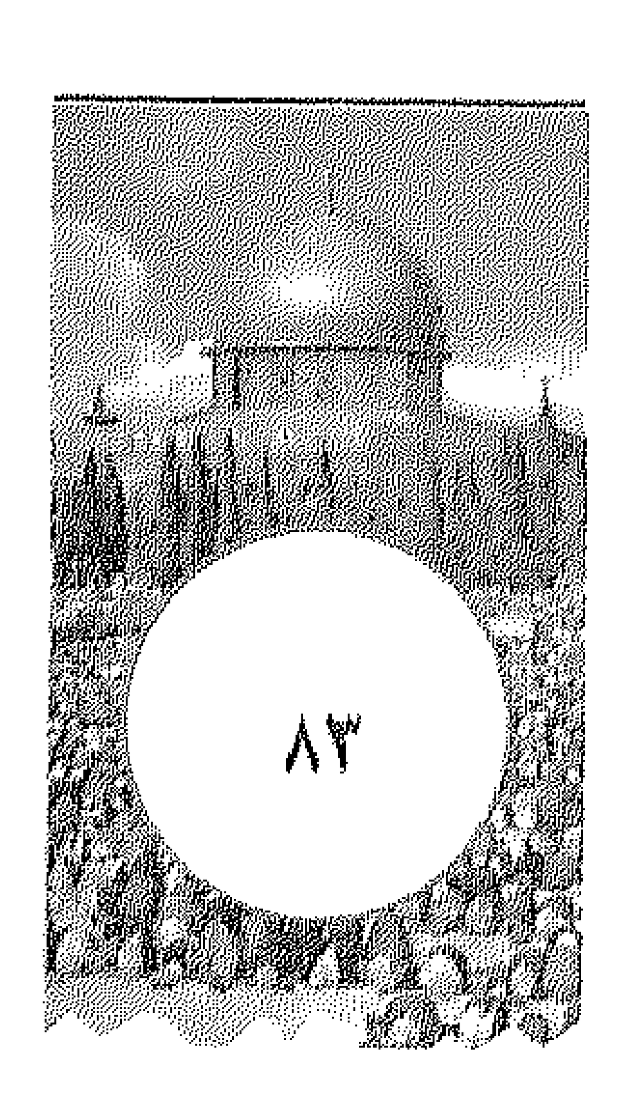
وفى نفس الوقت بدأت تباشير القوميـة اليهودية الداعيـة إلى التخلص من العداء المزعوم لليهود، وتركيز الأنظار على القدس، فكان كتاب أبى الصهيونية موسى هيس «روما وأورشليم» الصادر عام ١٨٦٠م، والداعى إلى تأسيس مجتمع يهودى اشتراكى فى فلسطين وتحرير أورشليم.

وكان عام ١٨٨٢م حـداً فاصلاً فى تاريخ القدس فى فلـسطين، فقد أسس البريطانيون وجودهم سياسياً فى المنطقة باحتلال مصر، وفى نفس العـام، وعـقب نشـوب المذابح الضاريـة فى روسيـا، تم إنشـاء أول مستوطنات صهيونيـة فى فلسطين، وتم عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى يناير بسويسرا عام ١٨٩٩م بزعامة هرتزل الذى زار القدس عام ١٨٩٨م ولم تترك المدينـة أثراً بالغاً فى نفسـه، ولتدخل المدينة بعـد ذلك مرحلة جديدة، كـثرت أحـداثها، وتشعـبت خيـوطها إذ شـهدت هذه

تيودور هرتزل – مؤسس الصهيونية



صورة للمؤتمر الصهيونى الأول فى زيورخ





جيش جمال باشا يذهب لفلسطين

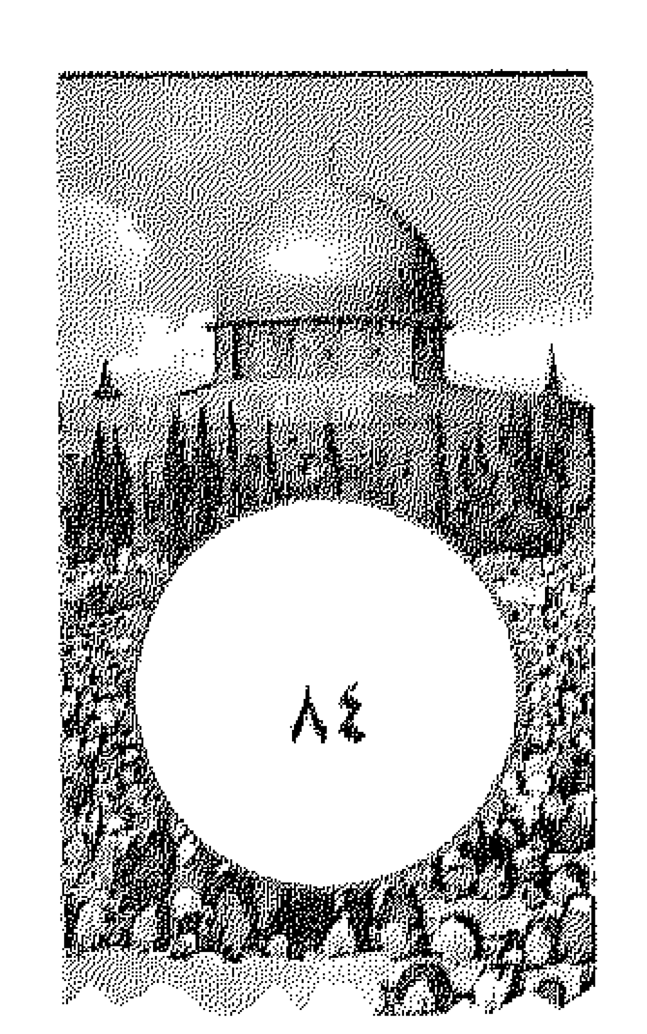


بلفور

الشريف حسين بن على



الشيخ الحُسينى مفتى القدس مع أول أمين عام
لجامعة العربية - عبد الرحمن عزام

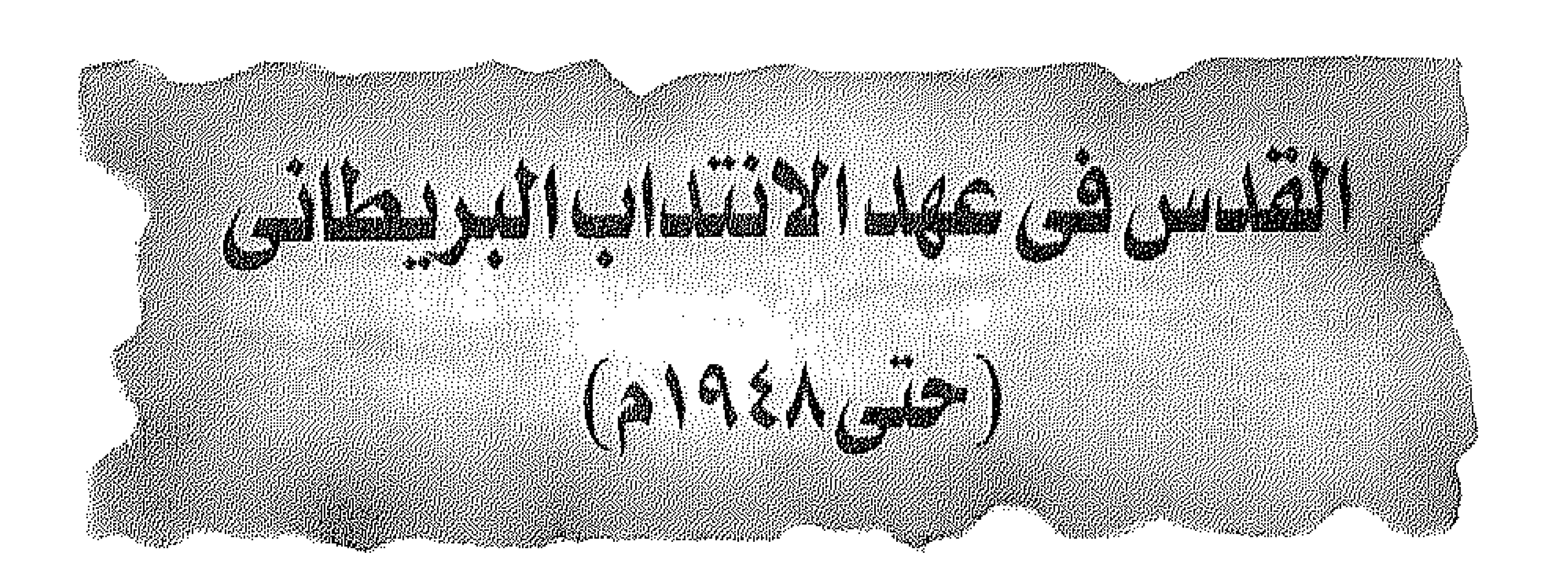


المرحلة تداعى الدولة العثمانية، وتشعب السرطان البريطانى فى جسد الأمة العربية، والسعى إلى تحقيق الأحلام الصهيونية ليس فى القدس وحدها بل فى سائر أنحاء فلسطين.

لقد شهدت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين موجات محمومة من المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا إلى فلسطين، ومع أن معظمهم كان من العلمانيين إلا أن القدس كانت رمزاً ذا قوة فى إلهام أولئك الصهانية لخلق حلمهم الاستعمارى الجديد.

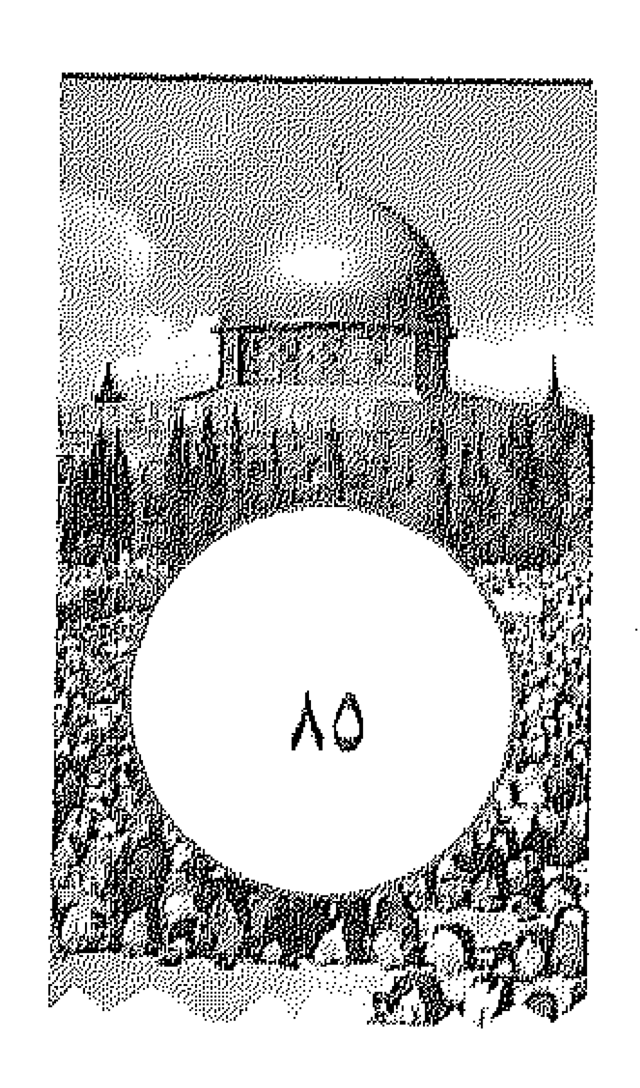
وبدأ أهالى القدس العرب يشعرون بالاستياء من الحكم العثمانى من جانب، وما يمثله الاستيطان الصهيونى فى القدس وفلسطين من جانب آخر، وفى عام ١٨٩١م أرسل عدد من أبرز أهالى القدس التماساً إلى إسطنبول يطلبون فيه من الحكومة العثمانية منع أى هجرة إضافية لليهود ومنع بيع الأراضى للصهاينة.

وسقطت الدولة العثمانية فى الوقت الذى شهدت فيه القدس وفلسطين نشاطاً استيطانياً يهودياً محموماً، ليبدأ فصل جديد من فصول تاريخ المدينة المقدسة، لعله أسوأ فصولها، لكنه لن يكون بأى حال من الأحوال خاتمة تاريخها.



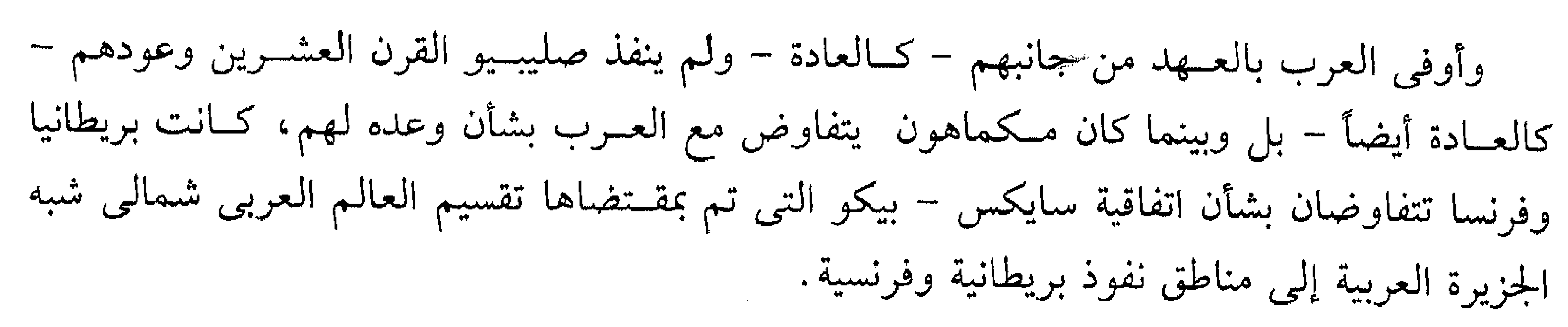
بعد سقوط الدولة العثمانية إثر ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م، بدأ القوميون العرب فى فلسطين يتطلعون إلى دولة لهم متحررة من الأتراك العثمانيين، وقد تنبه بن جوريون إلى هذه التطلعات عام ١٩١٥م، وأنكر أن يكون للعرب أية حقوق فى أورشليم وفلسطين.

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م حيث ساندت تركيا الألمان فى حربهم ضد البريطانيين والفرنسيين، وأصبحت القدس مقر قيادة الجيش التركى الثامن، وقررت بريطانيا عام ١٩١٦م، نقل قوة الطوارئ البريطانية فى مصر إلى شبه جزيرة سيناء، لكنها قوبلت بمقاومة تركية شديدة فى غزة، وتم تكليف الجنرال إدوارد اللنبى من قبل رئيس وزراء بريطانيا حينئذ لويد جورج بفتح القدس. وقد تمكن اللنبى من احتلال غزة عام ١٩١٧م واتجه صوب القدس، وأصدر الوالى جمال باشا أوامره بإجلاء سكان المدينة، وأصبح حسين سليم الحسينى - رئيس بلدية القدس - المسئول الوحيد الذى



بقى فيهـا، وقام بتسليمهـا لاثنين من أعضاء فريق الكشافـة البريطانيين. وعندما وصل اللنبى إلى بوابة يافا دقت أجراس المدينة ترحـيباً به، وأكد لسكان أورشليم أنه سيقوم بحماية الأماكن المقدسة والمحافظة على حرية العقيدة.

وبهذا أكـمل اللنبى - باسم حكومـة بريطانيا - عـمل الصليبيين، واسـتطاعت بريطانيا خداع العرب، ولم تف بعهدها لهم، إذ وعد السير هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر، شريف مكة حسين بن على، باعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العـربية وبقاء الأماكن المقـدسة فى قبضـة دولة مسلمة ذات سيـادة نظير ثورة العرب ضد الأتراك فى الحرب، ومساعدة البريطانيين.



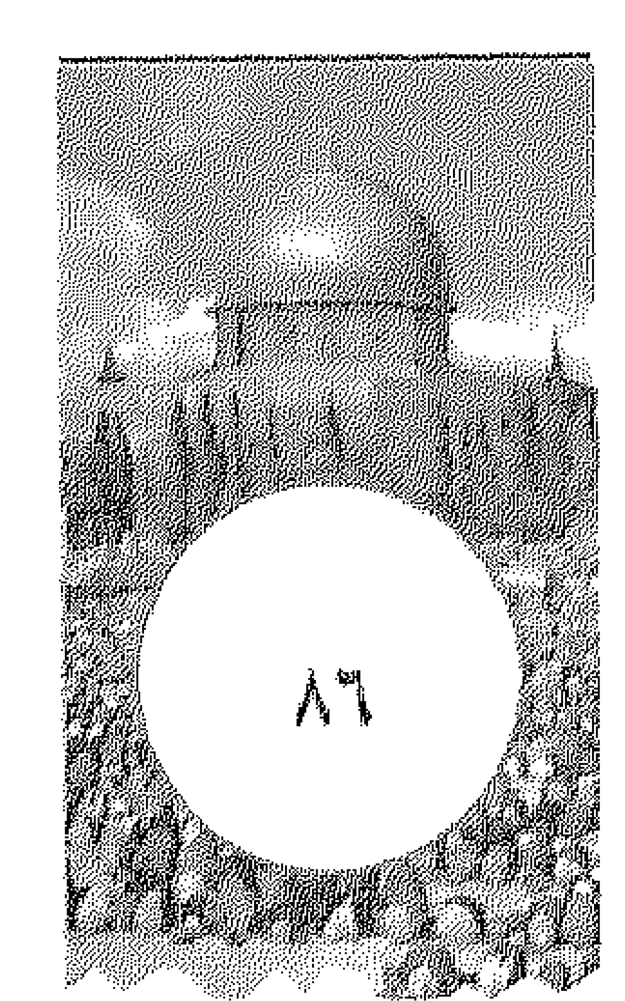
وأوفى العرب بالعـهد من جانبهم - كـالعادة - ولم ينفذ صليبـيو القرن العشـرين وعودهم - كالعـادة أيضاً - بل وبينما كان مـكماهون يتفاوض مع العـرب بشأن وعده لهم، كـانت بريطانيا وفرنسا تتفاوضان بشأن اتفاقية سايكس - بيكو التى تم بمقـتضاها تقسيم العالم العربى شمالى شبه الجزيرة العربية إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية.

وقبل غزو اللنبى للقدس بحوالى شهـر، أصدر لويدجورج رئيس وزراء بريطانيا تعليماته لوزير خارجيـته آرثر بلفور بكتـابة خطاب إلى اللورد اليهودى روتشيلد، وهـو ما عرف فيمـا بعد باسم «وعد بلفور» ونصه ما يلى:

«إن حكومة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبـذل كل ما تستطيع لتسـهيل هذا الغرض، على أن يكون مفهـوماً جلياً أنه لن يعمل شىء يضر بالحقـوق المدنية أو الدينية للجماعـات غير اليهـودية المقيمة الآن بفلسطين، أو بالحـقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى».

ومع ما فى هذا الإعلان من مغالطات تـاريخية، وقلب الحقائق التاريخية الثابتـة حيث اعتبرت الجماعات اليـهودية «شعباً» والشعب العربى «جـماعات»، فقد أوفى البريطانيون بعـهدهم لليهود، ولم يتحقق - على الإطلاق - وعدهم الوارد فى هذا التصريح للعـرب، فى الحفاظ على حقوقهم المدنية والدينية.

وقد ظلت فلسطين والقدس تحت السيطرة العسكرية البريطانية (إدارة أراضى العدو المحتلة) من عام ١٩١٧م إلى يوليو ١٩٢٠م، وتسربت أنباء وعد بلفـور إلى العرب، كما أعرب الفاتيكان عن رغبتهم فى بقـاء مقدسات النصارى فى أيدى النصارى، وقد أوصـى تقرير كينج / كرين الذى تم بناء على تكليف من عـصبة الأمم آنذاك، بعدم تنفـيذ وعد بلفـور، وضم فلسطين إلى سورية فى دولة عربيـة موحدة تحت رعاية قـوة انتداب مؤقتة، بيـد أن عصبة الأمم فى هذه الـفترة، وهى لا



تختلف كثيراً من هيئة الأمم فى العصر الحالى - ذهبت توصياتها أدراج الرياح أمام الصلف البريطانى، الذى حل الأمريكى محله فى العصر الراهن.

اشتعلت الاضطرابات فى مدينة القدس أثناء احتفالات «النبى موسى» فى ٤/٤/١٩٢٠م وخرجت الجماهير العربية ثائرة إلى الحى اليهودى، وقتل بعض اليهود وأصيب البعض الآخر، وأعلن الانتداب البريطانى فى أبريل ١٩٢٠م، وكان هذا الانتداب - خلافاً لمضمونه القانونى - أداة لتنفيذ وعد بلفور وإقامة الوطن اليهودى فى فلسطين، فكان أول مندوب سام بريطانى تم تعيينه فى فلسطين فى شهر يوليو عام ١٩٢٠م هو اليهودى السير هربرت صموئيل، وتم الاتفاق على إنشاء الوكالة اليهودية لتسهيل مهمة هجرة اليهود وإقامة الوطن المزعوم.

وازدهرت أحوال القدس بعض الشيء تحت الانتداب، وأنشئت الضواحى الأنيقة فيها، وأقيمت الحدائق، وتم افتتاح الجامعة العبرية على جبل سكوباس (جبل المشهد - جبل المشارف) حيث رأس اللورد بلفور الافتتاح.

لقد اتخذت سلطات الاحتلال البريطانى عدة خطوات تمهيداً للوفاء بوعدها لليهود، أهمها: إعادة تخطيط المدينة، وتدعيم المؤسسات اليهودية فى القدس، والهجرة إلى المدينة وبناء المستوطنات.

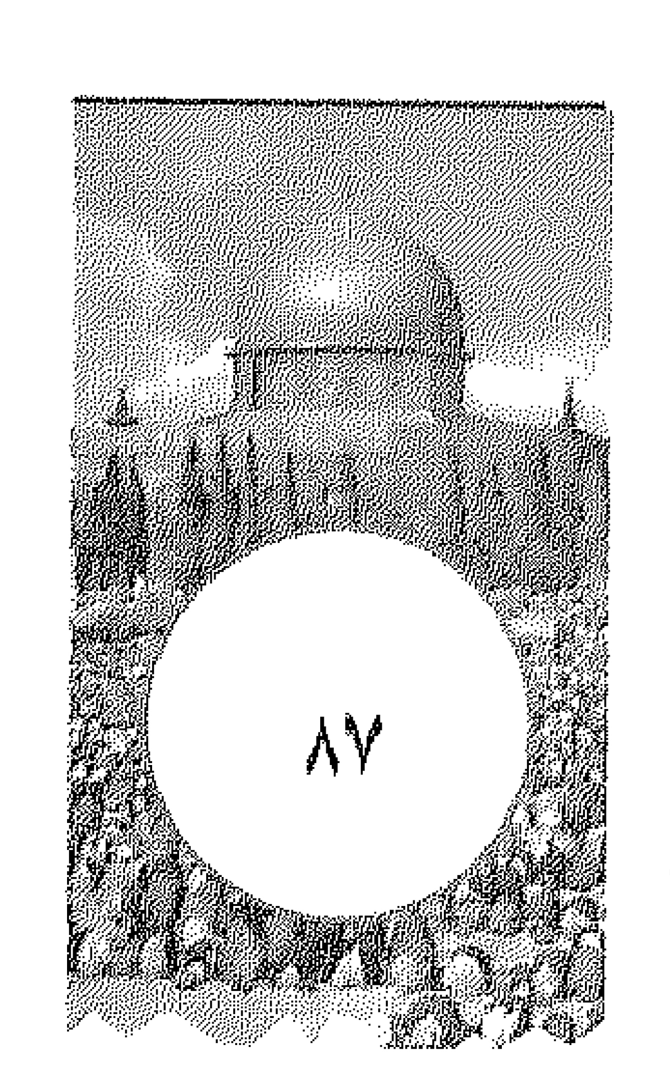
وكانت نتيجة هذه السياسة البريطانية ارتفاع عدد اليهود فى فلسطين من ٥٦ ألف يهودى عام ١٩١٨م مقابل ٦٤٤ ألف عربى (مسلم ونصرانى) إلى حوالى ٦٥٠ الف يهودى مقابل ١,٤٠٠,٠٠٠ عربى (مسلم ونصرانى) فى آخر عهد الانتداب البريطانى عام ١٩٤٨م،

وارتفع كذلك عدد يهود القدس أضعاف ما كان عليه فى بداية الانتداب البريطانى، وزادت ملكية اليهود للأراضى الفلسطينية برعاية ودعم من سلطات الانتداب.

وتم تعيين الحاج أمين الحسينى - وكان قومياً عربياً متشدداً - من قبل سلطات الانتداب مفتياً لمدينة القدس عام ١٩٢٠، وتم تعيينه فى العام التالى رئيساً للمجلس الإسلامى الأعلى، وقد أدى تعيينه إلى انقسام الشارع العربى الفلسطينى - كالعادة - بين فريق مؤيد له، ضم الراديكاليين المتشددين، وفريق معارض له، تجمع حول رئيس البلدية الجديد راغب النشاشيبى، وانضم إليه المعتدلون.

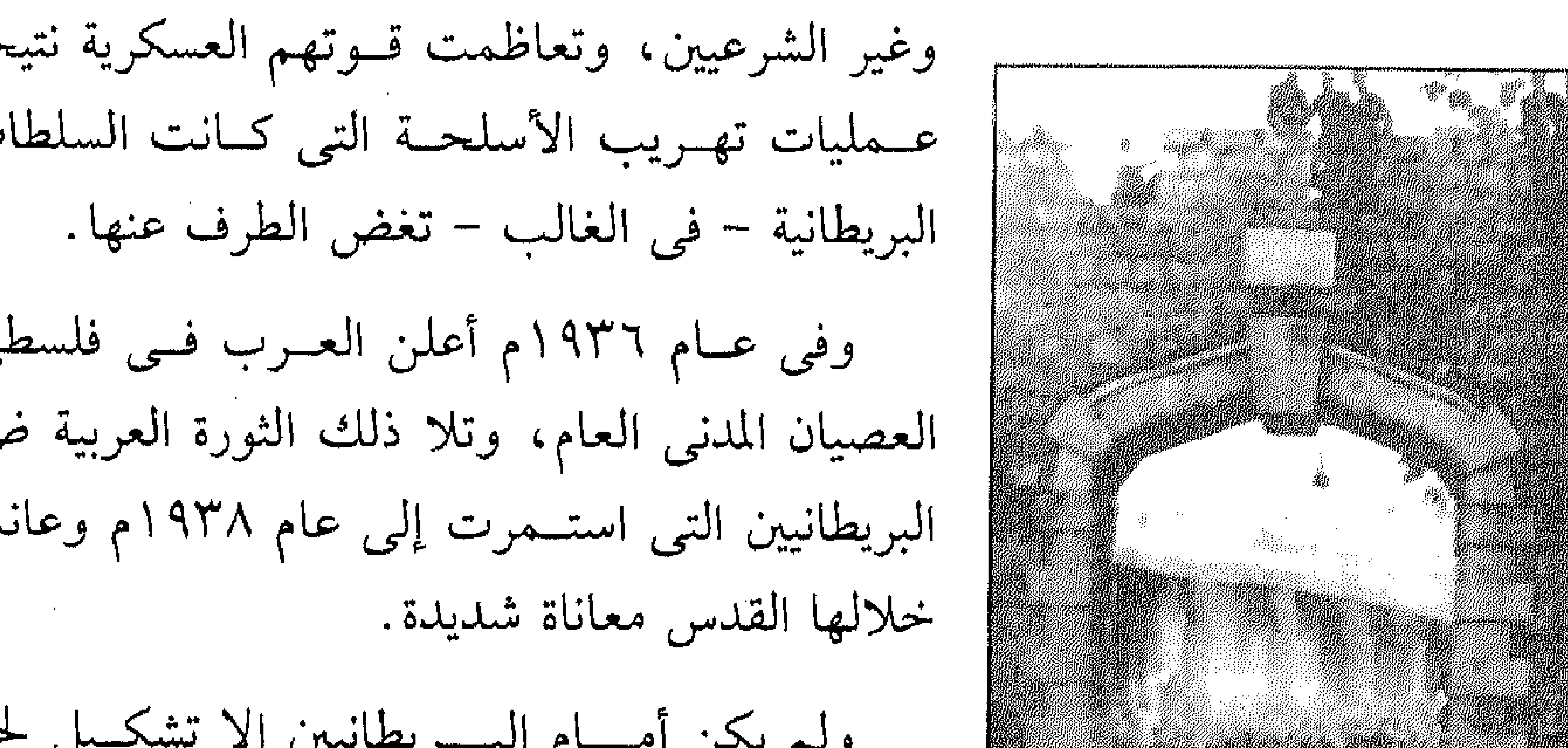
فى تلك الأثناء، لم يدع اليهود الفرصة كى ينظموا أنفسهم ويعدوا العدة لتحقيق «الوعد البلفورى» كخطوة أولى لتحقيق «الوعد الإلهى» بميراث أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات.

لقد انشغل يهود فلسطين فى عهد اللورد بالامار الذى خلف هربرت صموئيل عام ١٩٢٥م بإيجاد دولة موازية فى قلب دولة الحماية، لها جيشها (منظمة الهاجاناه) وتنظيمها البرلمانى من ممثلى المستوطنات الاشتراكية ونقابات العمال (الهستدروت) ونظامها الضريبى ومؤسساتها المالية ومعاهدها التعليمية وأصبحت الوكالة اليهودية التى جعلت من القدس الغربية مقراً لها الهيئة التى تمثل المجتمع اليهودى فى فلسطين أمام الحكومة البريطانية.



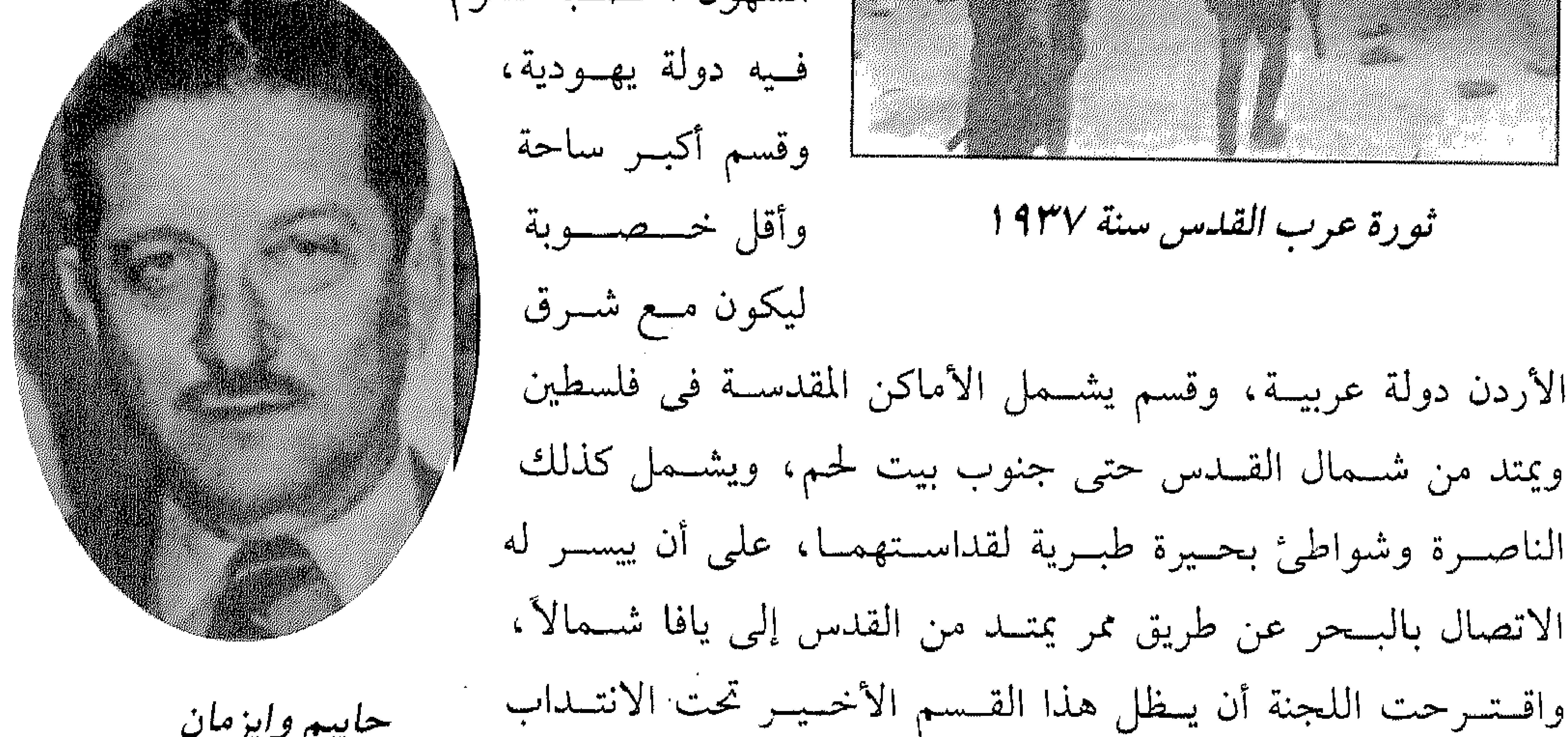
فى الوقت نفسه، لم يكن ثمة تنظيم يجمع العرب، وساد التوتر بين حزبى الحسينى والنشاشيبى نتيجة اختلاف وجهات نظرهما فى سبيل معارضة الصهيونية.

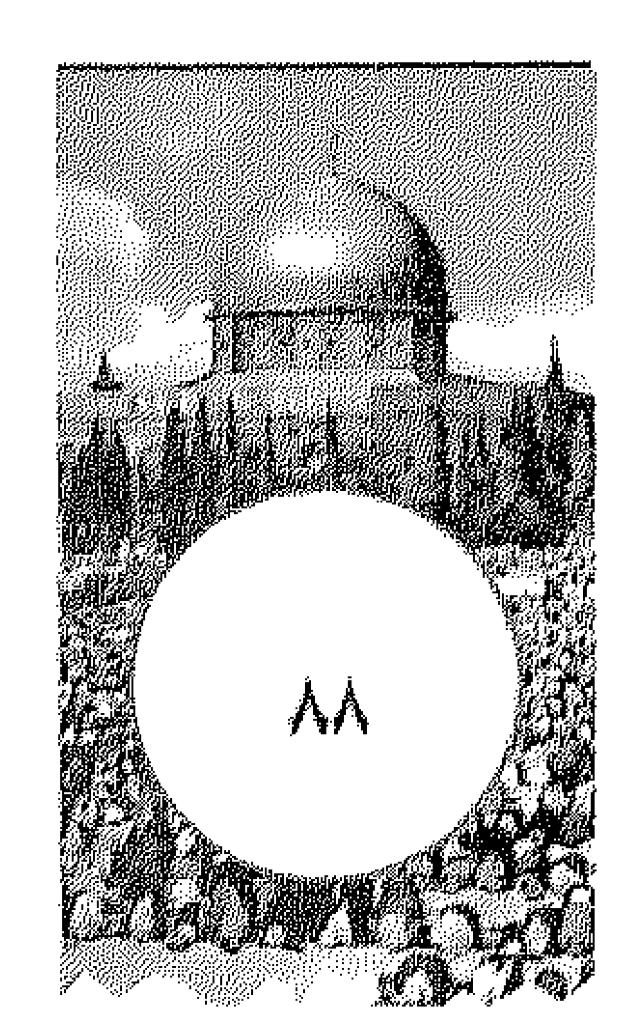
وفى صيف عام ١٩٢٩م عقد المؤتمر الصهيونى السادس عشر فى زيورخ، وطالب فيه اليهودى الصهيونى المتطرف فلاديمير جابوتنسكى بإقامة دولة يهودية - وليس وطناً - على ضفتى الأردن، الأمر الذى أصاب العرب بالذعر، واندلعت أعمال العنف فى فلسطين، وتزايد عدد اليهود المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين، وتعاظمت قوتهم العسكرية نتيجة عمليات تهريب الأسلحة التى كانت السلطات البريطانية - فى الغالب - تغض الطرف عنها.


ثورة عرب القدس سنة ١٩٣٧

وفى عام ١٩٣٦م أعلن العرب فى فلسطين العصيان المدنى العام، وتلا ذلك الثورة العربية ضد البريطانيين التى استمرت إلى عام ١٩٣٨م وعانت خلالها القدس معاناة شديدة.

ولم يكن أمام البريطانيين إلا تشكيل لجنة لبحث مطالب الجانب العربى وواجبات بريطانيا تجاه اليهود، فكانت لجنة «بيل» عام١٩٣٧م، والتى اقترحت تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام: قسم الشاطئ وما وراءه من السهول الخصبة لتقوم فيه دولة يهودية، وقسم أكبر ساحة وأقل خصوبة ليكون مع شرق الأردن دولة عربية، وقسم يشمل الأماكن المقدسة فى فلسطين ويمتد من شمال القدس حتى جنوب بيت لحم، ويشمل كذلك الناصرة وشواطئ بحيرة طبرية لقداستهما، على أن ييسر له الاتصال بالبحر عن طريق ممر يمتد من القدس إلى يافا شمالاً، واقترحت اللجنة أن يظل هذا القسم الأخير تحت الانتداب


حاييم وايزمان



البريطانى، فلا يسرى عليه وعد بلفور، وتكون لغته الرسمية هى الإنجليزية، ومنذ ذلك الحين اهتمت كل الخطط التى فكر فيها المجتمع الدولى لحل مشكلة فلسطين ببقاء القدس خارج نطاق الصراع للتأكد من بقاء الأماكن المقدسة التى هى «وديعة حضارية مقدسة» حسب تعبير أعضاء لجنة بيل، فى متناول الجميع.

وقد قدم اليهود- بعد قبولهم لخطة بيل - خطتهم الخاصة للتقسيم، واقترح الصهاينة تقسيم القدس بحيث يستأثر اليهود بضواحى غرب المدينة الجديدة، بينما تبقى القدس القديمة والقدس الشرقية تحت سلطة الانتداب.

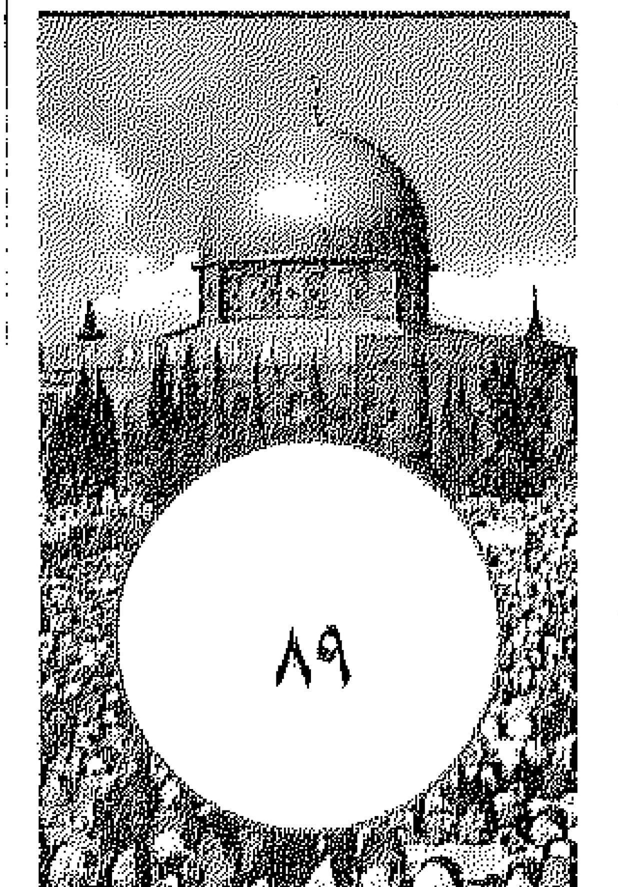
أما العرب، فقد أعلنوا رفضهم لخطة «بيل»، ومارس العرب ضغوطهم على بريطانيا التى كانت تستعد لخوض غمار الحرب العالمية الثانية، فصدر عام ١٩٣٩م ما يعرف بالكتاب الأبيض الذى يحد من الهجرة غير الشرعية لليهود إلى فلسطين، فى الوقت الذى شن فيه اليهود حرباً شعواء بكل ما يملكونه من أسلحة ضد بريطانيا فى فلسطين بهدف إلغاء هذه القيود.

وعندما ضمنت بريطانيا عام ١٩٤٣م كسبها للحرب دون حاجة للعرب قام تشرشل فى سبتمبر من هذا العام بإبلاغ الصهيونى حاييم وايزمان بقرار حكومته بمنح اليهود السيادة الكاملة على جزء من فلسطين، وفى أبريل عام ١٩٤٤م، اتخذ المجلس التنفيذى لحزب العمال البريطانى قراراً صهيونياً جاء فيه : «رغبة فى تحقيق استعمار مستقر فى فلسطين، نرى واجباً علينا أن نوصى بوضع اتفاق دائم ينص فيه على هجرة السكان وأن نشجع ذهاب العرب وقدوم اليهود، ويجب تعويض العرب تعويضاً واسعاً ثم توجيههم بعناية وتحويل استقرارهم فى أماكن أخرى تحويلاً سخياً. إن لدى العرب مساحات واسعة من الأرض، ويجب عليهم ألا يطلبوا طرد اليهود من تلك المنطقة التى تقل مساحتها عن مساحة ويلز (مقاطعة إنجليزية) بل ويجب فى الحقيقة النظر مرة أخرى فى إمكان توسيع الحدود الفلسطينية عن طريق الاتفاق مع مصر وسورية وشرق الأردن».

أما المذكرة التى قدمتها الوكالة اليهودية فى أكتوبر عام ١٩٤٤م فكانت أخف صهيونية من قرار حزب العمال البريطانى إذا جاء فيها :

«لن يترتب على تنفيذ المشروع اليهودى حرمان العرب من المكان الذى هو حق لهم لأنهم يمتلكون الآن عدداً من الدول التى بها ثروات ضخمة لم تمس بعد»، وسارع بن جوريون إلى تخفيف حدة صهيونية القرار العمالى البريطانى بقوله: «أما إذا شاء العرب أن يهاجروا فهذا من شأنهم».

وهكذا يبدو التطابق بين السياسات الاستعمارية ممثلة فى مواقف بريطانيا فى هذه الفترة ومواقف الولايات المتحدة فى الوقت الراهن.



وهكذا يبدو أيضاً التطابق والإصرار على تحقيق الهدف من قبل الصهاينة منذ هرتزل ومروراً بوايزمان وبن جوريون وجولدا مائير ورابين وبيجن وباراك وشارون.

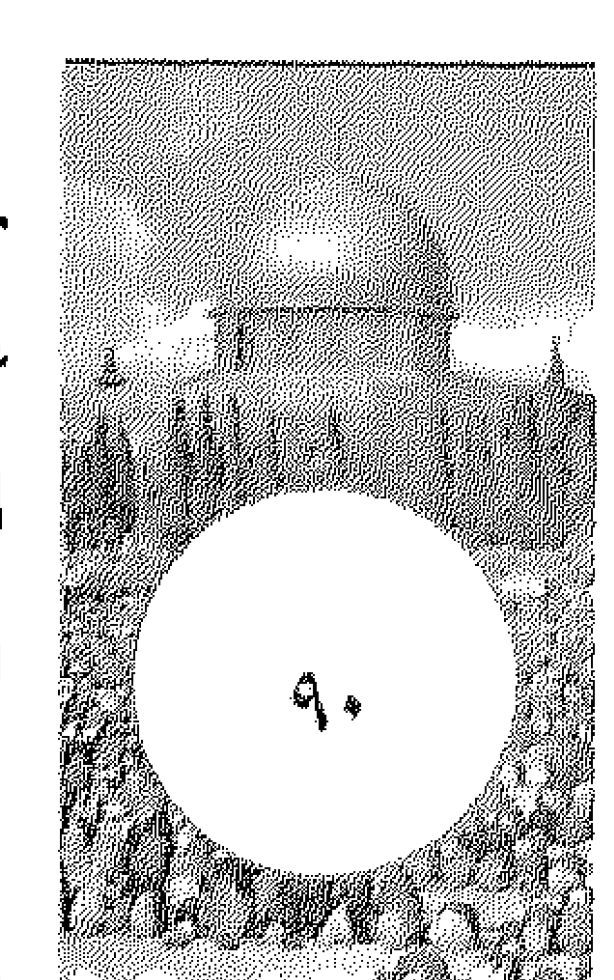
والدور الأمريكي الصهيوني المعاصر ليس وليد الساعة، وإنما يعود إلى قرار حكومة بريطانيا في ١٣/١١/١٩٣٥م الذي دعيت فيه الولايات المتحدة إلى المشاركة في لجنة تحقيق يعهد إليها بتحري أوضاع اليهود الأوروبيين وبحث إمكانية توطين جانب منهم في فلسطين.

وتكونت - بالفعل - هذه اللجنة البريطانية - الأمريكية المشتركة برئاسة الإنجليزي سنجلتن والأمريكي هيتشسون، وعقدت اجتماعها الأول في واشنطن في يناير ١٩٤٦م، وانتقلت في شهر مارس إلى فلسطين ومنها إلى لوزان ثم سلمت تقريرها إلى الحكومتين في أول مايو ١٩٤٦م، وقد جاء هذا التقرير فارغاً، محتوياً على توصيات تصب بشكل أو بآخر في صالح الجانب الصهيوني، وإن حاول واضعوها تجميل الصورة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

إن تاريخ القدس خلال هذه الفترة لا يمكن عزله عن تاريخ فلسطين والمنطقة العربية ككل، وإن كانت ثمة قرارات في خضم هذه الأحداث ترتبط بشكل رئيس بالقدس نفسها.

فعندما أخفقت بريطانيا في إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية على مدى ثلاثين عاماً، تقدمت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢/٤/١٩٤٧م بطلب تقديم توصياتها حول مستقبل الوضع في فلسطين طبقاً للمادة ١٠ من ميثاق الأمم المتحدة، وقد عقدت الجمعية العامة دورة خاصة وانتهت إلى تشكيل لجنة تحقيق، قدمت تقريرها في سبتمبر ١٩٤٧م، وبعد مناقشات طويلة تم تقديم مشروع قرار من قبل الجمعية العامة يقضي بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية مع إنشاء وحدة مستقلة

خريطة (١٦)
مناطق الاستيطان

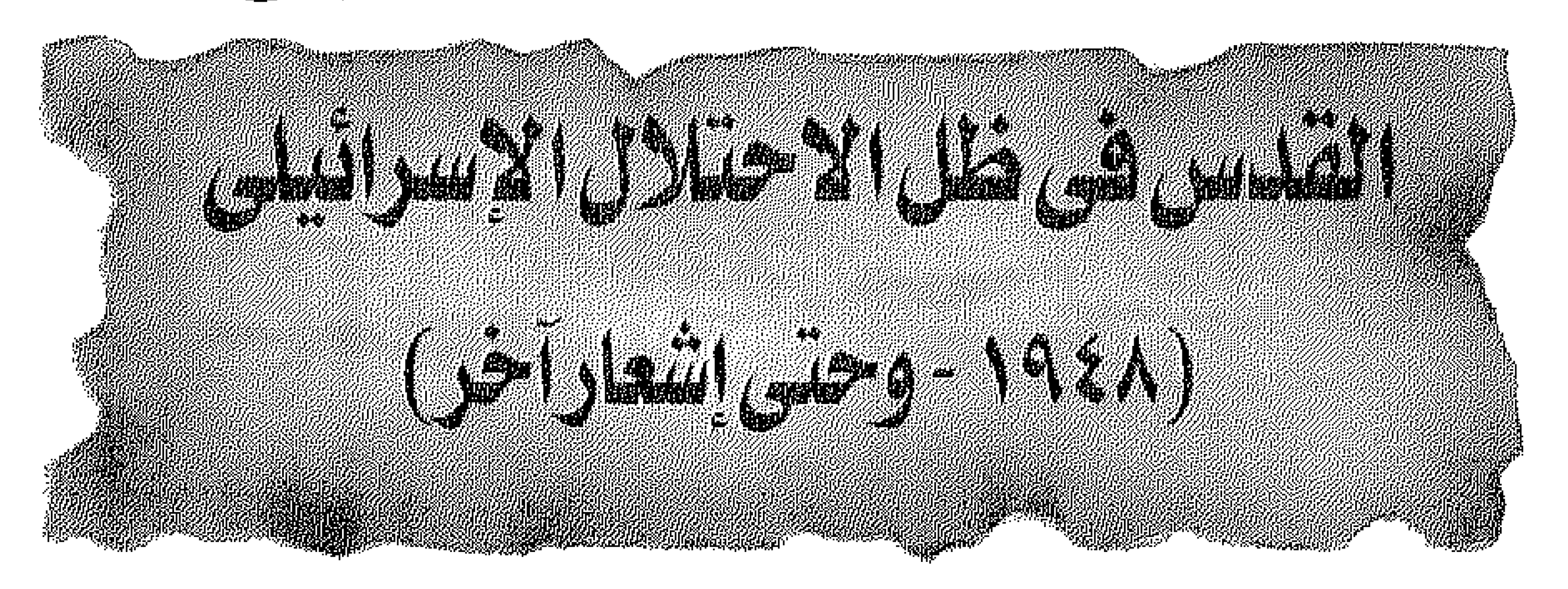


لمنطقة القدس، تكون لها حكومتها الدولية الخاصة، وتدار من قبل الأمم المتحدة عن طريق مجلس الوصـاية، وكان هذا المشروع هو أسـاس القرار رقم ١٨١-٢ الصـادر عن الجمـعيـة العامـة فى ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م بتـقسـيم فلسطين وتدويل القدس.

ورفض العـرب القـرار، ونشـبت الاضطرابات فى فلسطين، واجـتـمـعت الجمـعية العـامة لتوصى فى ٦/ ٥/ ١٩٤٨م حكومـة الانتداب البريطانى بتـعيين محـافظ محايد لمنطقـة القدس يدير الأمور فـيها حـرصاً على الأماكن المقـدسة وحمايتـها، كتجربة أوليـة لمدى إمكان تطبيق نظام دولى بها، وتم تعيين الأمـريكى هارولد إيفانز لهذه المهمـة، لكنه فشل، ليحل محله الكونت فـولك برنادوت الذى تلخصت مقتـرحاته فى بيانه التمهـيدى على النحو التالى : «ضم مـدينة القدس إلى الإقليم العربى، مع منح الطائفـة اليهودية حق الاستـقلال بشئون البلدية، ووضع تدابيـر خاصة لحمـاية الأماكن المقدسة» وقـد قوبلت هذه المقترحات بالرفض من جانب العرب واليهود على حد سواء.

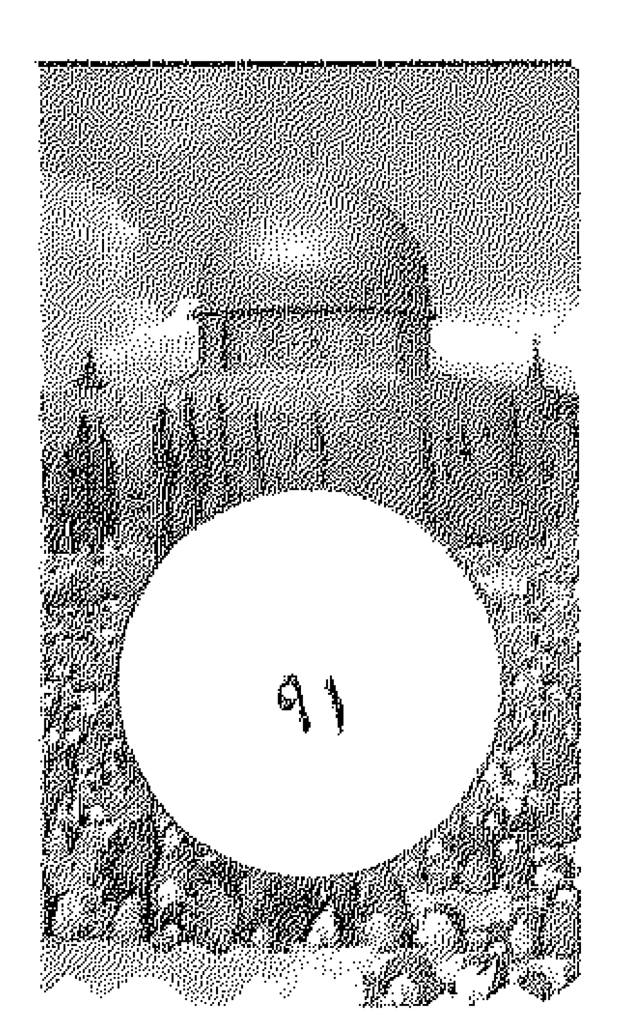
وكانت بريطانيا قد أعلنت فى يناير عـام ١٩٤٨م أنها ستضع حدًّا للانتداب على فلسطين فى منتصف ليـلة ١٥ مايو ١٩٤٨م بعد أن تم ترتيب الأوضـاع من أجل تحقيـق الهدف الصهـيونى - البريطانى المتمثل فى إقـامة إسرائيل، وتخلت بريطانيا عن مسئوليـة الانتداب دون أن تقيم حكومة وطنية تتسلم مقاليد الأمور، ودون أن تحصل على موافقة بذلك من الأمم المتحدة.

ومهما كانت مـبررات بريطانيا المزعومة حول أسباب إنهـاء انتدابها على فلسطين، فإن الشكل الذى تم الإنهـاء به، والظروف والملابسات التى رافـقت فتـرة الانتداب، وجـميع الأحـداث التى وقـعت خلال وجـود البـريطانيين فى المنطقـة ناهيك عن كـل القرارات الصـادرة من الحكومـات البريطانية، ليـؤكد ذلك كله أن قيام إسرائيل فى فلسطين، وتقديم القـدس هدية للصهاينة، إنما تم مع سبق الإصرار والترصد من قبل بريطانيا، وبتنسيق وإتقان تام مع الصهيونية العالمية.



يمكن تمييز مـرحلتين فى تاريخ مدينة القدس منذ إعلان قيـام إسرائيل فى فلسطين: الأولى من ١٩٤٨م وحتى ١٩٦٧م، والثانية من ١٩٦٧ وحتى الآن.

كما يمكن تلخيص قرارات إسرائيل المتعلقة بالقدس فى أربع مجموعات أو مراحل:



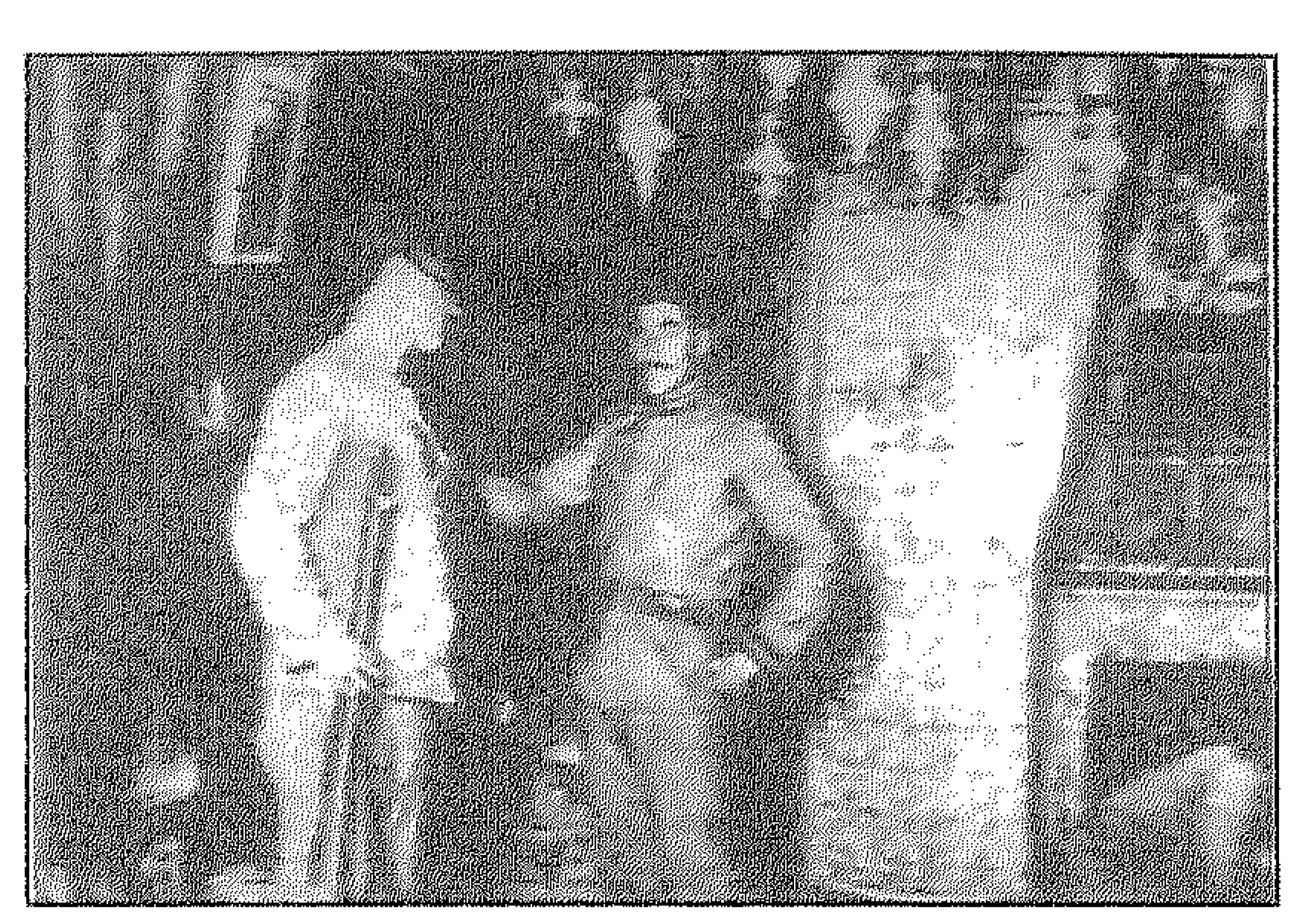
١- من ١٩٤٩/١١/١٥ ، حينما أشار بن جوريون على الحكومة الإسرائيلية بالعمل بسرعة على تنفيذ قرار جعل القدس عاصمة لإسرائيل، وحتى ١٩٤٩/١٢/١١م حيث صدر قرار نقل مقر الحكومة إلى القدس.

٢- من ١٩٤٩/١٢/١١م وحتى ١٩٥٠/١/٢٣م، حيث تم تنفيذ القرار السابق.

٣- من ١٩٥٢/٥/٤م، حيث الإعلان الرسمى بنقل وزارة الخارجية إلى القدس وحتى ١٩٥٣/٧/١٢ حيث تم نقل الوزارة فعلياً إلى المدينة.

٤- من ١٩٦٧/٦/٧م وحتى ١٩٦٧/٦/٢٨، حيث تم الاستيلاء على كل القدس وتوحيد شطريها.

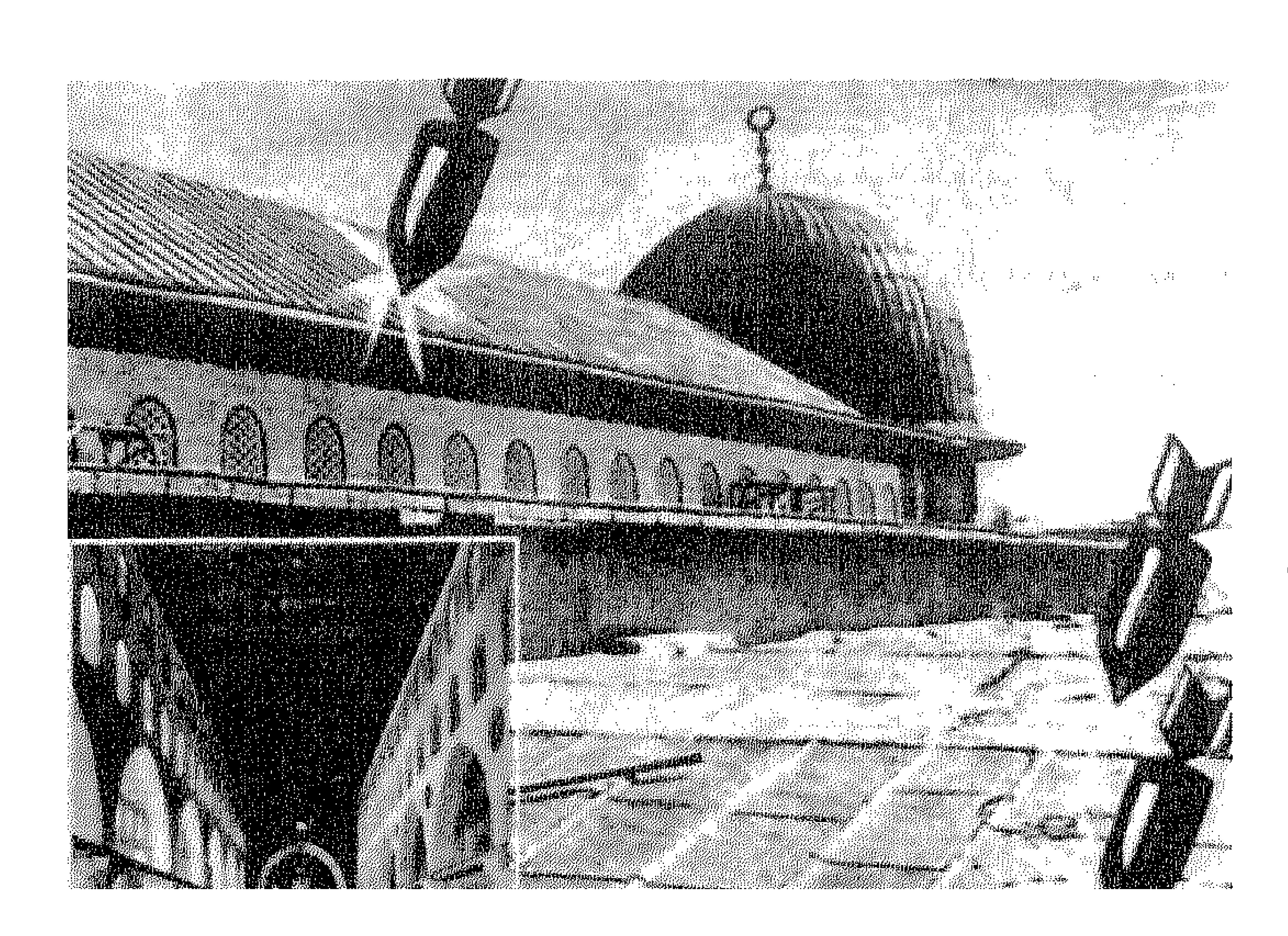
أما ما أعقب ذلك من قرارات حتى الآن، فهو نتيجة حتمية للقرارات السابقة.



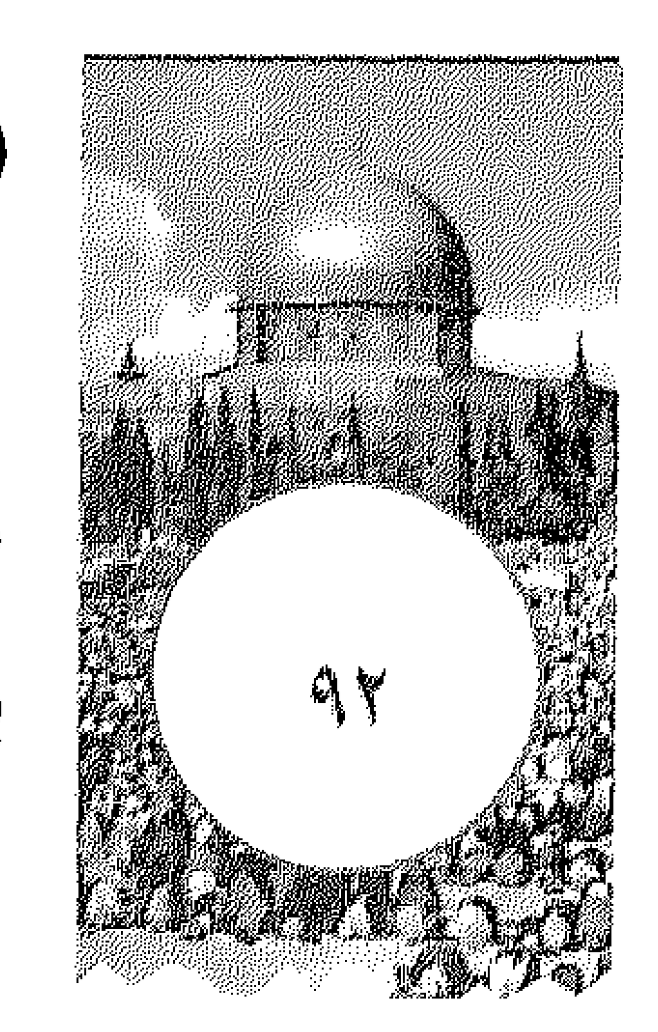
صور تذكارية للمزود الذى ولد عنده السيد المسيح وأقيمت عليه كنيسة المهد فى بيت لحم تحت حراسة جنود الأتراك



الجنود العزب يحرسون المسيحيين أثناء إقامة شعائرهم الدينية خلال أسبوع الآلام فى عام ١٩٤٨



الأماكن التى ضربتها المدفعية اليهودية فى المسجد الأقصى أثناء الحرب العالمية



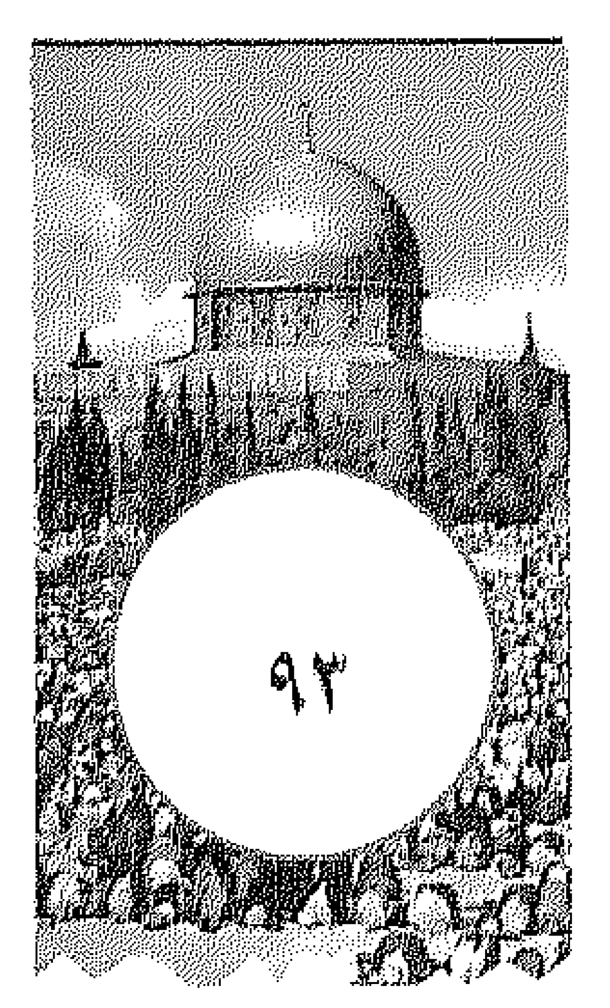
(أ) المرحلة الأولى ١٩٤٨ - ١٩٦٧:

نشب القتال بين العرب واليهود عام ١٩٤٨م، وتدخلت بعض الدول العربية فى هذه الحرب التى استمرت حتى يونيو ١٩٤٨م، أى بعد قيام إسرائيل بأسابيع، وكان الفيلق العربى قد تمكن من الوصول إلى القدس وإخراج اليهود من أحيائها القديمة بعد قتال مرير، وأصبحت المدينة منقسمة إلى قسمين : داخل الأسوار بيد العرب، وخارجها فى منطقة القدس الجديدة بيد اليهود.

فى تلك الأثناء، كان مجلس الوصاية قد انتهى فى المدة المحددة له من بحث مشروع النظام الخاص بمنطقة القدس الدولية، وتم عرضه على الجمعية العامة فى ٢١/٤/١٩٤٨، إلا أن الجمعية العامة انشغلت ببحث سبل فرض الهدنة بين المتحاربين ، وأوصت فى ٦/٥/١٩٤٨م بأن تقوم حكومة الانتداب بتعيين محافظ محايد لمنطقة القدس يدير أمورها حرصاً على المناطق المقدسة فيها تمهيداً لتطبيق نظام دولى خاص بالمدينة، واختير لهذه المهمة الأمريكى هرولد إيفانز، لكنه فشل فى التوفيق بين اليهود والعرب إلى أن تولى فولك برنادوت المهمة كوسيط من قبل الأمم المتحدة بمقتضى قرار الجمعية العامة الصادر فى ١٤/٥/١٩٤٨م.

وقد قوبلت مقترحات برنادوت (التى رأت ضم القدس إلى الإقليم العربى مع منح اليهود حق الاستقلال بشئون البلدية ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة) بالرفض من جانب العرب واليهود، وضاعت جهود برنادوت، واستطاع اليهود خلال الهدنة - بفضل تهريب المهاجرين والأسلحة إلى فلسطين - من احتلال بعض الأماكن العربية كاللد والرملة، وشق طريق لهم بين تل أبيب والقدس.

وبمقتل برنادوت فى ١٧/٩/١٩٤٨م توقفت جهوده لإيجاد تسوية فى فلسطين، وخلفه رالف بانش حيث توصل إلى هدنة بين الطرفين وفقاً لقرارات الأمم المتحدة، وقد انتهزت الدول العربية فرصة تكوين لجنة التوفيق بقرار الجمعية العامة فى ١١/١٢/١٩٤٨ - وكان من مهامها وضع نظام دائم لتدويل القدس خلاف نظام مجلس الوصاية المقترح - ووافقت وفودها على فكرة التدويل التام لمنطقة القدس، على أساس وحدتها ودون تقسيم الأماكن المقدسة فيها. أما الجانب اليهودى فقد قامت اقتراحاته على أساس الأخذ بالوضع الراهن فى المدينة، إذ أصبحوا يحتلون القسم الأكبر منها، وقصر التدويل على الأماكن المقدسة فى الأحياء القديمة التى تحت سيطرة الجيش الأردنى، وانتهت لجنة التوفيق إلى إقرار الوضع الراهن - كما أراد اليهود - والعهد إلى السلطات



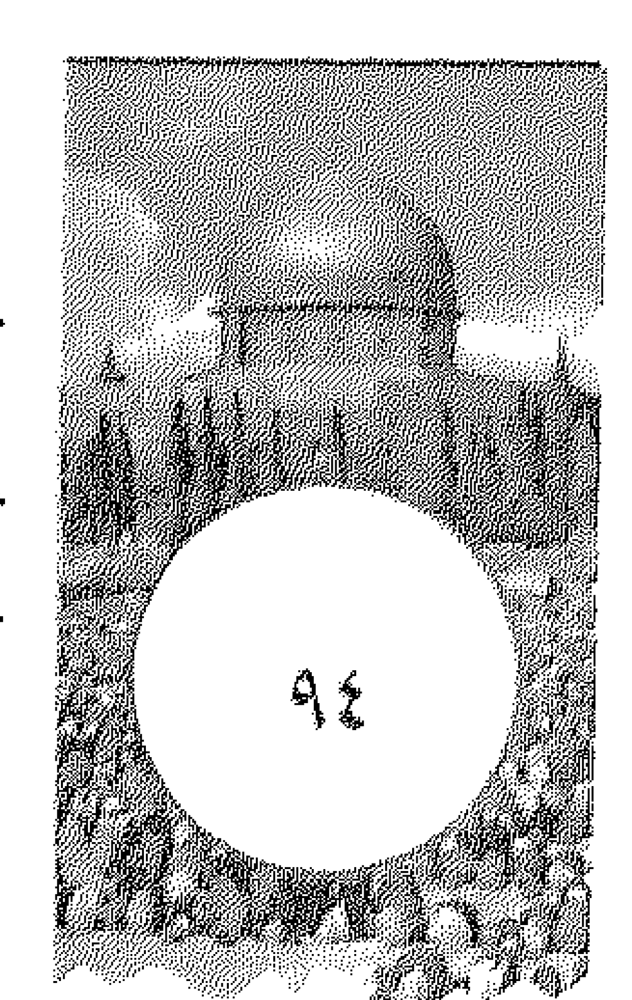
العربية واليهودية بإدارة المناطق التابعة لكل منهما، مع عدم أحقية العرب واليهود فى اتخاذ مدينة القدس عاصمة لهم.

وقد رفضت الدول العربية هذا المشروع بينما قبلته الأردن التى كانت تطالب بضم القدس إليها، كما رفضه اليهود، وكذلك رفضته الجمعية العامة فى ٩/١٢/١٩٤٩م، واتخذت - تحت تأثير الكنيسة الكاثوليكية - القرار رقم ٣٠٢-٤ الذى أكدت فيه عزمها على وضع القدس تحت نظام دولى دائم يضمن حماية الأماكن المقدسة، وعهدت بهذا القرار إلى لجنة الوصاية من جديد، حيث عقد المجلس أكثر من ثلاثين جلسة انتهى فيها إلى قرار نظام من ٤٣ مادة، لكنه سرعان ما أعلن عن عجزه عن تنفيذ هذا النظام، وفى الوقت نفسه أعلنت إسرائيل رسمياً فى ١١/١٢/١٩٤٩م نقل عاصمتها إلى القدس، وفى اليوم التالى أعلنت الأردن ضمها للأراضى التى سيطرت عليها من فلسطين بما فيها بعض مناطق القدس، واعترفت الحكومة البريطانية رسمياً بإسرائيل، كما اعترفت بضم الأردن للأراضى الفلسطينية وتكوين المملكة الأردنية الهاشمية التى وضع خطوطها الأولى مشروع لجنة بيل عام ١٩٣٧م.

وقد احتج مجلس الوصاية على خطوات الحكومة الإسرائيلية إزاء القدس حيث قامت بنقل وزاراتها وبعض إدارتها المركزية إلى المدينة كما أعلن فى ١٤/٦/ ١٩٥٠م إحالة الموضوع مع مشروع النظام المعدل الذى تم إعداده إلى الجمعية العامة، غير أن الجمعية لم تبت فى تقرير مجلس الوصاية خلال دورتها المنعقدة فى شتاء ١٩٥٠م.

واستطاعت بريطانيا وأمريكا أن تدفع السويد إلى تقديم مشروع قرار معدل لقرار الجمعية العامة الخاص بتدويل القدس، بحيث يقتصر التدويل على الأماكن المقدسة دون مساس بالسلطة القائمة على قسمى المدينة اليهودى والأردنى، وقد فشل هذا المشروع رغم تأييد بريطانيا وأمريكا له، وأصبح الوضع القانونى للمدينة يتلخص فى أن التدويل الشامل ودستوره قائمان من ناحية الأمم المتحدة لكنهما يفتقران إلى التنفيذ، بإيعاز من الولايات المتحدة وحلفائها، ومن ثم يصبح من الأمور غير المشروعة - والخطيرة أيضاً - المناداة بتدويل الأماكن المقدسة وحدها، أى القدس العربية.

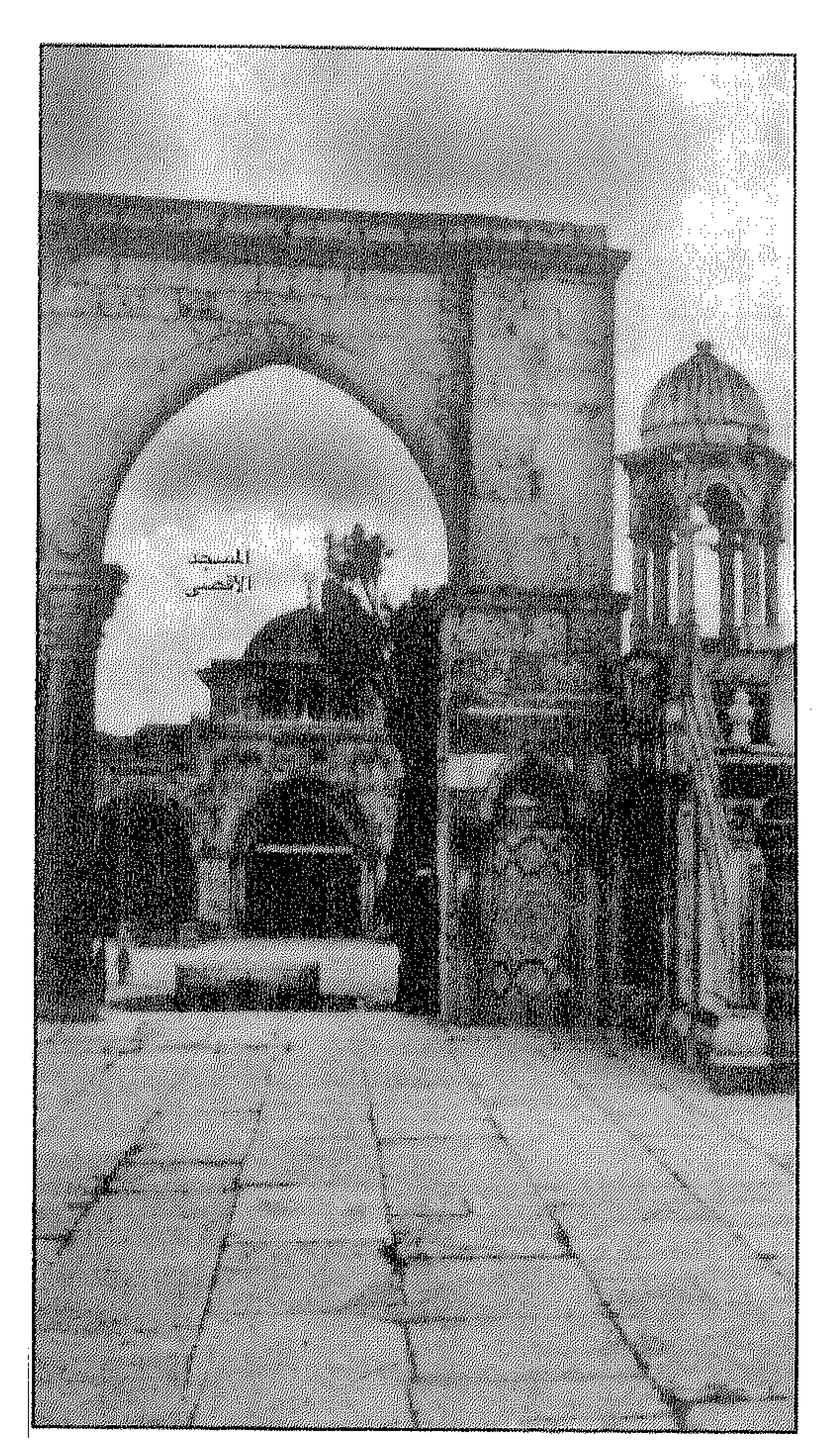
وتمادت إسرائيل فى غيها وسياستها الاستعمارية عن طريق فرض الأمر الواقع، وسعت فى صيف ١٩٥٤م إلى أن يقدم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم إلى الحكومة الإسرائيلية فى القدس الغربية وكان السفير البريطانى أول من سارع إلى ذلك فى ١٠/١١/١٩٥٤م ثم السفير الأمريكى، الذى جاء فى خطابه آنذاك :



«لا يسعنى إلا الفخر بما قامت به بلادى فى سبيل إنشاء بلادكم .. وإنه لجدير بنا نحن الأمريكيين، الذين ندين بحضارتنا إلى الكثير من إلهام أنبياء إسرائيل، أن نعمل متحدين مع أحفادهم فى المهمة العظمى، وهى بناء أمة حديثة فى الأرض القديمة».

ويتم استنساخ المشاهد «والسيناريوهات» ليكرر حكام الولايات المتحدة بعد نصف قرن من الزمان، نفس المواقف، ونفس العبارات.

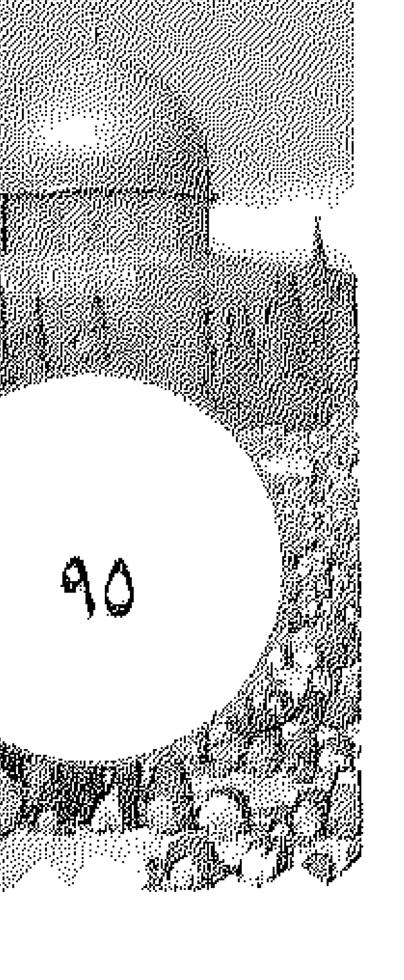
وفى إطار تصعيد عملية تهويد القدس وأسرلتها، اتجهت إسرائيل إلى إقامة العرض العسكرى - بمناسبة ما يسمى بعيد الاستقلال - سنوياً فى القدس، مع استنكار مجلس الأمن لذلك، هذا الاستنكار الذى لم يكبح جماح إسرائيل وإنما دفعها إلى الاستمرار فى غيها وسياستها الاستعمارية الاستيطانية تجاه القدس بخاصة، وفلسطين بعامة.



(المسجد الأقصى) صورة نادرة

ومع أن القدس العربية قد أصابتها الجراح الخطيرة عام ١٩٤٨م، وسقطت فى بحور من المعاناة بسبب مشاكل اللاجئين، والدمار الذى لحق بها فى الحرب، وامتناع الأردن عن تلبية احتياجات المدينة الفلسطينية، بل ونقل الدوائر الحكومية من القدس إلى عمان، وتدهور العلاقات بين المدينة والحكومة الأردنية فى أعقاب اغتيال ملك الأردن على يد مؤيدى المفتى فى أبريل عام ١٩٥١م، فإن القدس الأردنية - بعد ضم الأردن لها - قد بدأت تنهض من جديد، وتم إصلاح المسجد الأقصى عام ١٩٥٣م، كما أنشئت جمعية البر الإسلامية لإعادة تعمير القدس وبناء المدارس والمستشفيات والهيئات الخيرية، وأقيمت خلال الخمسينيات مساكن جديدة للاجئين فى وادى الجوز وأبى طور والشيخ جراح، وتم إنشاء منطقة تجارية جديدة إلى الشمال والشرق من المدينة القديمة.

وتم البدء عام ١٩٥٨م فى عملية تجديد شامل للحرم القدسى الشريف، وبدأ الاقتصاد



المقدس فى التحسن، وشهدت السياحة ازدهاراً ملحوظاً بحيث أصبح فى المدينة ما يقرب من سبعين فندقاً حتى عام ١٩٦٦م.

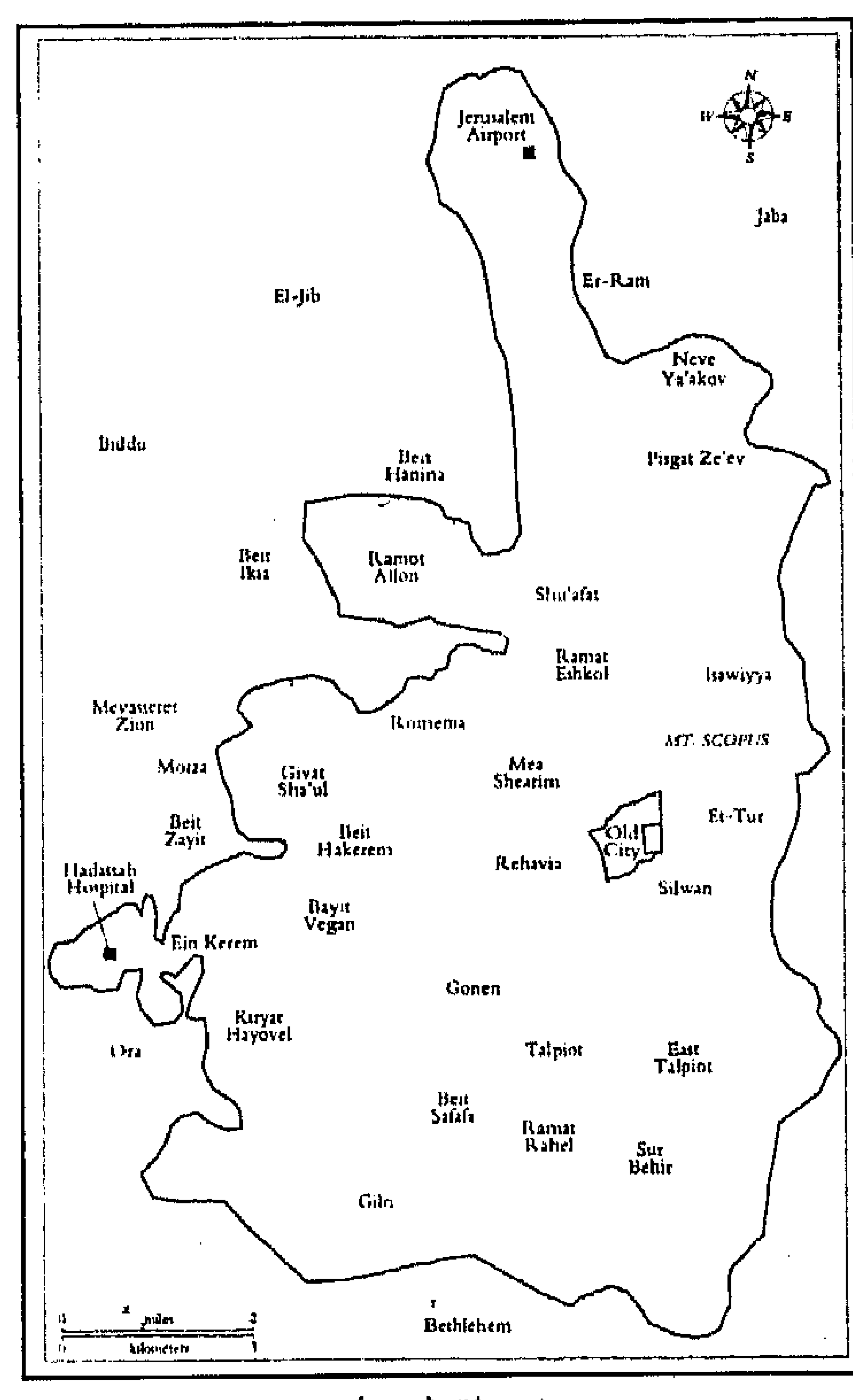


فندق الأردن فى أريحا

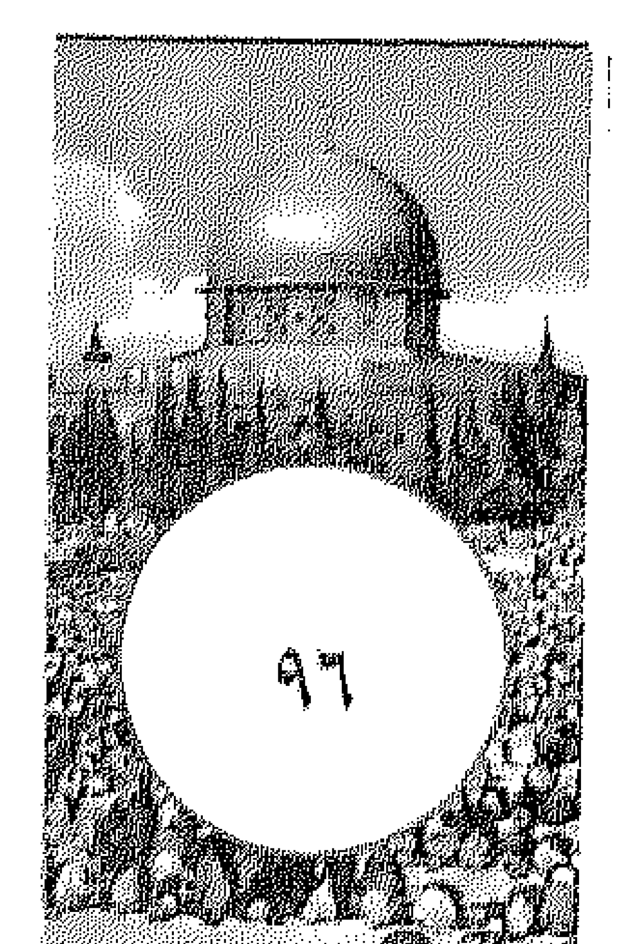
وكرد فعل لعملية نقل مقر الحكومة الإسرائيلية إلى القدس الغربية، رفعت الأردن من مكانة القدس بحيث أصبحت عام ١٩٥٩م «أمانة» على نفس مستوى عمان، وأعلن الملك حسين القدس عاصمة ثانية للمملكة الأردنية وخطط لبناء قصر له شمالى المدينة.

أما القدس الغربية، فقد خلت من التناسق والوحدة، إذ تتكون من سلسلة من الضواحى، يسكن كل ضاحية منها مجموعة عرقية، أو دينية، لها حياتها المستقلة، بل أصبحت مدينة منقسمة على نفسها، يعادى كل فريق من سكانها الفريق الآخر، واحتدم الصراع بين المتدينين والعلمانيين.

وأخذ شقا المدينة يتباعدان على المستوى الواقعى، فالقدس العربية أخذت تتوجه شرقاً نحو عمان، والقدس الغربية تتوجه نحو تل أبيب والساحل، وكان السفارديم (اليهود الشرقيون) يسكنون المناطق الفقيرة بجوار الحدود، وتم إهمال المركز التجارى اليهودى فى المدينة لعدم استتباب الأمن بصورة كاملة، وأصبح مركز القدس الغربية الجغرافى هو الجامعة العبرية.



خريطة (١٧)
الحدود البلدية للقدس كما حددتها إسرائيل عام ١٩٦٧م



ومع تولى تيدى كوليك رئاسة بلدية القدس الغربية - عام ١٩٦٥م وهو أحد أقطاب حزب العمل الصهيونى - تغير الكثير من واقع المدينة، وسعى إلى التوجه إلى الأماكن الفقيرة تعبيراً عن قناعته بجعل القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل.

(ب) المرحلة الثانية ١٩٦٧ - ؟

كانت حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ مدينة القدس، وكان اليوم الثانى من المعارك مسرحاً لمعارك سياسية داخل التيارات السياسية فى الحكومة الإسرائيلية، وما إن حل السابع من يونيو، ووصلت أخبار وقف إطلاق النار إلى قادة إسرائيل حتى سارع بيجن وحث ليفى أشكول على القيام بعملية فورية لاحتلال المدينة القديمة، ووافق الوزراء الإسرائيليون، وأعطيت الأوامر باحتلال القدس الشرقية، وتم الاحتلال مساء نفس اليوم، ووقف موشى ديان عند حائط البراق (المبكى) ليقول:

«لقد قام جيش الدفاع الإسرائيلى هذا الصباح بتحرير القدس. لقد وحدنا من جديد القدس المبتورة، عاصمة إسرائيل المشطورة. رجعنا إلى قدس أقداسنا، عدنا إليها ولن نتركها إلى أبد الآبدين».

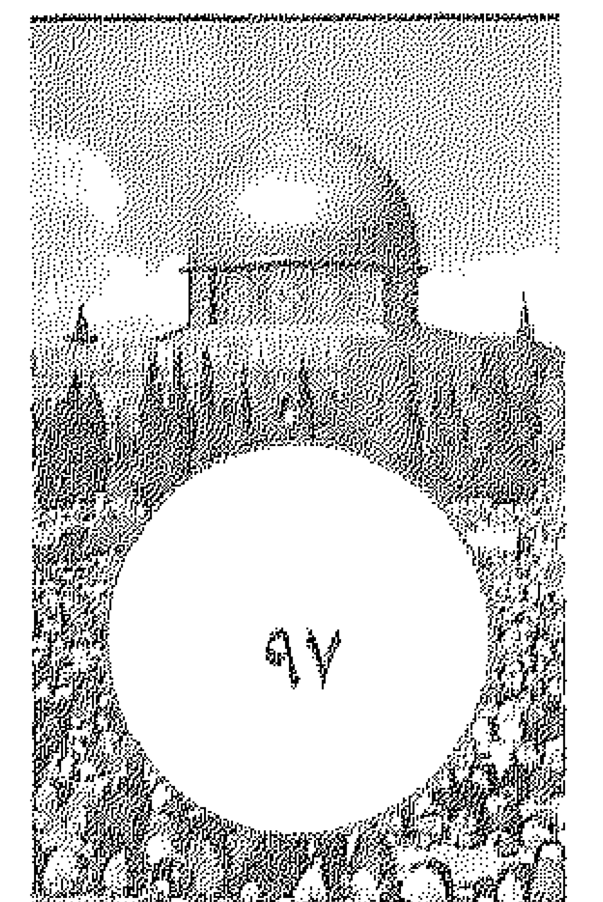
وفى صباح الثامن من يونيو ١٩٦٧م كان الحاخام شلومو جورين - حاخام الجيش الإسرائيلى آنذاك - يقف بالقرب من حائط البراق ويقيم شعائر الصلاة اليهودية معلناً أن حلم الأجيال اليهودية قد تحقق، فالقدس لليهود ولن يتراجعوا عنها وهى عاصمتهم الأبدية.

وفى الحادى عشر من يونيو اجتمعت الحكومة الإسرائيلية لبحث ضم القدس إلى إسرائيل، وتوالت الاجتماعات حتى تم تقديم قرار للكنيست الإسرائيلى فى ١٩٦٧/٦/٢٧ يقضى بضم القدس إلى إسرائيل، ووافق الكنيست على ذلك، وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة ما يسمى بأمر القانون والنظام رقم(١) لسنة ١٩٦٧م، وأخضعت بموجبه منطقة مدينة القدس للقوانين والنظم الإدارية الإسرائيلية.

وجدير بالذكر أن عملية الاستيطان اليهودى للقدس - بعد احتلالها - قد تمت على مرحلتين:

الأولى: الاستيطان فى القدس القديمة، وقد باشرتها السلطات الإسرائيلية فور الانتهاء من عمليات المصادرة والهدم داخل البلدة القديمة حيث أقيم أول حى يهودى فيها، ضم سوقاً تجارياً ومعبداً للصلاة، أقيمت كلها على أنقاض أربعة أحياء عربية هى : حى الشرف، حى الباشورة، حى المغاربة وباب السلسلة.

كانت هذه الخطوات بمثابة «استيطان عاجل» صاحبته مجموعة من إجراءات التهويد الأخرى وأهمها توسيع ساحة حائط البراق على حساب العقارات الوقفية الإسلامية، والبدء فى عمليات الحفر والتنقيب تحت الحائطين الغربى والجنوبى للمسجد الأقصى، وترحيل الأسر والعائلات العربية



من المناطق المجاورة للحى اليهودى، ومصادرة المزيد من الأراضى والعقارات العربية فى البلدة القديمة وخارج الأسوار وفى نطاق حدود أمانة القدس لعام ١٩٦٧م.

الثانية: الاستيطان فى حدود أمانة القدس لعام ١٩٦٧م، والبدء فى إقامة حزام من الأحياء السكنية يحيط بالقدس من الناحيتين الشمالية والجنوبية. وتهدف الخطة الإسرائيلية التوسعية إلى توسيع حدود مدينة القدس بحيث تمتد لتشمل ما يقارب ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية، وقد نشرت ملامح هذا المخطط الاستيطانى فى صحيفة معاريف العبرية بتاريخ ٢٦/٣/١٩٦٩م.

وقد أعلن الدكتور «ميرون بنفنستى» نائب رئيس بلدية القدس الإسرائيلى فى مارس عام ١٩٧١م مشروعاً عرف باسمه يقترح فيه توسيع حدود بلدية القدس لتشمل المناطق الممتدة من رام الله شمالاً وحتى بيت لحم جنوباً، وأقيمت فى إطار هذا المشروع حوالى ١٩ مستوطنة تشكل حزاماً يطوق الأحياء السكنية المجاورة للمدينة.

وفى فبراير عام ١٩٧٤م، أعلنت الصحف العبرية عن تفاصيل مشروع آخر وضعه الدكتور «رافل بنكلر»، يطرح وفقه تصورات عامة لمستقبل المدينة، ويتضمن ما يلى :

١- إبقاء مدينة القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية.

٢- توسيع حدود المدينة وتقسيمها إلى ثمانية أحياء، لكل حى منها مجلس بلدى فرعى، وتخضع المدينة كلها لهيمنة المجلس البلدى المركزى الذى يضم ٥٥ عضواً من بينهم ٣٨ عضواً من اليهود.

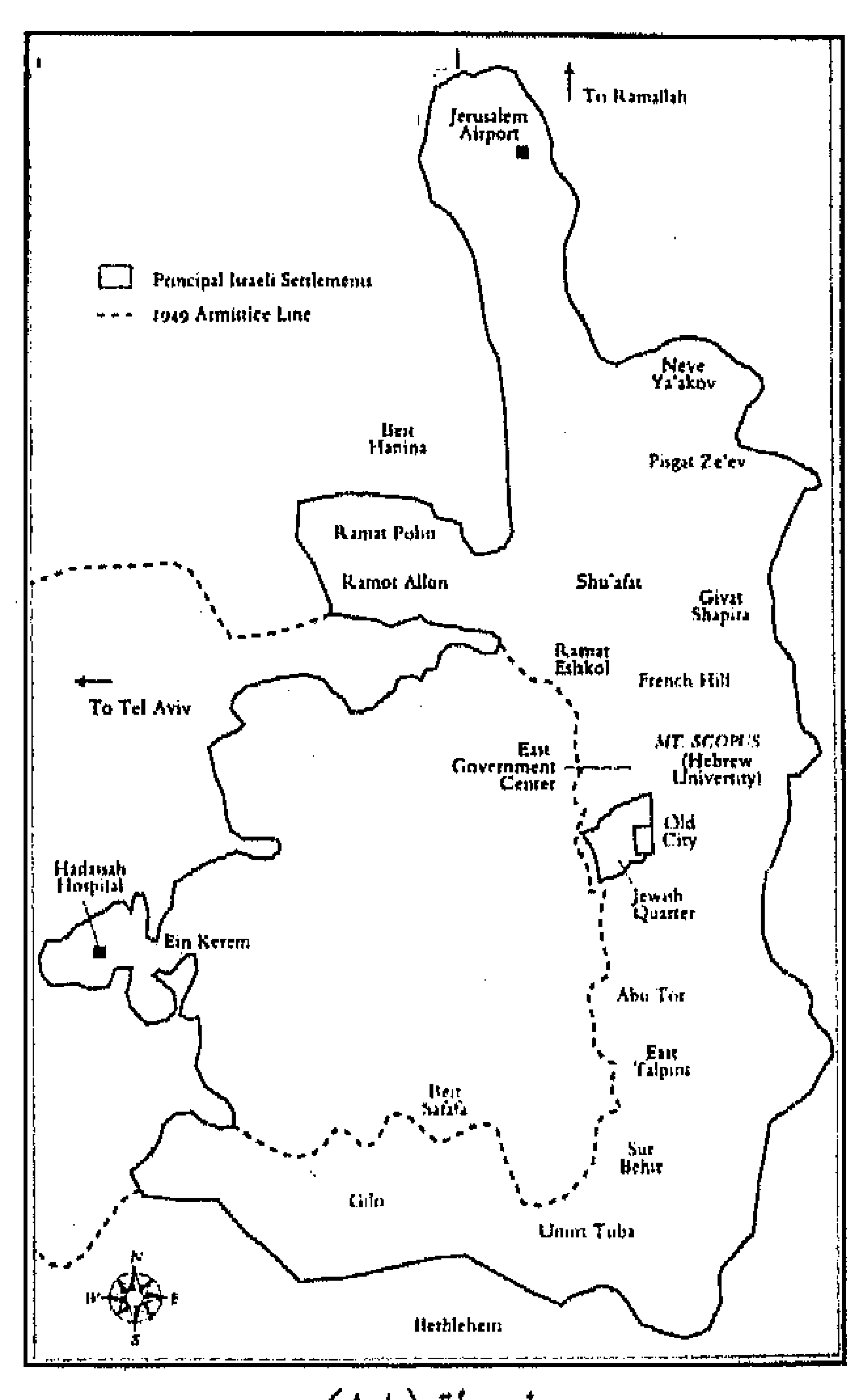
٣- إعطاء الأحياء العربية نوعاً من الحكم الذاتى.

٤- ضمان حرية العبادة والوصول إلى المقدسات لجميع الأديان.

٥- عدم تجاوز نسبة السكان العرب على ٢٥٪ فى الفترة ١٩٦٧ - ٢٠١٠م.

٦- يضم المشروع التوسعى المقترح المناطق العربية الممتدة شمالاً حتى رام الله والبيرة، وشرقاً حتى أبو ديس والعيزرية، وغرباً حتى اللطرون، وجنوباً حتى بيت لحم.

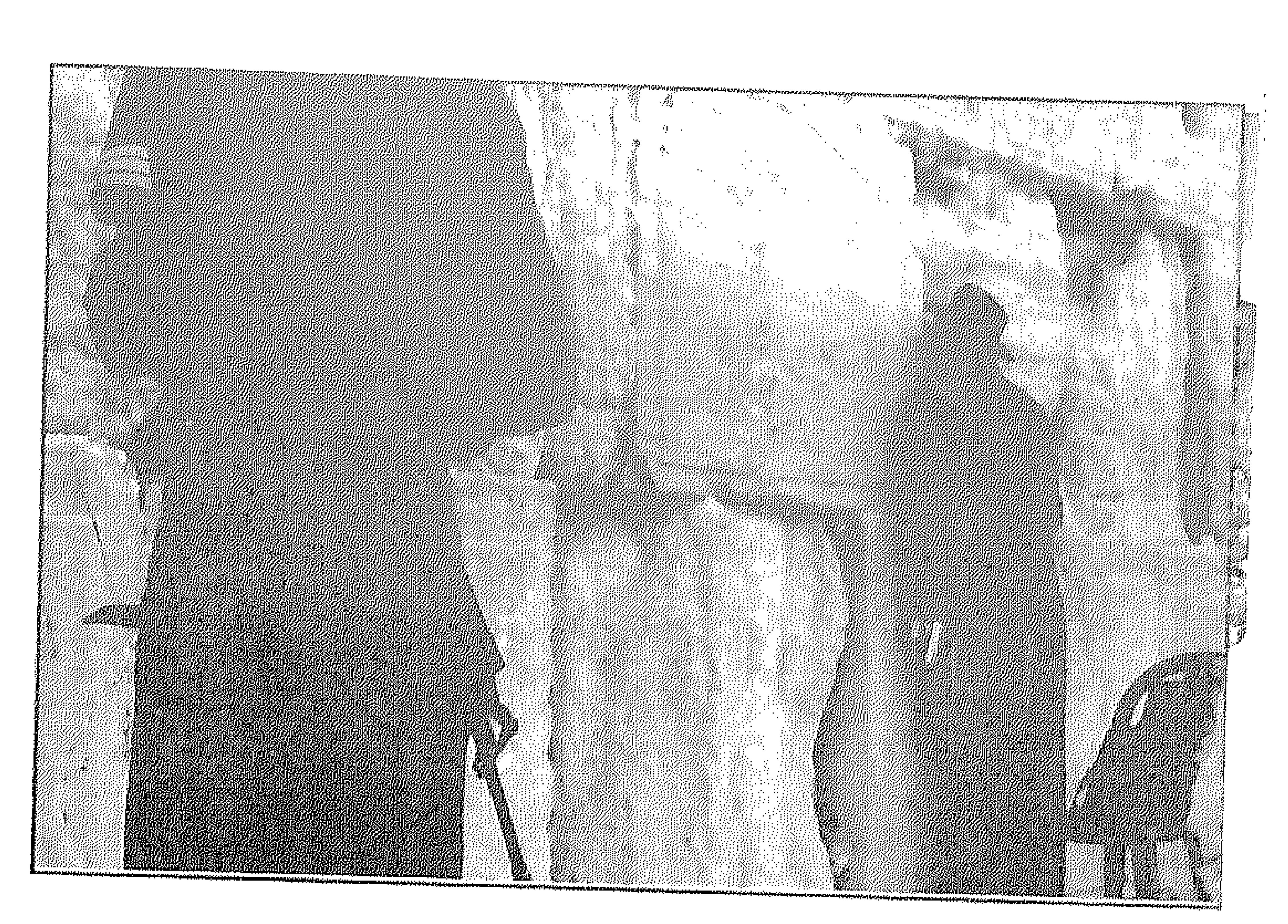
كما شكلت الحكومة الإسرائيلية لجنة لوضع مخطط



خريطة (١٨)
البناء الذى تم خارج حدود وقف إطلاق النار منذ عام ١٩٦٧م



موشي ديان



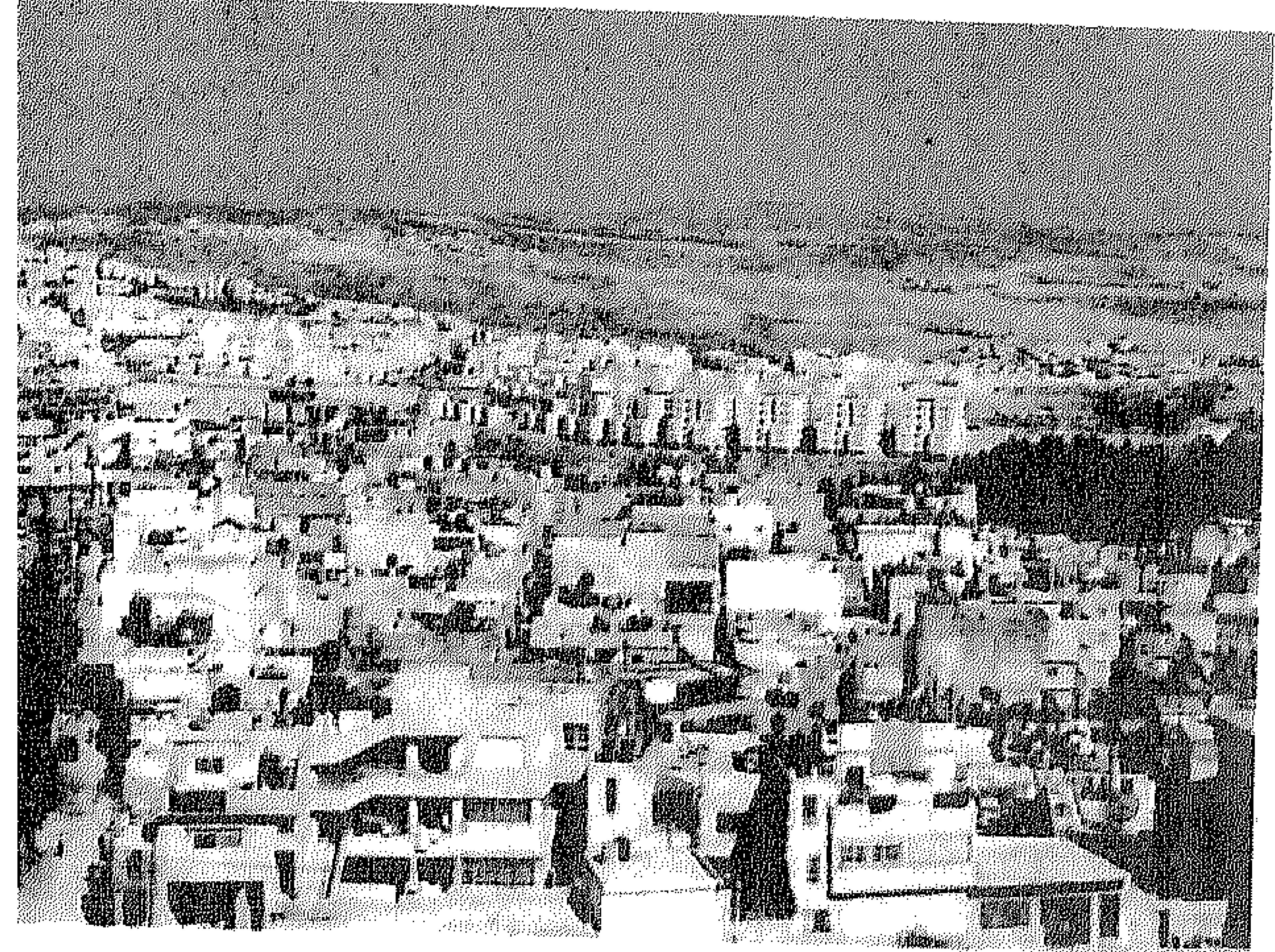
حائط المبكى تحت الاحتلال الإسرائيلى

لتوسيع القدس أطلقت عليها لجنة «جفنى» ونشرت توصياتها فى صحيفة هآرتس العبرية فى ١٤/ ١٠/ ١٩٧٥م ودعت إلى إقامة ٢٨٦٠٠ وحدة سكنية خلال الفترة من ٧٥ - ١٩٧٩م.

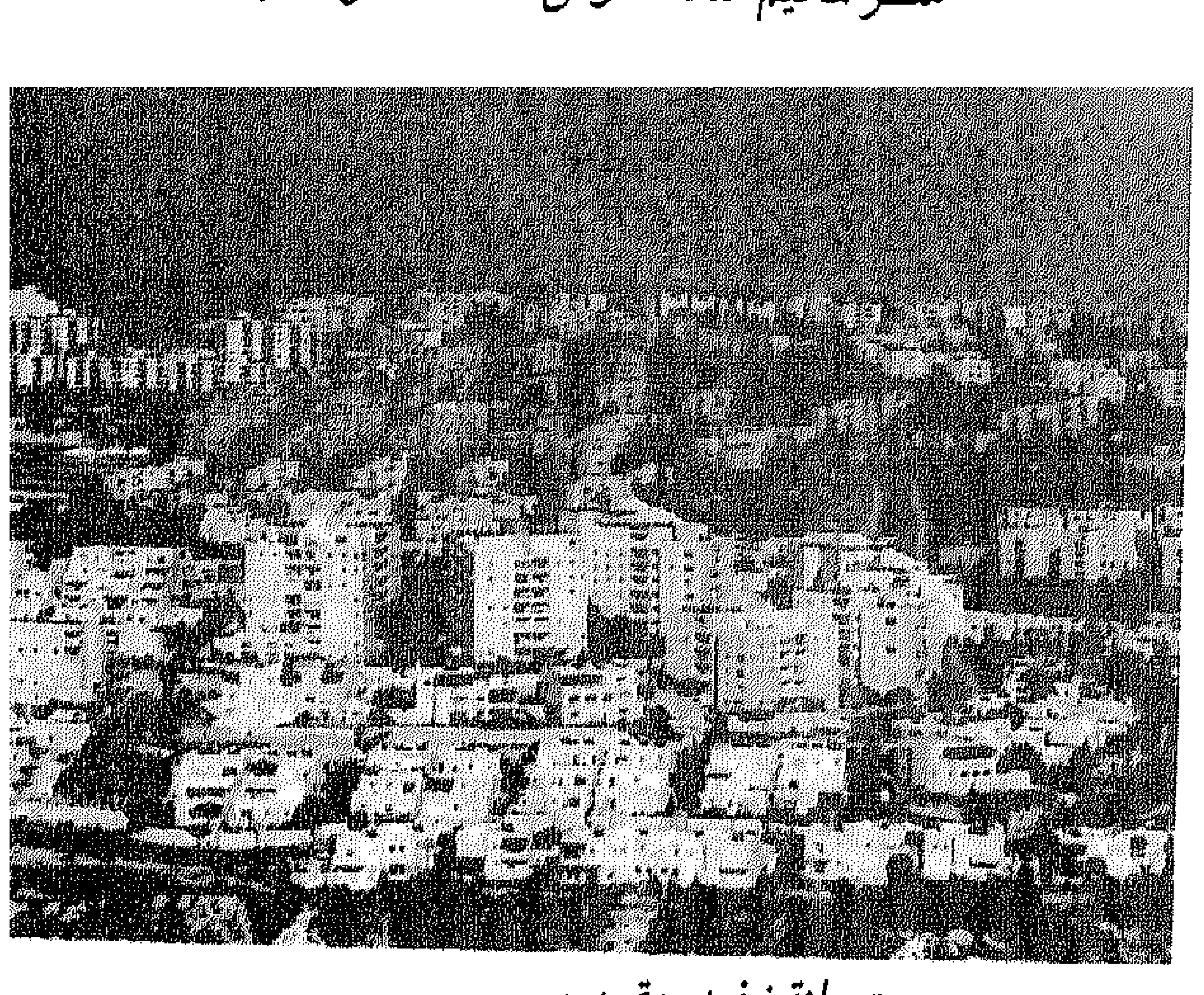
وفى ١٩٧٥/٩/٣٠م نشرت صحيفة دافار العبرية خبراً لمسئول إسرائيلى أعلن فيه الموافقة على خارطة القدس الموسعة على النحو التالى :

«تمتد حدود بلدية القدس مابين الخان الأحمر شرقاً واللطرون غرباً ودير دبوان وتبين شمالاً وضواحى مدينة الخليل (مستوطنة كريات أربع) جنوباً».

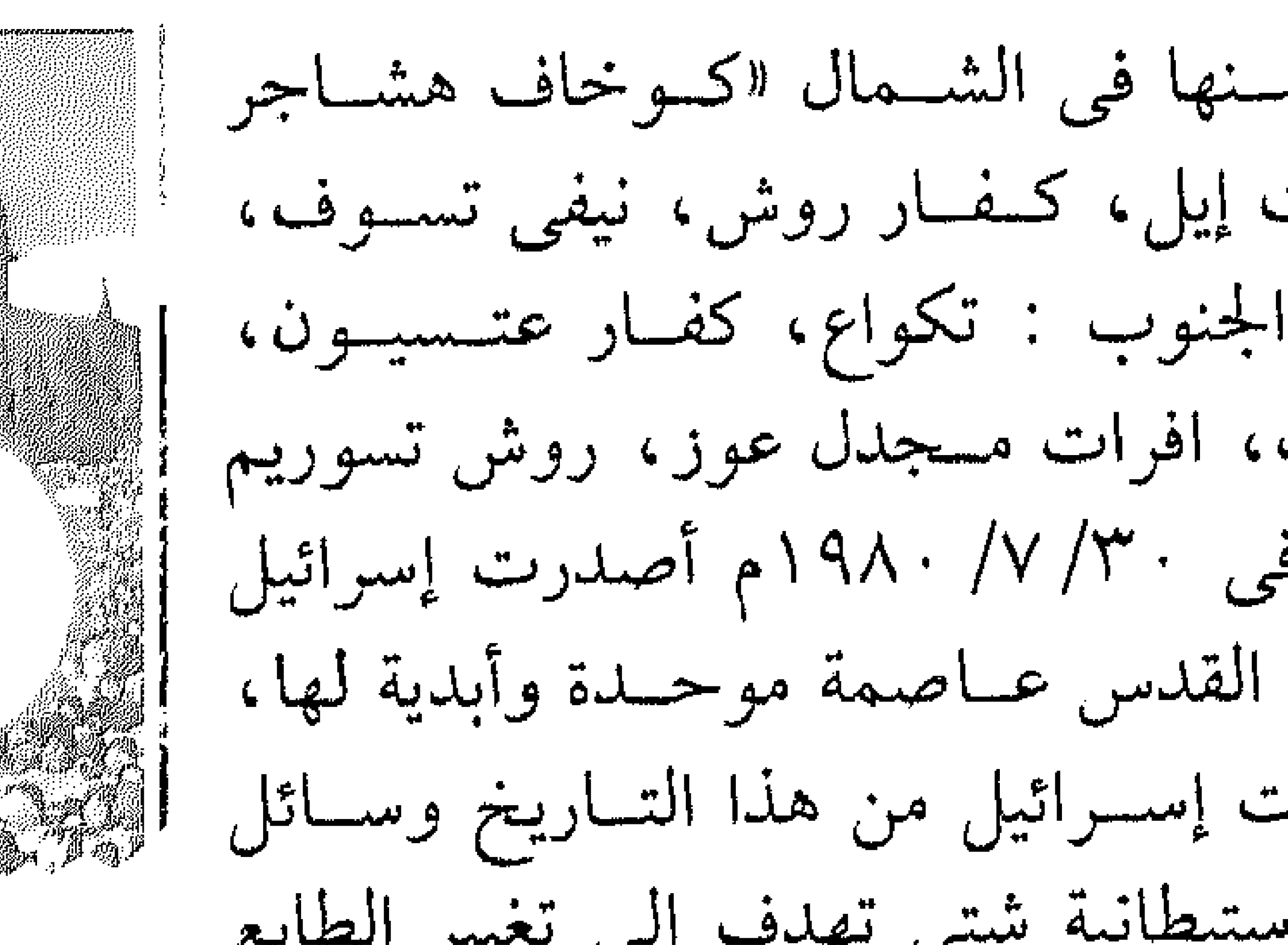
ويقضى هذا التوسع الإسرائيلى بضم ٩ مدن، ٦٠ قرية عربية وما يقارب من ٣٠٪ من إجمالى مساحة الضفة العربية. وقد أقيمت وفق هذا المشروع ١٥

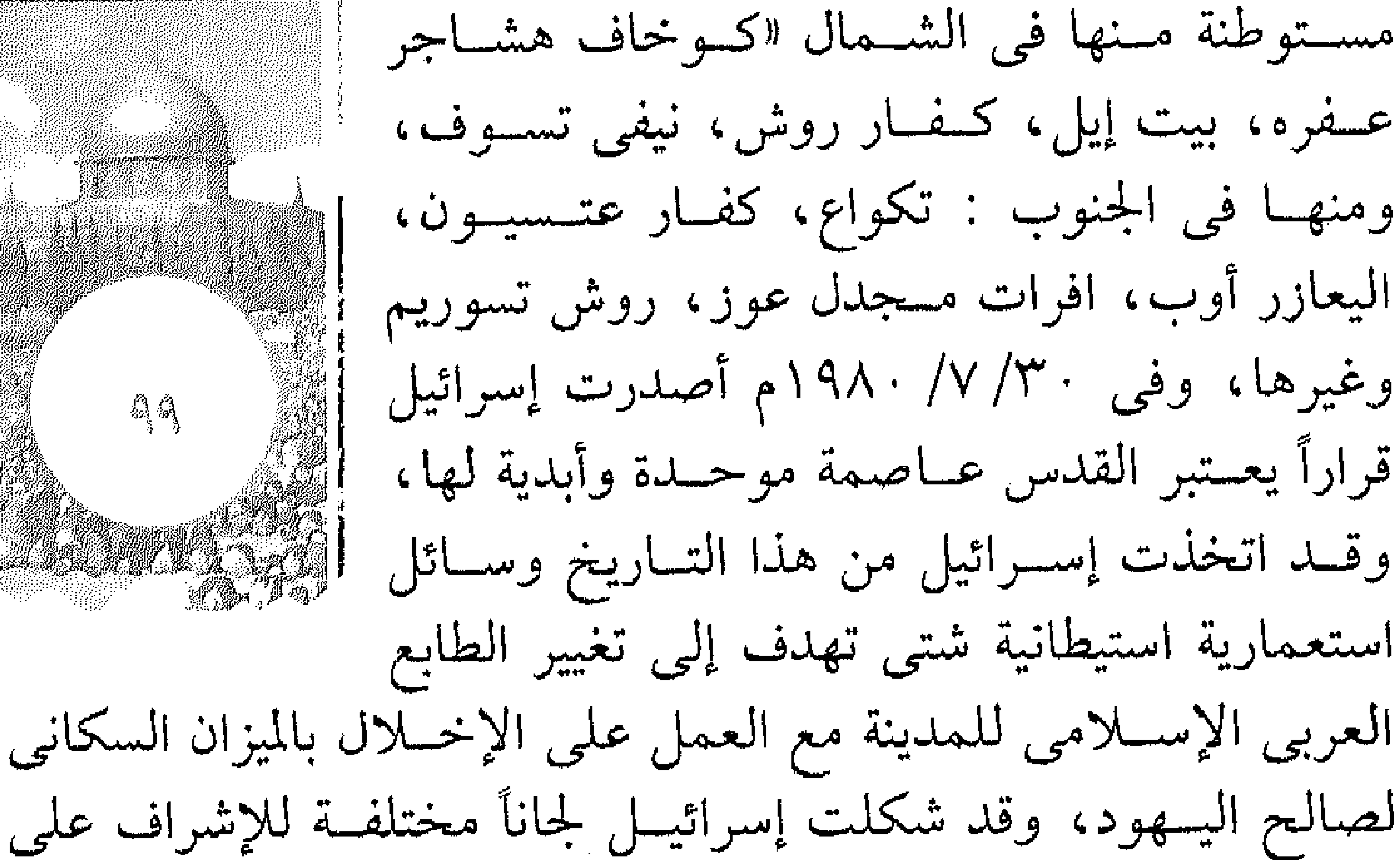


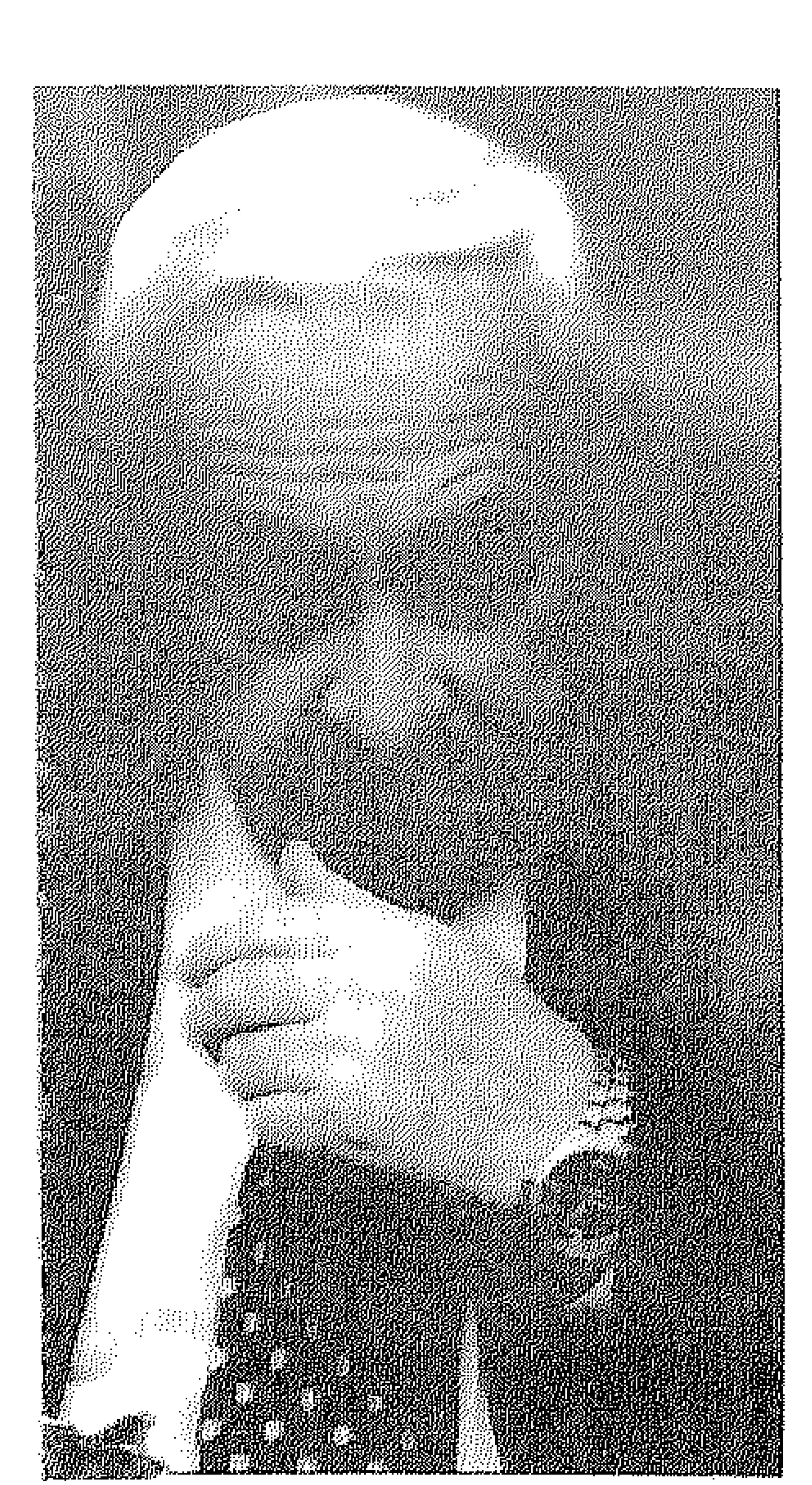
منظر لمخيم شعفاط ومن خلفه مستوطنة بسغات زئيف



مستوطنة نيفيه يعقوب

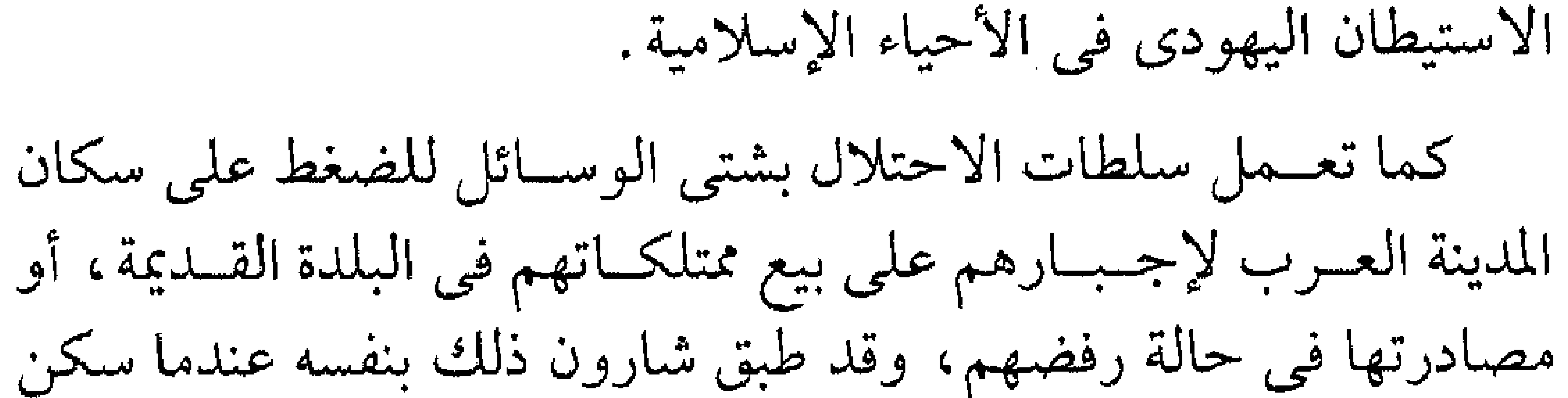






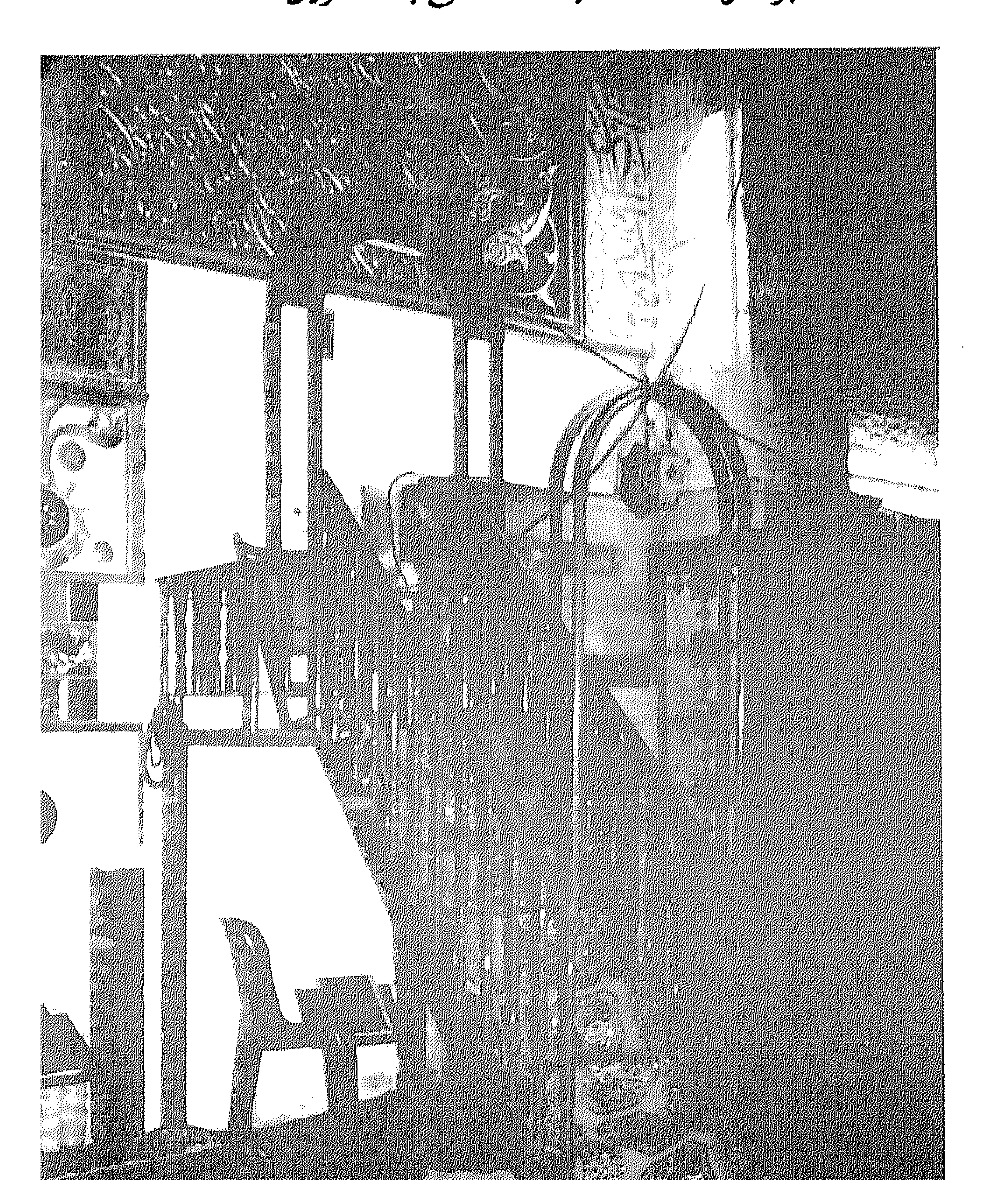
شارون

مستوطنة منها فى الشمال «كوخاف هشاجر عفره، بيت إيل، كفار روش، نيفى تسوف، ومنها فى الجنوب : تكواع، كفار عتسيون، اليعازر أوب، افرات مجدل عوز، روش تسوريم وغيرها، وفى ٣٠/٧/١٩٨٠م أصدرت إسرائيل قراراً يعتبر القدس عاصمة موحدة وأبدية لها، وقد اتخذت إسرائيل من هذا التاريخ وسائل استعمارية استيطانية شتى تهدف إلى تغيير الطابع العربى الإسلامى للمدينة مع العمل على الإخلال بالميزان السكانى لصالح اليهود، وقد شكلت إسرائيل لجاناً مختلفة للإشراف على الاستيطان اليهودى فى الأحياء الإسلامية.

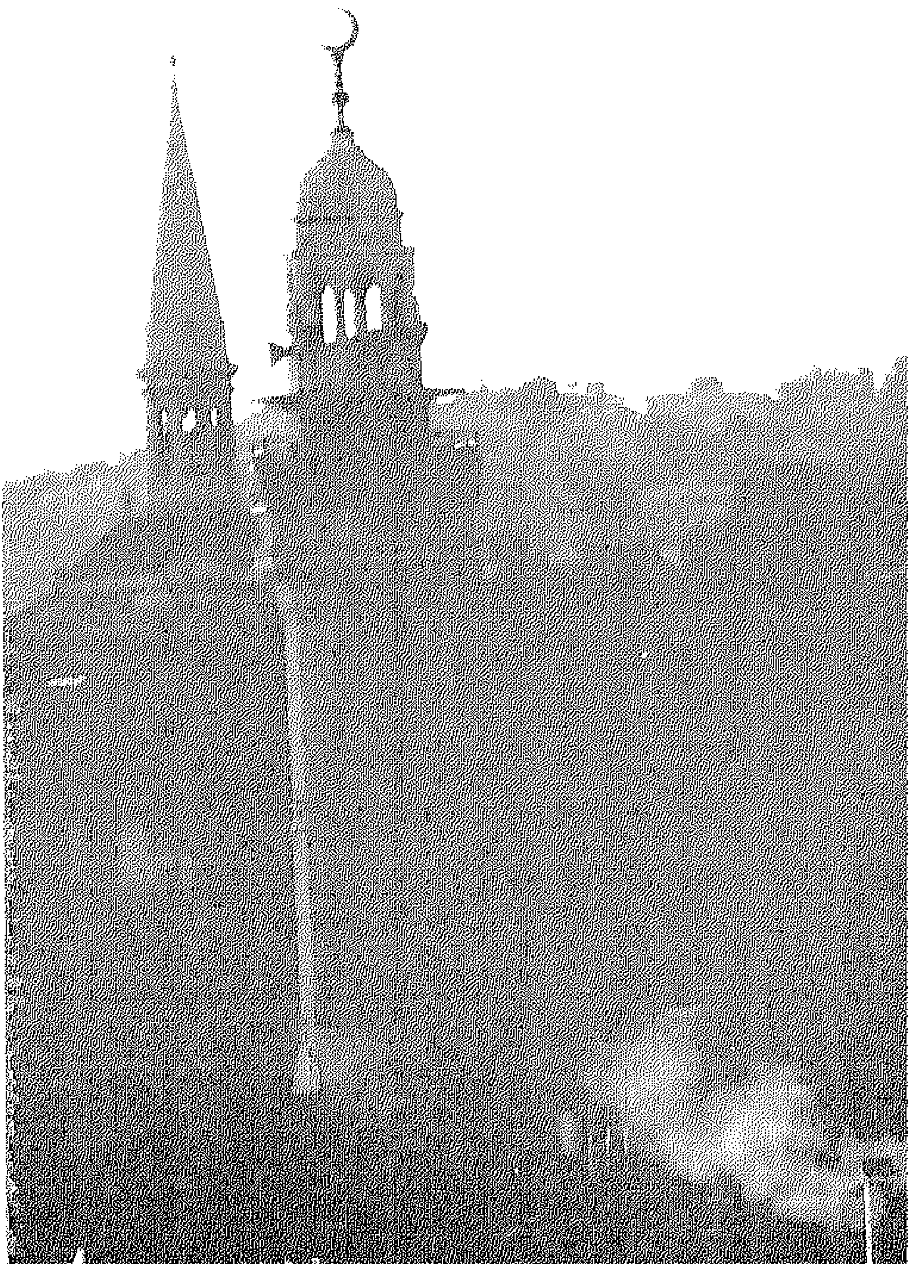


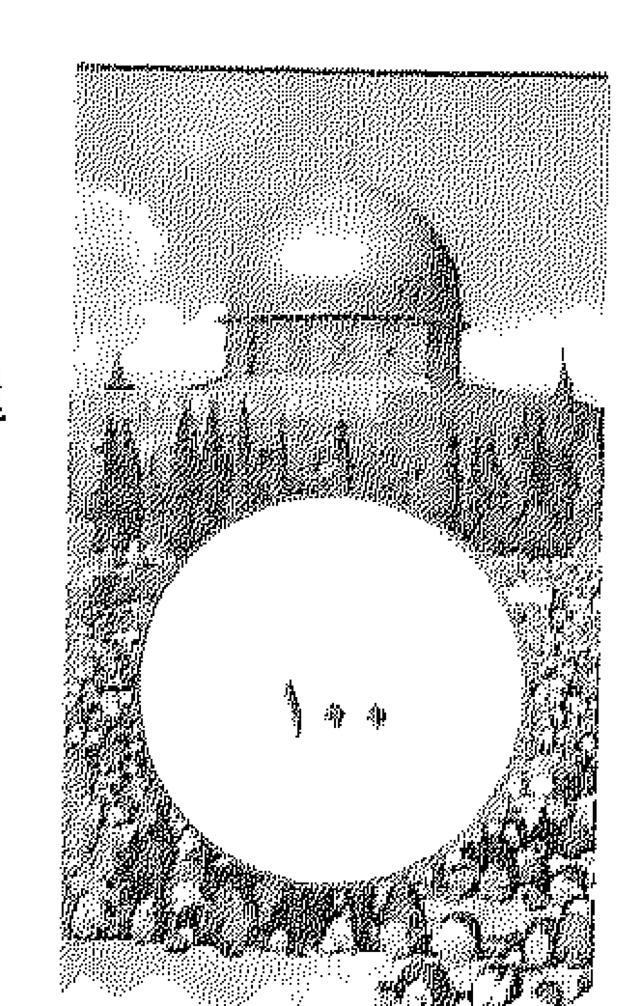
كما تعمل سلطات الاحتلال بشتى الوسائل للضغط على سكان المدينة العرب لإجبارهم على بيع ممتلكاتهم فى البلدة القديمة، أو مصادرتها فى حالة رفضهم، وقد طبق شارون ذلك بنفسه عندما سكن فى يوم ١٥/ ٢/ ١٩٨٧م منزلاً فى شارع الواد فى الحى الإسلامى بعد أن قام بطرد سكانه العرب.

المنبر المؤقت للمسجد الأقصى بعد حريق ١٩٦٩



مسجد عمر بن الخطاب تحت يد الاحتلال الإسرائيلى





لقد أصبح السكان العرب، بعد إعلان توحيد شطرى المدينة تحت سيطرة إسرائيل، أقلية لم تتجاوز نسبة ٣٠٪ فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.

وفى عام ١٩٩٠م تمت هجرة يهودية مكثفة من الاتحاد السوفيتى، شكلت قوة دفع هائلة لاستيطان القدس، سواء فى شكل إقامة مستوطنات جديدة، أو فى تكثيف القائم منها بالفعل.

ويمكن أن نوجز ملامح السياسة الإسرائيلية تجاه القدس منذ قيام إسرائيل وحتى الآن فيما يلى:

١- إرهاب السكان العرب وطردهم ونسف ممتلكاتهم.

٢- فرض سياسة الأمر الواقع بضم القدس إدارياً إلى إسرائيل.

٣- نهب أملاك العرب المقيمين والغائبين ومصادرتها.

٤- عزل القدس عن القرى والمدن العربية والسيطرة عليها اقتصادياً.

٥- تهويد التعليم العربى فى المدينة.

٦- تهويد الإنسان العربى المقدسى.

٧- تهويد النظام القضائى والشرعى الإسلامى.

٨- استحداث مدن وضواح يهودية جديدة للقدس.

٩- الاعتداء على المقدسات الإسلامية بدءاً من التصريحات المعادية ومروراً بالحفريات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإباحة الحرم المقدسى لليهود وحريق المسجد الأقصى فى ١٩٦٩/٨/٢١، وانتهاء بتدنيس شارون للحرم والسماح لليهود والأجانب بدخول ساحة الأقصى وانتهاك حرماته.

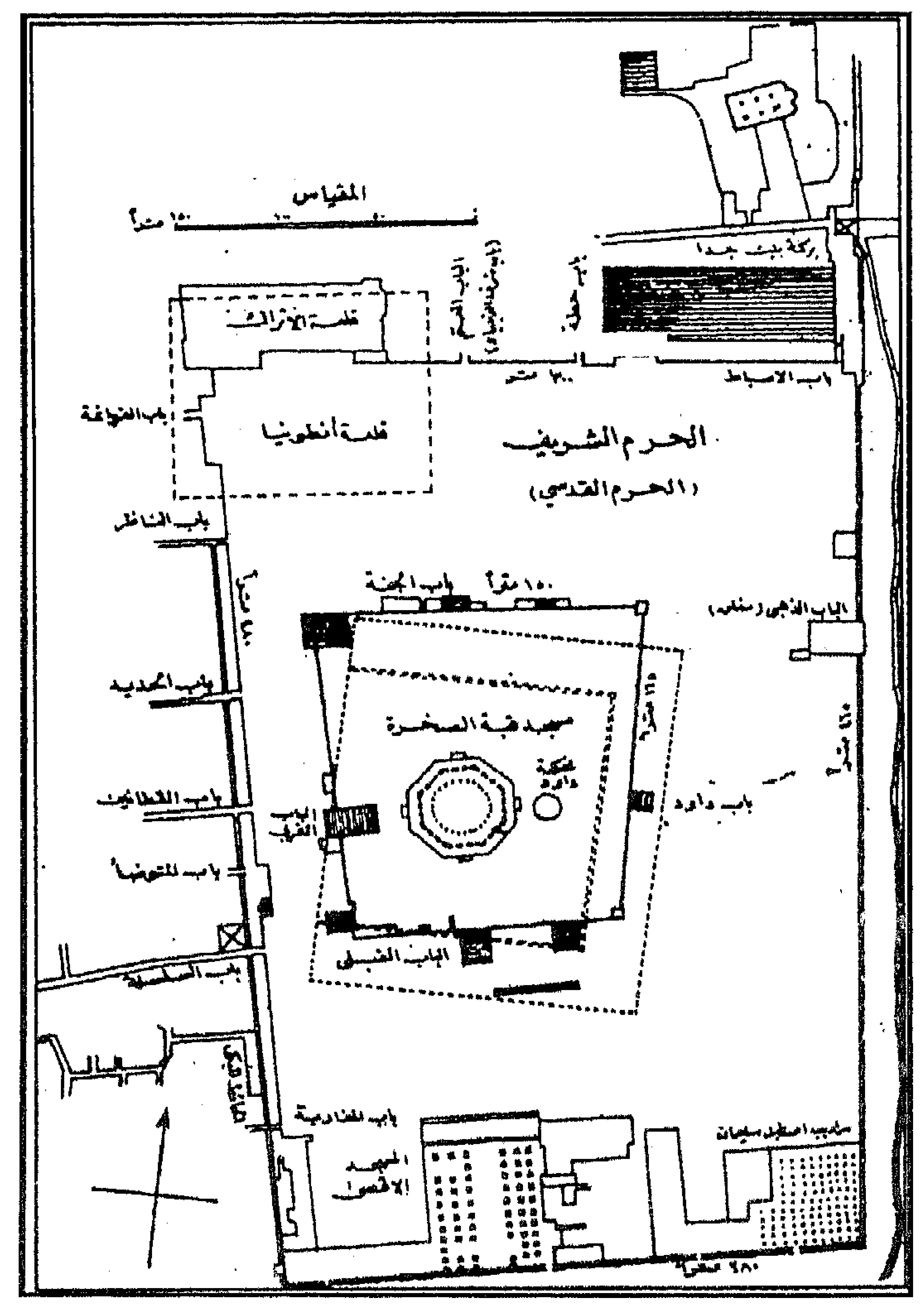
إن الإشارات السريعة السابقة هى موجز لسياسات وقرارات وسلوك سجلته الأيام، وسجله التاريخ فى كتابه، كما سجل التاريخ أيضاً تقاعس المسلمين والعرب تجاه بيت المقدس.

ولئن امتلأت صفحات التاريخ بتدنيس اليهود - منذ عهد يشوع - للمدينة، وحتى عهد شارون، ولئن حفلت صفحات التاريخ بمحاولات محمومة من قبل الإسرائيليين لتهويد المدينة، فإن هذا التاريخ نفسه يسجل صفحات من نور بعض المسلمين المجاهدين الذين حافظوا على القدس على مر تاريخها الإسلامى.

التاريخ يثبت أن الاحتلال أمر طارئ على الأمم والشعوب، وأن التحرر هو الوضع الطبيعي لهـا، وإذا كانت إسـرائيل قـد فعلت مـا فعلت بالقـدس منذ ١٩٤٨م وحتى يومنا هذا فإن المؤمنين على يقين من أن للأقصى ربًّا يحميه.

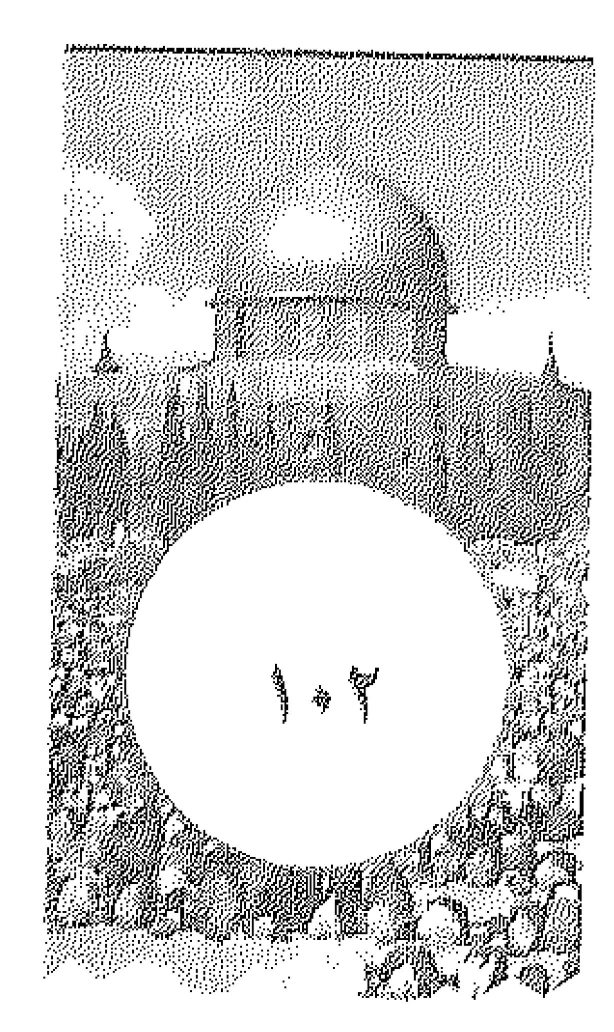
هذا ما فعله الإسرائيليون المعاصرون بالمدينة المقدسة، مسرى رسول الله ﷺ ومعراجه، أولى القبلتين وثالث الحرمين فماذا نحن فاعلون لهذه المدينة ؟!

هذه مرحلـة جديدة من تاريخ القـدس، سيسطرها اللاحـقون لنا، ونأمل أن تكـون أفضل مما كانت عليه مراحلها عبر العصور.



خريطة (١٩)
منطقة الحرم الشريف الحالية

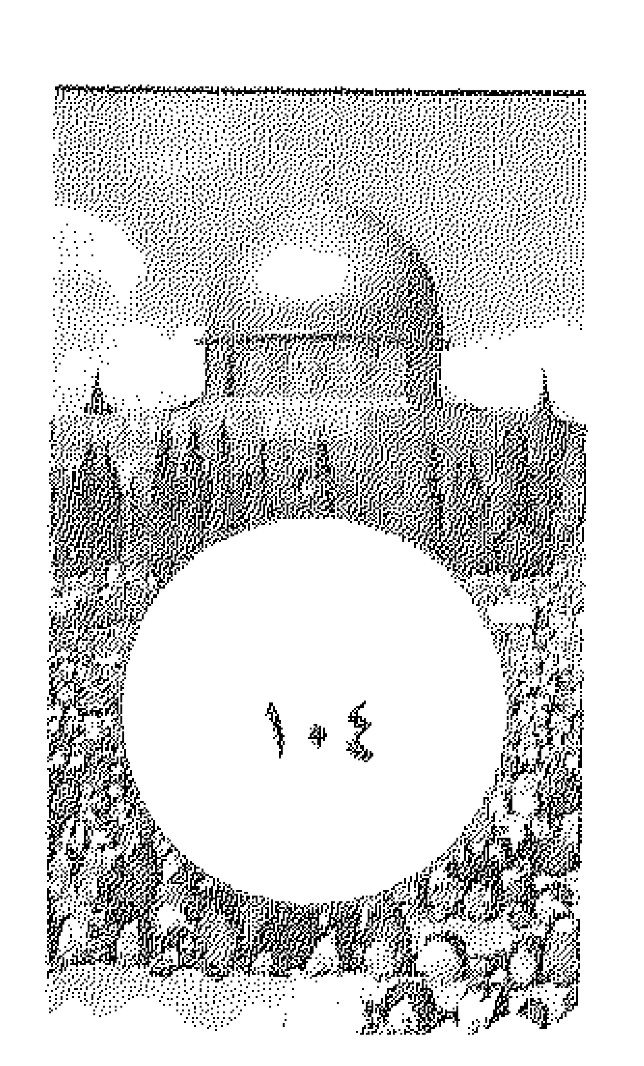


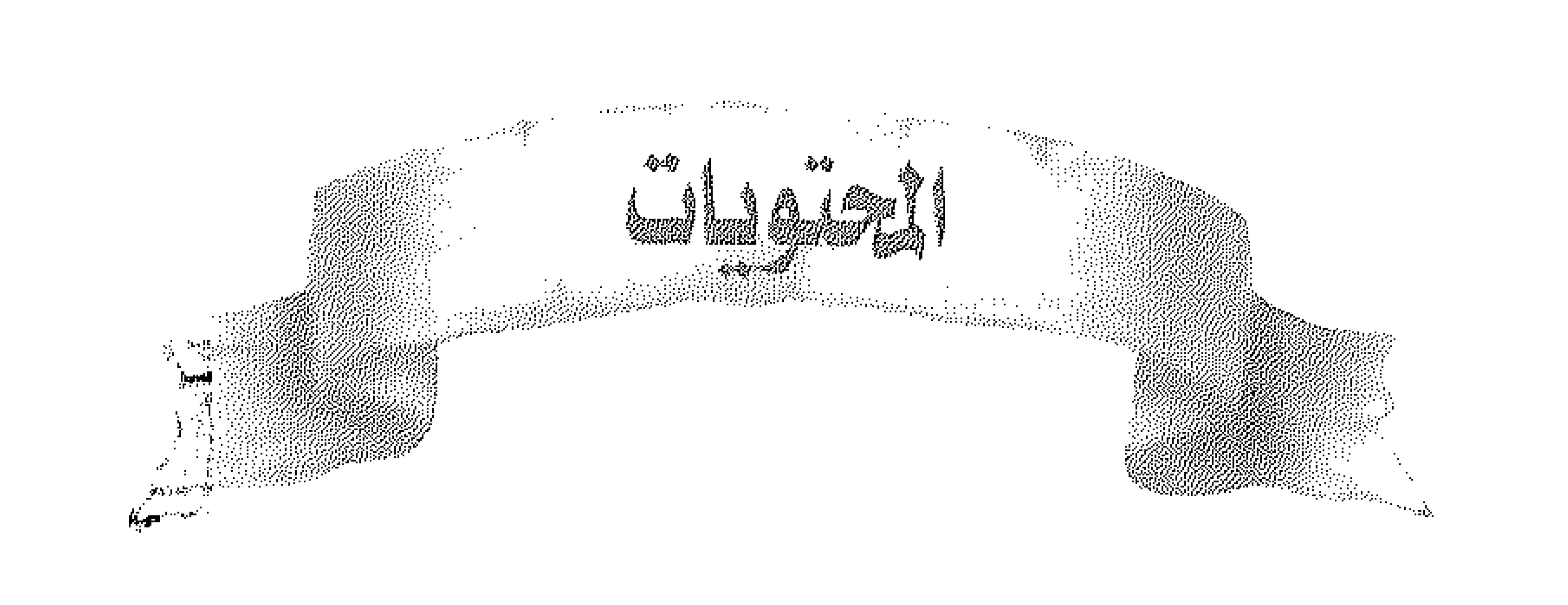


- أبو عبد الله محمد بن شهاب السيوطى، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق : أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- أحمد سوسة، العرب واليهود فى التاريخ، العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د.ت.
- أحمد صدقى الدجانى، الخطر يتهدد بيت المقدس، مركز الإعلام العربى، الجيزة، ط٢، ٢٠٠١.
- أحمد عبد الغفور عطار، عروبة فلسطين والقدس، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٤.
- أمنون كوهين (تحرير)، القدس : دراسات فى تاريخ المدينة، ترجمة : سلمان مصالحة، القدس، ١٩٩٠.
- حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- حسين حمادة، آثار فلسطين، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٧.
- خالد محمد غازى، القدس .. سيرة مدينة، دار الهدى، المنيا، ١٩٩٨.
- رجاء جارودى، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة وتعليق وتقديم : عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٦.
- سامى محمد عبد الحميد، القدس فى اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠١.
- سيد فرج راشد، القدس : عربية وإسلامية، د.ن، ط٢، ١٩٩٥.
- شفيق مقار، المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩٢.
- ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٩.
- عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.



- عز الدين فودة، قضية القدس، دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٧.
- فؤاد حسنين على، فلسطين العربية، القاهرة، ١٩٧٣.
- قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث، الجيزة، ١٩٩٣م.
- كارين آرمسترونج، القدس : مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة : فاطمة نصر ومحمد عنانى، سطور، القاهرة، ١٩٩٨.
- محمد جلاء إدريس، أورشليم القدس فى الفكر الدينى الإسرائيلى، مركز الإعلام العربى، الجزيرة، ٢٠٠١.
- محمد خالد الأزعر، القدس بين الانتفاض والتفاوض، مركز الإعلام العربى، الجيزة، ٢٠٠١.
- محمد صبيح، القدس ومعاركنا الكبرى، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧١.
- محمد نصر مهنا، مشكلة فلسطين أمام الرأى العام العالمى ١٩٤٥ - ١٩٦٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.
- محمود عواد (جمع وتصنيف)، القدس فى قرارات الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٧، منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، ١٩٩٥.
- هابيل فهمى عبد الملك «أورشليم القدس منذ أقدم العصور وحتى بداية العصر الرومانى : دراسة تاريخية وثقافية»، فى : القدس التاريخ والمستقبل، أبحاث الندوة الدولية للقدس، مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط ٢٩ - ٣٠ اكتوبر ١٩٩٦، تحرير : محمد إبراهيم منصور، جامعة أسيوط، ١٩٩٧.


١٠٤


المحتويات



The city of Jerusalem is rich in history, as it accommodates the most sacred relics of the three religions, furthermore it accommodates " al Aqsa Mosque ", and the traces of the Prophet's " Night Journey".

Many ancient kingdoms were established in Jerusalem but were dismantled by the Persians and the Romans consequently.

When the Arabs conquered Syria, they entered Jerusalem in the time of Caliph Omar Bin El-Khatab, who demonstrated an equaled tolerance toward the Christians and the Jews in the city.

The Ummayads established the "Rock Mosque" and its magnificent Dome. It is important to note that non- Moslems enjoyed full freedom in practicing their own religious services, and rituals under the Islamic umbrella in Jerusalem.

However, in the eleventh Century A.d. The Papacy launched an aggressive campaign against the Islamic world, hoping to restore the city of Jerusalem. The Crusaders committed all sorts of barbaric crimes against the peoples of Jerusalem in 1099 A.D. Later on the great hero Sultan Saladin succeeded in unifying the Islamic world, and restoring Jerusalem from the hands of the Crusaders.

In modern times, the British Minister of Foreign Affairs Balfour issued his declaration which pledged to make Palestine a national home for the Jews, to the determent of the indigenous Palestinians, thus in 1948 the State of Israel was established, and Jerusalem was split into two parts, eastern and western. In 1967 Israel invaded east Jerusalem, which accommodates the "Aqsa Mosque", and the church of Holy Sepulchre. Sadly enough, the whole world has done nothing to salvage these Holy Sites from the hands of Zionists.

Dr. Mohammed Galaa Idris

Encyclopaedia Introduction

History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

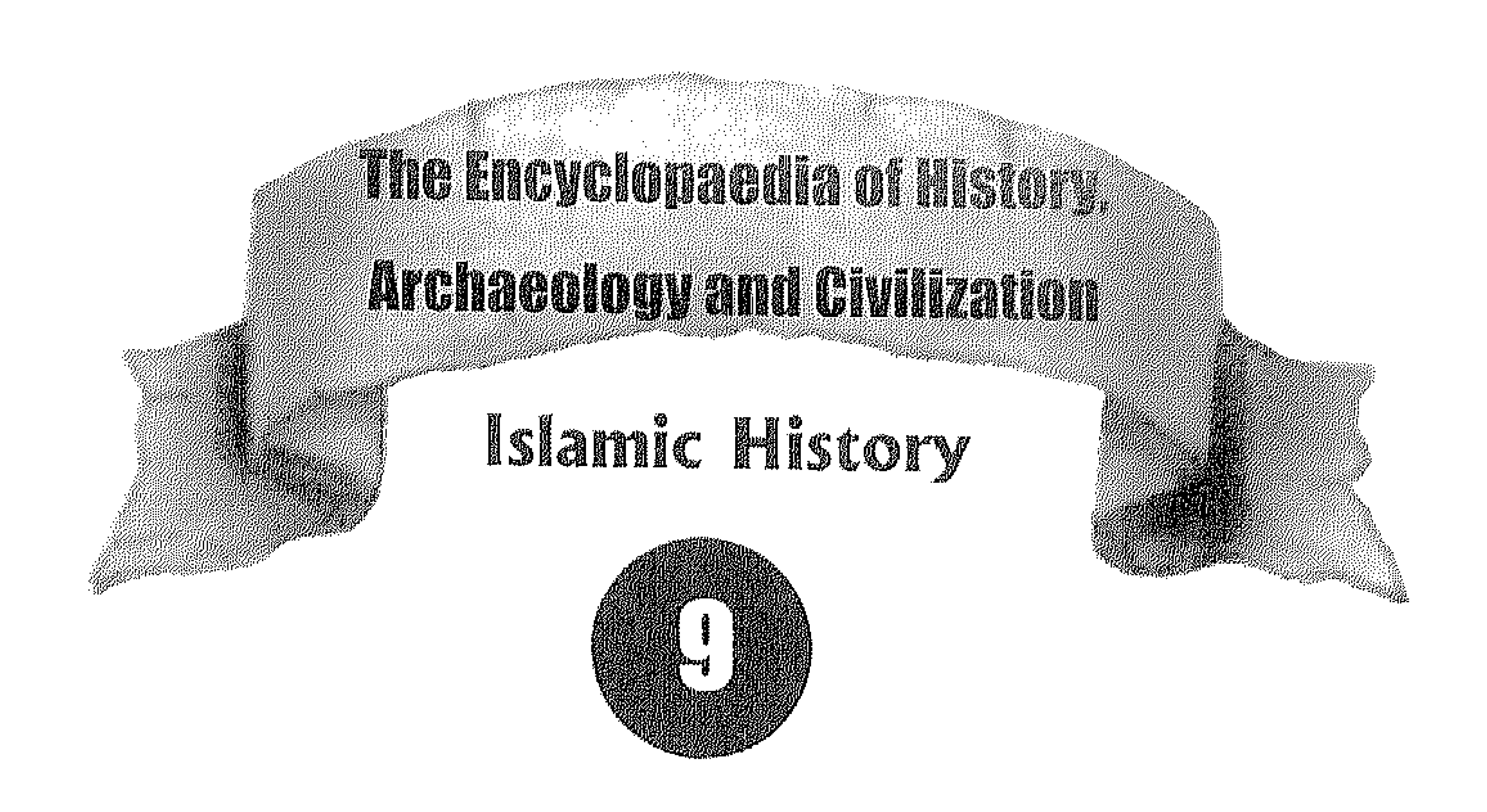
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

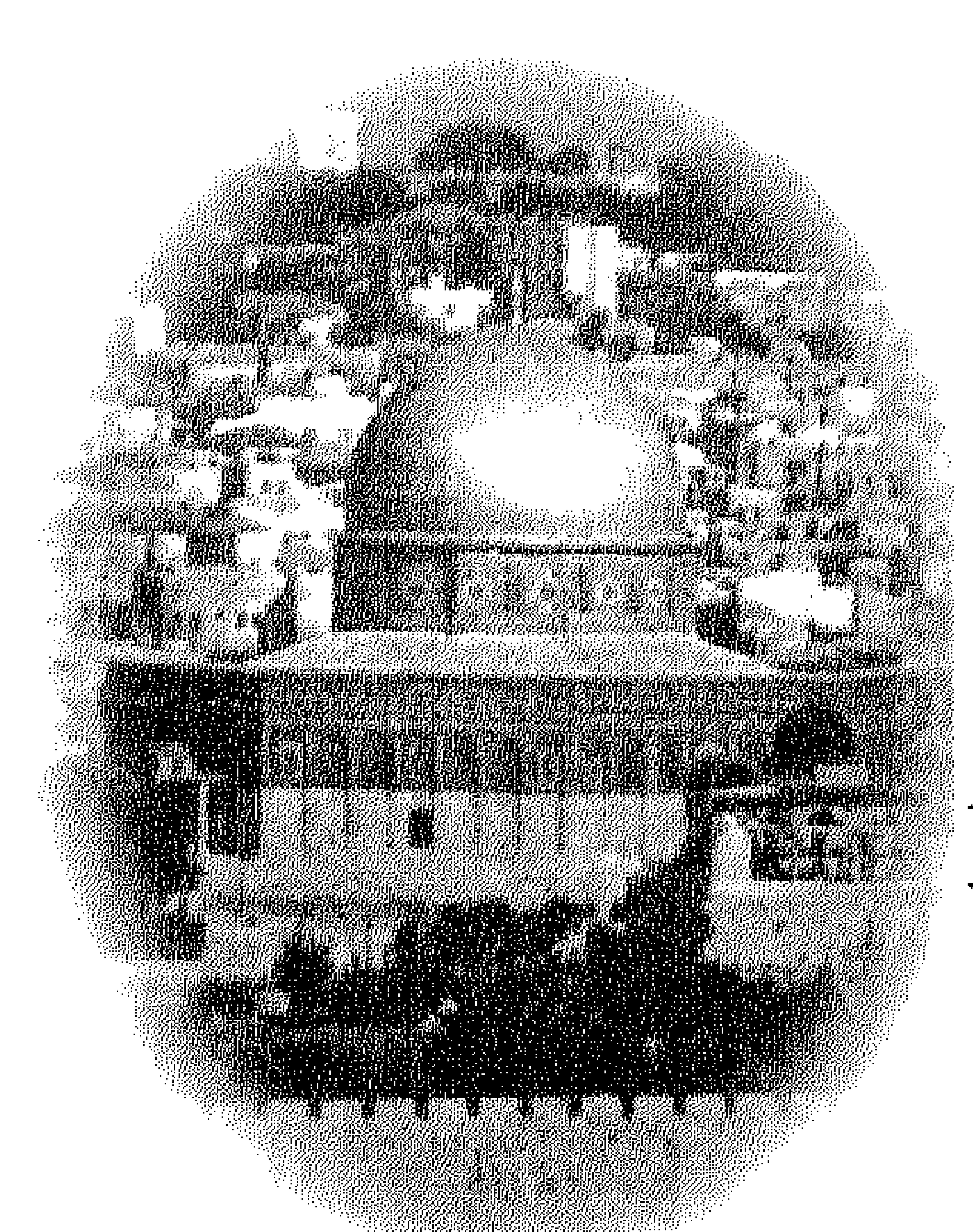
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



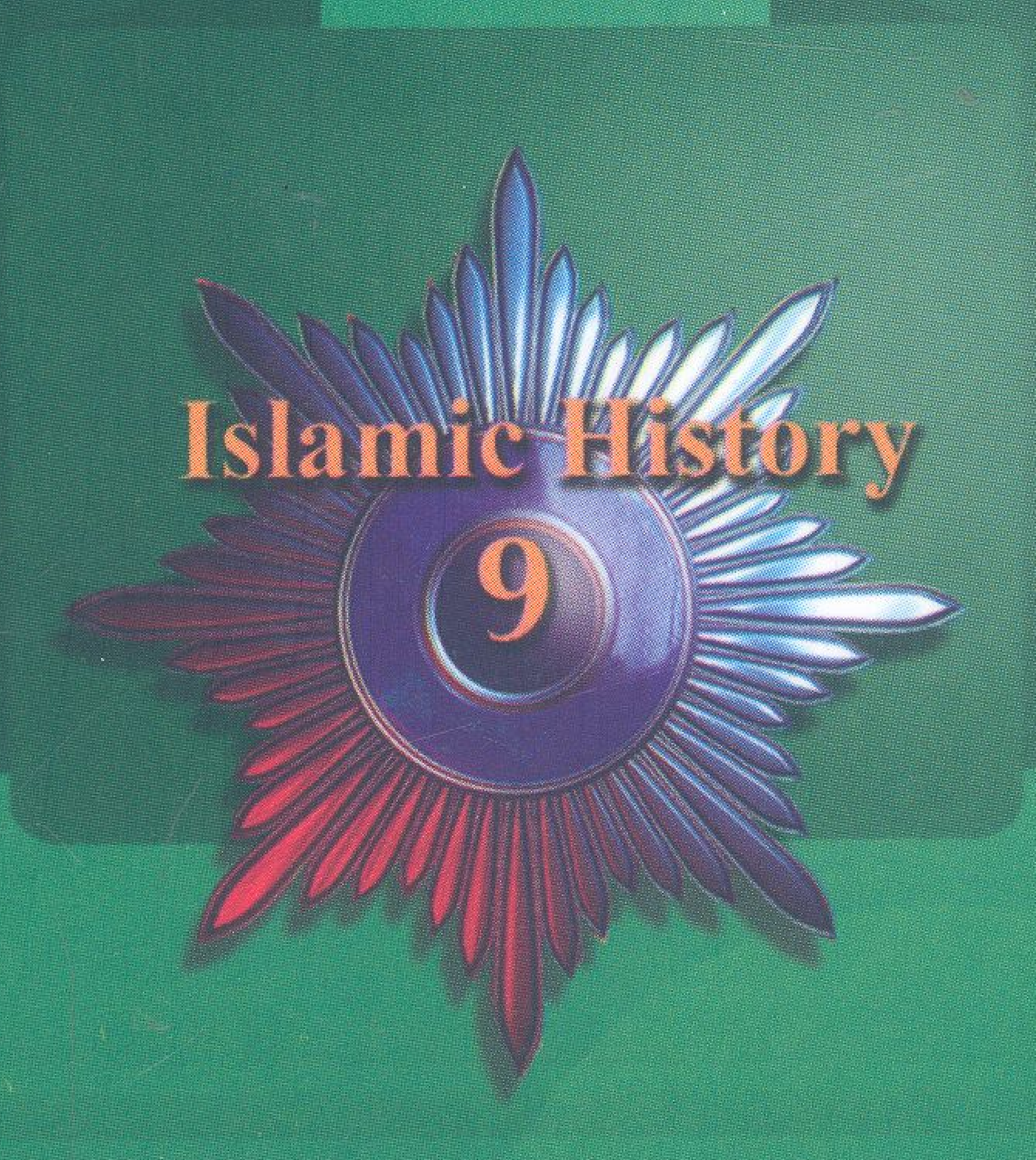
Jerusalem



Dr. Mohammed Galaa Idris

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 2752794 . Fax : 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Jerusalem



Dr. Mohamed Galaa Idrees

